جامعـــة ابن خلدون-تيـــارت-
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعيـــة
قسم اللغات والآداب

الموضوع:

جـــــدلية الثنـــــائية في اللسانيات الحـــديـــثة

مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية
في إطار مشروع التعليمية والدرس اللساني العربي

إعداد الطالبة: بركاهم بلفضل

إشراف الأستاذ الدكتور: عبد الجليل مرتاض

أعضاء لجنة المناقشة

أد. صالح بلعيد	أستاذ التعليم العالـــي	رئيســـا	جامعة تيزي وزو
أد. عبد الجليل مرتاض	أستاذ التعليم العالـــي	مشرفا ومقررا	جامعة تلمسان
د. أحمد عرابي	أستاذ محاضر	عضوا مناقشـــا	جامعة تيارت
د. عبد الحليم بن عيسى	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة وهران
د. عبد القادر شاكر	أستاذ مكلف بالدروس	عضوا مناقشا	جامعة تيارت

الموسم الجامعي: 2006-2007م
1427 هـــ-1428هـــ

المقدمة

مقـــــدمـــــــــــــــة

الحمد لله الذي شرّف الإنسان وكرّمه؛ وفضلّه على كثير مما خلق من المخلوقات والصلاة والسلام على نبي الهدى محمد الأمين.

حظيت اللغة كظاهرة فكرية اجتماعية بنصيب وافر من الدراسات على مرّ العصور وتعاقب الحضارات، وباختلاف المناهج والإجراءات سعت هذه الدراسات سعيا حثيثا نحو بلوغ الغاية العلمية والدقة والموضوعية في كشف أسرار اللغة تلك الميزة الإنسانية وذلك الكنز الاجتماعي المودع في البشر.

وتتابعت الدراسات اللغوية محاولة اللحاق بالركب العلمي وتحقيق مكانة مرموقة بين العلوم والمعارف الإنسانية فشهدت في مسيرة تطورها تحولات وتغيرات كان لها كبير الأثر في هذا المجال حتى بلغت في العصر الحديث منزلة رفيعة بين مختلف ميادين البحث العلمي.فغدا علم اللغة اليوم علما مستقلا بذاته قائما على أسس منهجية ومفاهيم إجرائية نابعة من صميم اللغة كموضوع لهذا العلم.

ولعل أهم نقطة تحول شهدها علم اللغة طوال تاريخه الحافل بالإنجازات تلك النظرية اللسانية التي ظهرت على يد العالم اللساني السويسري فاردينان دي سوسير والتي ما كانت لترى النور لولا ذلك التراكم الفكري والمعرفي الذي سبقها والممتد طوال قرنين من الزمن(القرن 18م والقرن 19م) وربّما قبل ذلك بقليل.

هذه النظرية التي ارتكزت أسسها المعرفية على جهود من سبقوها من رواد علم اللغة الذين كان لهم الأثر البارز والدور الفعّال في تأسيس علم اللغة عامّة، وعلى هذه النظرية خاصّة. إذ استلهم مؤسسها مفاهيم نظريته من فكر سابقيه وقدّمها في قالب جديد اتّسم بالوضوح والدّقة والتجريد النظري. فمثلت بذلك تأسيسا لمنهج علمي جديد في الدراسات اللغوية سعى لدراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، قام على جملة من التصورات الأساسية حدّدت معالم علم اللغة ليصبح بذلك علما قائما بذاته. وظهر بذلك اتجاه جديد في الدراسات اللغوية عرف بالبنيوية،

والتي قامت على مفاهيم ترسخت في ميدان البحث اللغوي على الرغم من اختلاف التوجهات والرؤى حول كيفية معالجة الظاهرة اللغوية.

تمثلت هذه المفاهيم في الثنائيات اللسانية التي اشتهرت بثنائيات دي سوسير باعتباره واضعها، وإن كان مفهوم الثنائية قديما وله جذور تاريخية وفلسفية. وهذا ما حاولت الكشف عنه بالبحث في موضوع: **جدلية الثنائية في اللسانيات الحديثة**. في إطار مشروع التعليمية والدرس اللساني العربي، فالصلة وثيقة بين التراث الفكري العربي والفكر الغربي والمتأمل لموروثنا اللغوي يجد كثيرا من الأفكار العربية الأصيلة التي تمثل جذورا لنظريات لسانية غربية حديثة وليس مستبعدا أن يكون علماء الغرب قد درسوا تراثنا الحضاري وتأثروا به فاستمدوا منه بعض المفاهيم وطوروها، مثلما أقر تشومسكي بدراسته للنحو العربي. بالإضافة إلى ضرورة التبادل الفكري بين الأمم والشعوب خدمة للإنسانية.

وكان من أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع الرغبة في معرفة هذه المفاهيم عن قرب وتحليلها لتبسيط مفاهيمها ثم التعرف على الدور الفاعل الذي قامت به الثنائيات اللسانية التي مثلت مرحلة الريادة والتأسيس للسانيات البنيوية ثم تبلورها وتوسع مفاهيمها مع ظهور المدارس اللسانية إذ طبعت كل مدرسة هذه الثنائيات بطابعها الخاص وفقا للمنهج المعتمد في دراسة اللغة. ثم محاولة البحث عن الجذور التاريخية والفلسفية لهذه الظاهرة اللغوية.

وتنبع أهمية هذا الموضوع من المنزلة الهامة التي احتلتها هذه المفاهيم في اللسانيات الحديثة إذ مثلت حجر الأساس في إرساء قواعد اللسانيات البنيوية وذلك لأنّها حدّدت معالم الدراسة العلمية للغة القائمة على مفهوم النظام والدقة في الوصف وتحديد المفاهيم الإجرائية، فنتجت عن هذه الدراسة توجهات لسانية اختلفت باختلاف مناهجها وطرق معالجتها للظواهر اللغوية واتفقت بدرجة كبيرة على هذه التصورات الثنائية وإن أضفت كلّ مدرسة طابعها الخاص عليها.

ويطرح هذا الموضوع إشكالية مهمة تتمثل في جملة الأسئلة التالية: لماذا اعتمدت اللسانيات الحديثة على مفهوم الثنائية كمنوال إجرائي في دراسة اللغة؟ من أين استمد هذا المفهوم؟ وإلى أي مدى خدمت فكرة الثنائية الدرس اللساني الحديث؟

وقد اعتمدت في هذا البحث الخطة التالية:

- المقدمة.

– مدخل بعنوان جدلية الثنائية في الدراسات اللغوية القديمة وقد ضمنته لمحات موجزة حول الدراسات اللغوية القديمة عند الهنود واليونان والرومان والعرب، فقد أسهم التفكير اللغوي لهذه الشعوب في وضع اللبنات الأولى لعلم اللغة؛إذ تناول اليونان جدلية الثنائية في إطار فلسفي،كما تطرق العرب إلى نشأة اللغة بين التوقيف و الاصطلاح .

– الفصل الأول ويحمل عنوان: "رؤى جدلية في اللسانيات التاريخية"؛ وقد ضمنته لمحات موجزة حول الدراسات اللغوية القديمة عند الهنود واليونان والرومان والعرب؛ فقد أسهم التفكير اللغوي لهذه الشعوب في وضع اللبنات الأولى لعلم اللغة؛ ثم انتقلت إلى عصر النهضة ومطلع العصر الحديث(ق14م-ق17م) الذي تميز بحركة إحياء التراثين اليوناني والروماني. وفي أواخر القرن 18م ظهرت اللسانيات التاريخية وفي تطورها امتزجت بالدراسات المقارنة في القرن 19م. وختمت هذا الفصل بتتبع تطور الدرس اللساني حتى ظهور بوادر اللسانيات الوصفية.

– وعنونت الفصل الثاني بـــ: "اللسانيات مع فردينان دي سوسير"؛ وتطرقت فيه إلى أهم المذاهب الفكرية المؤثرة في فكر دي سوسير لأصل إلى ظهور نظريته اللسانية؛ وتميّزها بتلك المفاهيم الثنائية التي حاولت وصفها وتحليلها بشيء من التفصيل، ثم العودة إلى أصولها الفلسفية والتاريخية.

– وتحت عنوان: "الثنائية السوسيرية والمدارس اللسانية"؛ عالجت في الفصل الثالث كيفية تعامل رواد أشهر المدارس اللسانية مع ثنائيات دي سوسير؛ واستثمارها في دراسة اللغة بحسب المنهج المتبع. ثم أوجه الاختلاف والاتفاق بينها. وبتوجيه من الأستاذ الدكتور المشرف اقتصرت على المدارس التالية: جونيف، براغ، كوبنهاجن، المدرسة الأمريكية متمثلة في النظرية التوليدية التحويلية لتشومسكي لأنها أكثر المدارس تأثرا بثنائيات دي سوسير.

– أما الخاتمة فقد تضمنت نتائج هذا البحث.

ولتنفيذ هذه الخطة استخدمت المنهج التاريخي لعرض الدراسات اللغوية عبر مراحل زمنية والبحث عن الجذور الفلسفية والتاريخية لفكرة الثنائية. والمنهج الوصفي لوصف الثنائيات وتحليلها لتبسيط مفاهيمها.

وبطبيعة الحال فإنّ لكل بحث صعوبات وعوائق تواجه الباحث؛ ولعل أكبر عائق واجهني تمثل في الخوف من تناول مثل هذا الموضوع الحديث المتعلق باللسانيات الغربية، بالإضافة إلى صعوبة الإحاطة بكامل المادة العلمية للموضوع لأن جل مصادرها أجنبية؛ مما اضطرني للجوء إلى الترجمة.

ولا أدعي السبق في طرح هذا الموضوع فلقد تعددت الدراسات والمؤلفات التي تناولت فكرة الثنائية بالدراسة والتحليل، لكنني حاولت الوصول إلى حقيقة تلك المفاهيم التي مثلت دعائم أساسية لعلم اللغة الحديث والبحث في جذورها لمعرفة المصدر المستقاة منه.

ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض على تفضله بالإشراف على هذا العمل المتواضع؛ إذ لم يبخل علينا بتوجيهاته القيمة وإرشاداته السديدة. وأثني بالشكر على الأستاذ بن جامعة الطيب؛ الذي كان له فضل كبير في إنجاز هذا البحث. كما أشكر لجنة القراءة التي تشرفنا بتقييم هذه المذكرة؛ والشكر موصول إلى كل من مدّ لي يد العون.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وإن أصبت فبتوفيق من الله وإن أخطأت فحسبي أنني اجتهدت. وما توفيقي إلاّ بالله.

بلفضل بركاهم

2007/01/21

السوقـــــــر

المدخل

جدلية الثنائية في الدراسات اللغوية القديمة

- ❖ لمحة تاريخية عن الدراسات اللغوية القديمة.
- ❖ المفهوم الفلسفي لجدلية الثنائية عند اليونان.
- ❖ مفهوم الثنائية في التراث العربي.

جدول الرموز (المختصرات)

- **ص: الصفحـــــة.**
- **ط: الطبعـــــــة.**
- **ج: الجـــــــزء.**
- **مج: المجلـــــــد.**
- **تر:ترجمـــــــة.**
- **تع:تعليـــــــق.**
- **تح:تحقيـــــــق.**
- **ب–ط:بدون طبع.**
- **ب–ت–ن:بدون تاريخ نشر.**
- **ب–م–ن:بدون مكان نشر.**

لمحة تاريخية عن الدراسات اللغوية القديمة:

بدأ الاهتمام باللغة منذ أن تكونت التجمعات البشرية، واحتاج أفرادها إلى وسيلة للتخاطب والتواصل،وعلى مر العصور و تعاقب الحضارات؛ حاول الإنسان كشف حقيقة اللغة، و سبر أغوارها والوقوف على أسرارها. وبتعدد الأسباب والدوافع إلى البحث في اللغة؛ تعددت طرائق معالجة الظواهر اللغوية، فقد ارتبطت الدراسات اللغوية القديمة بالتراث الثقافي، والمعتقدات الدينية لهذه الأمم والشعوب.

ونجد في الحضارة المصرية القديمة «آثارا قليلة تتعلق بمعالجة المشاكل اللغوية أيا كان موضوعها فقد نسبت نشأة الكتابة إلى الإله توت وهو أيضا إله السحر.» [1] أما الدراسة اللغوية عند الأكاديين « فترجع نشأة اللغة والكتابة حسب أسطورة أكادية إلى الرجل السمكة أوانس (OANNES) الذي جاء إلى الأرض ليعلم الناس الفنون والعلوم والتقنيات » [2] وفي هذا دليل على ارتباط التفكير اللغوي عند الشعوب القديمة بالأساطير والخرافات وفي رواية أخرى« نجد رسالة إلى ملك ساردانابال تنُّص على أن نشأة الكتابة ترجع إلى ابن الإله مردوك». [3]

وتوالت الدراسات اللغوية عند الشعوب القديمة من الصينيين والفينيقيين واليهود وغيرهم من الأمم حيث طبعت كل دراسة لغوية بثقافة شعبها ومعتقداته إلى أن وصل التفكير اللغوي إلى درجة من النضج والدقة العلمية والوضوح على يد الهنود واليونان والعرب،وصولا إلى العصر الحديث، فظهر علم اللسان أو اللسانيات،والتي سعت-بمختلف مناهجها-إلى دراسة اللغة دراسة علمية لذاتها ومن أجل ذاتها.

ولابد قبل الوصول إلى هذه المرحلة من الإطلاع – ولو بشكل بسيط وسريع – على التفكير اللغوي عند الهنود واليونان والرومان والعرب، للوقوف على الإرهاصات الأولى لعلم اللسان الحديث.

1) التفكير اللغوي عند الهنود:

---

[1] جورج مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تر:بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق،سوريا، 1392هـ- 1972 م، ص: 46

[2] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة و التطور، ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون، الجزائر ، 2002 م، ص: 4 .

[3] المرجع نفسه، ص: 4

يعد الدرس اللغوي الهندي أقدم دراسة علمية للغة وأوضحها «لأنها تعود إلى الفترة التي تبدأ بالقرن السابع قبل الميلاد، وقد اهتموا باللغة السنسكريتية(Sanskrit)لغة الهند الكلاسيكية »[4]وكان الدافع وراء هذه الدراسات هو الحفاظ على النص الهندي المقدس (الفيدا) وخدمته، ونتيجة لهذا قدَّم الهنود أبحاثا مهمة شملت مختلف المستويات اللغوية من أصوات ونحو ومعجم.وأهم إنجاز لغوي هندي كان من وضع العالم بانيني (Panini)، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد حيث قدم عدة أبحاث. لغوية، تناولت الأصوات والنحو والصرف

كتاب (المثمن)« المؤلف من ثمانية أجزاء والمحتوي على أربعة آلاف حكمة أو قاعدة، والذي ترجم إلى أوربا بين 1815م- 1840م على يد بوتلينخ (Bohthingh)، وهو كتاب نحوي وصرفي واشتقاقي».[1]

وقد نال هذا الكتاب أهمية خاصة عند علماء اللغة في الغرب، إذ مكنهم من الإطلاع على ذلك التراث اللغوي الهندي الهام، والذي استفادوا منه لاحقا في دراساتهم. وذكر جورج مونان هذا الكتاب في تاريخه فقال: « وللكتاب أهمية خاصة يذكر لنا مؤلفه أخبار طائفة من اللغويين السابقين الذين تناقلوا العلم شفاها. ويبلغ عددهم 68 لغويا يتلو علينا بانيني Panini أسماءهم الواحد تلو الآخر حتى يصل إلى سلفه المسمى Yasha، فيحدثنا عن كتابه في شرح اللغة. وبفضل بانيني Panini نقف على سلسلة طويلة من الأبحاث التحليلية اللغوية التي تناقلتها أجيالهم شفاها» [2]

ونظرا للتغيرات التي طرأت على اللغة الفيدية؛ ظهرت لهجات اختلفت عنها؛ وهذا ما دفع بالنحاة الهنود وعلى رأسهم بانيني إلى دراسة اللغة؛ ولاسيما الجانب الصوتي. وقد خلَّف الهنود آراء صوتية أفادت الدرس الصوتي الحديث بقدر كبير؛إذ صنَّفوا أصوات السنسكريتية حسب المخارج فميزوا بين الحروف التي تنطق داخل الفم والحروف التي تنطق خارجه«وقد ميَّزوا أيضا بين الأصوات التي تصحب بصوت حنجري (كهوسفانت)، والتي تتميَّز – زيادة على كونها مصحوبة بصوت حنجري – بصدى في التجويف الأنفي (أنوناسيكا)، وهي أصوات الغنَّة».[3] فقد عرفوا

---

[4] محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية للطبع و النشر و التوزيع، الإسكندرية،2002 م،ص:16.

[1] عبد الجليل مرتاض ، في مناهج البحث اللغوي ، دار القصبة للنشر ، الجزائر، 2003 م، ص: 14 .

[2] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة، ص: 64 .

[3] أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون،الجزائر،ط 1999 م، ص: 58.

الأصوات التي تتميَّز بصفة الغنَّة أو الأصوات الأنفية. وقد أشاروا إلى مسألة النفس الصوتي إذ« يمتاز الكلام بعنصر أساسي هو النفس الصوتي الذي يتحول بتماسه بالقناة الصوتية تماسا يؤثر فيه » [4] فالهواء الحامل للصوت يتأثَّر أثناء مروره في الجهاز الصوتي بأعضاء النطق فينتج عن ذلك صوت معين.

أما بالنسبة لقواعد النحو الهندي، فقد ميَّزت الفعل عن الاسم وحروف الجر والأدوات المتممة.[5] وتفطن النحاة الهنود إلى قيمة الكلمة في السياق، وقد أشار إلى هذه الفكرة براباكارا(Prabhakara) وهو يعلم تلاميذه« أن لا معنى للكلمة المفردة إلا في العبارة».[6] وتميَّز النحو الهندي بدقته وبعده عن المنطق إذ انطلق من الواقع اللغوي وفي هذا السياق يشيد جورج مونان بجهود الهنود في الدراسات اللغوية فيقول«وهذه الدقة ؛

تثير دهشتنا مما جعل العلامة تيم(P.Thime)يمنح بانيني لقب(هوميروس علم اللغة» .[1]

وبالإضافة إلى جهود بانيني، فقد وجد علماء آخرون ساهموا في الدراسات الهندية منهم باتنجالي(Batangali) الذي شرح كتاب بانيني، وأسهم في الجانب الصوتي للغة الهندية. وقد اعتمد الهنود في دراساتهم اللغوية على المنهج الوصفي، إذ انطلقوا من الواقع اللغوي في وصف الظواهر اللغوية وتحليلها بدقة وبطريقة علمية، وعلى رأسهم بانيني الذي وصف في كتابه« القوانين الصوتية والنحوية للغة السنسكريتية وصفا دقيقا جعل علماء اللغة المحدثين يعدُّونه رائد النحاة الوصفيين القدماء، وهو يعد بحق سيبويه السنسكريتية، ولا تزال آراؤه تجد قبولا لدى علماء اللغة المحدثين. » [2]

إن جهود علماء اللغة الهنود قد مهدت الطريق لنظرية علمية في دراسة اللغة والدليل على ذلك اكتشاف اللغة السنسكريتية، والذي يعدُّ نقطة تحول هامة، ومنعطفا كبيرا في تاريخ علم اللغة، إذ ساعد على تطور الدراسات المقارنة، ولعل خير من عبَّر عن ذلك الدكتور محمود السعران حين قال:« الحق أن الآراء الصوتية المأثورة عن الهنود وأن النحو الهندي عامة، قد أفادا

---

[4] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة، ص: 65.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:68.

[6] المرجع نفسه، ص:69.

[1] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة، ص: 66 .

[2] كريم زكي حسام الدين ،أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلومصرية ،ط 2 ، 1985 ، ص: 40 .

الدراسة اللغوية الحديثة أيما فائدة ومعرفتنا بالسنسكريتية لا تعدو القرن الثامن عشر عندما كشف عنها سير وليم جونز. » [3]

2) التفكير اللغوي عند اليونان:

اهتم علماء اليونان القدامى باللغة وإن ربطوا التفكير فيها بالفلسفة والمنطق باعتبارهم فلاسفة، فبحثوا في نشأة اللغة وأصلها، ودام الجدال حول هذه المسألة قرونا«بين أصحاب القياس(Analogists) وبين أصحاب التشذيذ (Anomalists) فأصحاب القياس كانوا يعتقدون أن اللغة في أساسها طبيعية(Naturel) وهي لذلك منتظمة (أي مطرِّدة القواعد) (réguler) ومنطقية (Logical)، أما أصحاب التشذيذ فكانوا ينكرون هذه الأمور، ويشيرون إلى الشواذ الملحوظة في التركيب اللغوي».[4] ثم نتج عن هذا الجدال مسألة أخرى تمثلت في العلاقة بين الألفاظ والمعاني وتعارضت حولها نظريتان ترى الأولى أنَّ للألفاظ معنى لازما متصلا بطبيعتها، أي أنها تعكس– إما بلفظها المعبِّر وإما ببنية اشتقاقها – الواقع الذي تعبِّر عنه (ويبقى أفلاطون أشهر من يمثل هذا الاتجاه في حواره كراتيلCratyle)، وترى النظرية الثانية أن للألفاظ معنى اصطلاحيا ناجما عن اتفاق أو تراض بين البشر.و أرسطو هو الناطق بهذه النظرية » [1]

وتناول اليونانيون عدة مسائل لغوية بالدراسة والبحث، ولاسيما تلك التي تحدَّث عنها أفلاطون حيث«قسم الجملة إلى اسمية وفعلية، واكتفى بالتمييز بين الأسماء والأفعال ورأى بأن الأسماء هي العبارات التي تدل عمن يقوم بالحدث في الجملة، وأن الأفعال هي العبارات التي تدل على حدث أوصفة في الجملة، وبهذا يكون قد عدَّ الأفعال والصفات قسما واحدا »[2]ويعد أفلاطون أول اليونانيين اهتماما بالدرس اللغوي.

أما تلميذه أرسطو فقد اهتم بالمسائل النحوية، وإن خالف أستاذه في كثير من القضايا إذ يقول:«يرجع التخاطب بأسره إلى الأقسام التالية: الحرف، المقطع، حرف العطف، أداة التعريف،

---

[3] محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)،دار الفكر العربي، القاهرة، ط 2 ،1417 هـ -1997 م، ص: 78، 79 .

[4] المرجع نفسه ص: 259 ، (الهامش) .

[1] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة ، ص: 91 .

[2] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:17

الاسم والفعل»[3]وبهذا يكون قد أضاف إلى تقسيم أستاذه: الحرف المقطع، حرف العطف وأداة التعريف.

ويعرِّف أرسطو الاسم والفعل فيقول:« الاسم مركب صوتي ذو مدلول، لا يعني فكرة الزمن ولا تفيد أجزاؤه معنى بحد ذاتها، ففي الاسم المركب لا يستخدم الجزء بمعناه الخاص مثلا: في كلمة تيودور اللفظة الثانية" دور" لا مدلول لها.» [4]أما الفعل فيرى أنه« مركب صوتي ذو مدلول، يعني فكرة الزمن ولا يفيد أي جزء منه معنى بحد ذاته كما هي حال الأسماء فلفظة" إنسان " ولفظة " أبيض" لا يشيران إلى لحظة زمنية. في حين أن لفظة" سار" " يسير" تفيد الزمن الماضي من جهة والحاضر من جهة ثانية بالإضافة إلى المعنى» [5] فيظهر أن أرسطو يعرف الاسم والفعل استنادا على ما يدلان عليه من معان، ويربط شكل الفعل بزمنه من جهة ومعناه من جهة أخرى.

ولابد من الإشارة إلى فكرة فلسفية عند أرسطو طغت على تفكيره اللغوي إذ يرى« أن كل شيء في هذا العالم يتكون من شكل ومادة، وأن الشكل أهم من المادة» [6] وهي الفكرة التي نجدها عند سوسير في اللسانيات الحديثة.

ظهرت- بعد أرسطو-مدرستان اهتمتا بالمسائل اللغوية:أما الرواقيون (نسبةإلى المدرسة الرواقية)* فقد« أولوا أهمية كبيرة بثنائية الشكل والمعنى في كل دراسة لغوية،وميَّزوا بين أربعة أقسام للكلام الاسم والفعل والحرف والرابط، وقسَّموا الاسم إلى قسمين: اسم الجنس واسم العلم، وأدرجوا الصفة في قالب الأسماء ».[1] ولعل أصحاب هذه المدرسة قد طوَّروا القواعد

---

[3] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:88.

[4] المرجع نفسه، ص:88

[5] المرجع نفسه، ص:88

[6] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:19.

* تعد المدرسة الرواقية أهم مدرسة فلسفية في أثينا بعد أرسطو، وذلك لعنايتها القصوى بالمسائل اللغوية والفلسفية أسسها المفكر العبقري زينون سنة 308 قبل الميلاد. (أحمد مومن، اللسانيات، النشاة و التطور،ص: 20).

[1] المرجع نفسه ص: 20

اللغوية في حين أن أصحاب مدرسة الإسكندرية * « لم يفعلوا– على صعيد القواعد اللغوية– سوى التوسع في تلك الموضوعات التي أشار إليها أفلاطون وأرسطو حول تصنيف الحروف وأقسام الكلام وتحليل حالات الإعراب وبنية العبارة.» [2] هذا على المستوى النحوي.

أما المستوى الصوتي، فإن أهم مظهر من مظاهر اهتمام اليونانيين بالدراسة الصوتية يتجلى في نظام الكتابة« وما يوفره من ترميز شامل للظاهرة الصوتية كما هي مألوفة في اللسان اليوناني، لأن الأمر الذي لا يغرب عن أحد هو أن الكتابة اليونانية – كما هو مؤكد تاريخيا – تستمد أصولها من الكتابة الفينيقية التي انتشرت في الأمصار اليونانية. » [3] ثم أضاف اليونانيون إلى ما ورثوه عن الفنيقيين ترميزا خاصا بالأصوات الصائتة.

ويتحدث أفلاطون في حواره كراتيل عن وحدات التقطيع الثاني فيقول:« ألا ينبغي لنا، نحن أيضا، أن نبدأ بتمييز حروف المد ثم نصنِّف باقي العناصر (أي الوحدات الصوتية التي لا تقبل التجزئة) حسب أنواعها، وهي لا تتضمن صوتا ولا نامة (الحروف الصامتة = الساكنة) ثم ننتقل إلى العناصر التي ليست من الحروف الصامتة ولا من حروف المد ... ». [4] وفي هذا دليل على أنهم عرفوا الحروف الصامتة والصائتة وحروف المد.

ويتكلم أرسطو في كتابه(الفن الشعري) عن التحليل الصوتي كما يلي:« تتألف الأبجدية من حروف صائتة، ومتوسطة وصامتة. والحرف الصائت هو الذي يملك صوتا مسموعا دون أن تحدث حركة في اللسان أو تقارب في الشفتين. والحرف المتوسط هو الذي يملك صوتا مسموعا بفضل هذا التقارب في اللسان والشفتين، مثال ذلك، حرف السين أو الراء... والحرف الصامت لا يملك أي صوت، ولو تم هذا التَّقارب، لكنه يكون مسموعا إذا رافقه حرف صائت مثل: الغين أو الدال... أما المقطع فهو صوت خال من المعنى، يتألف من حرفين صامت وصائت. مثال:

---

* أسست هذه المدرسة مع بداية القرن الثالث قبل الميلاد في مدينة الإسكندرية التي كانت مستعمرة إغريقية، من علماء هذه المدرسة العالم ثراكس(Thrax)، وفي القرن الثاني قبل الميلاد أريستراخوس(Aristrachus)، وهو تلميذ ثراكس وأبولونيوس ديسكولوس(Apollonius Dyscolus)، وهيرود(Herodian)،(المرجع نفسه، ص:23،21).

[2] جورج مونان، تاريخ علم اللغة ، ص: 90 .

[3] أحمد حساني ، مباحث في اللسانيات، ص: 59 .

[4] جورج مونان، تاريخ علم اللغة ، ص: 86 .

المقطع "غر" الخالي من حرف المد... » [1] تبين من خلال هذا النص أن أرسطو قد خلص إلى مجموعة ملاحظات هامة في الجانب الصوتي منها:

●الحرف الصائت هو الصوت الذي يحدث نتيجة مرور الهواء في الجهاز الصوتي دون وجود عائق، أما الحرف الصامت فلا صوت له إلا إذا رافقه صوت صائت وأما المتوسط فهو الصوت الذي يحدث نتيجة تقارب اللسان أو الشفتين.

●كما حدَّد – أرسطو – المقطع بأنه صوت لا معنى له في ذاته، ويتكون من صامت وصائت. وتعد هذه الملاحظات من القضايا الأساسية في علم الأصوات الحديث.

وقامت الدراسات اليونانية للغة على المنهج الاستقرائي المبني على المنطق والفلسفة. وفي هذا يقول ماريوباي:« ولعل السبب الوحيد الذي أدى إلى تخلُّف النحو الإغريقي وعدم إحكام قواعده أن النحاة الإغريق كانوا مرتبطين بأسس ومبادئ منطقية وفلسفية كثيرا ما اعترضت طريقهم نحو الملاحظة العلمية. » [2]

ولئن أخذ على الدراسات اللغوية ارتباطها – عند اليونانيين – بالمنطق والفلسفة فلقد سعى أصحابها إلى وضع القوانين للاستعمال اللغوي الصحيح وبذلك فالنحو اليوناني نحو تعليمي.

3)التفكير اللغوي عند الرومان:

بدأ التفكير اللغوي عند الرومان في القرن الثاني قبل الميلاد إذ « ظهرت حركة حثيثة حملت على عاتقها ترجمة كل الأعمال النحوية والأدبية، والفلسفية والثقافية من اللغة الإغريقية إلى اللغة اللاتينية. وقد شجَّع حكام الرومان كل من يقوم بترجمة أي مظهر من مظاهر التراث الإغريقي، وأغدقوا عليه العطايا. » [3] فقد تأثر الرومان باليونان وكانوا تلامذتهم، مما جعلهم مقلدين أكثر منهم مبدعين. وبذلك يعود لهم الفضل في نقل دراسات غيرهم للأمم المختلفة والتعريف بها.

وكما تذكر بعض الروايات« أن أول من أدخل الدراسات اللغوية إلى الرومان هو الرواقي الشهير قراطيس (Crates) الذي جاء إليها في بعثة سياسية في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

---

[1] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة ،ص: 86 .

[2] المرجع نفسه، ص:86،87.

[3] ماريو باي، أسس علم اللغة، تر وتع:د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط 8، 1419هـ-1998م، ص:227.

وذات يوم، بينما كان يتجول في هذه المدينة، ويتمتع بمناظرها السياحية الخلابة، سقط من حيث لا يدري في فواهة مصرف المياه، فانكسرت رجله على إثرها، وغدا المكوث للمعالجة هناك لزاما عليه. وفي هذه الفترة لم يدَّخر هذا الكسير جهدا لإلقاء دروس في اللغة والفلسفة، وإشفاء غليل القراء المتعطشين. » [1] ففي هذا دليل على تتلمذ الرومان على يد اليونان سواء مباشرة أو عن طريق ترجمة التراث الإغريقي.

أما عن الدراسات اللغوية الرومانية، فإنه وعلى الرغم مما تعلمه الرومان ونقلوه عن الإغريق، فإنهم لم يبلغوا من الدقة في وصف لغتهم ما بلغه اليونان في وصف لغتهم.[2] ففي جانب الأصوات صنَّف الرومان أصوات لغتهم حسب المخارج« فهم مقلدون في هذا الميدان كما قلدوا اليونان في أكثر المسائل الفكرية والثقافية، فنجد جانبا كبيرا من المادة الصوتية المأثورة عنهم في كتابات نحوييهم مثل بريسكيان (Priscian) وترنتياتوس (Terentianus)،وماروس فيكتورينوس (Maurus Victorinus). » [3] وقد اهتم بريسكيان في كتاباته بوصف لغة الأدب اللاتيني الكلاسيكي، ودرس النطق وأبنية المقاطع عن طريق النظر في حروف الهجاء.[4]

وعلى مستوى الدراسات النحوية، فإن أشهر النحاة الرومان العالم فارون (Varron) (116-27 ق.م) الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، ويذكر جورج مونان أنه« أكثر النحويين أصالة، وسواء لخص تعاليم الإغريق أم أضاف إليها من بنات أفكاره، فإننا نرى في هذا الرجل الواسع الإطلاع والذي أخذ العلم عن اليوس ستيلو(Aelius Stilo) عالما فذا من علماء اللغة يتحسس ظواهرها تحسسا دقيقا » [5]وهذا يعني أنه كان متأثرا بفكر أستاذه الرواقي.ويعتبر أكبر مبدع في النحو اللاتيني فهو« صاحب كتاب(في اللغة اللاتينية) الذي بقي لنا منه ستة أجزاء من أصل خمسة وعشرين جزء.» [6] وقد عالج فارون في مؤلفه هذا قضايا نحوية كثيرة منها ما طرحه النحاة الإغريق سابقا، ومنها ما أبدعه هو. وقد اهتم بعلم الصرف، حيث أورد في هذا الباب

---

(1) أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:24.

(2) ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:261.

(3) المرجع نفسه، ص:261.

(4) ينظر محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، ص:26.

(5) جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:93..

(6) المرجع نفسه، ص:92.

ملاحظات مهمة« فكتب عن علامة الزمان، وصيغة الفعل، وحالة الفعل من حيث البدء والاستمرار، أو التمام والانقطاع (Aspect). » [7] أي أنه درس النظام الفعلي وحالاته في اللغة اللاتينية، فتحدَّث عن الماضي التام والماضي المستمر، وقال في هذا الشأن: « لا يطبق مبدأ القياس في أزمنة بعض الأفعال مثل: قرأت – اقرأ – كنت أقرأ. إذ ينتمي الزمن الأول إلى الماضي التام، وينتمي الآخران إلى الماضي المستمر، ومن أجل تدارك هذا الاعتراض يكفي أن نرد الأمور إلى نصابها في تصنيف أزمنة هذا الفعل فنحصل على تقسيم يلائم القياس كل الملاءمة. مثال كنت أتعلم – أتعلم – سوف أتعلم، للأزمنة المستمرة. كنت قد تعلمت – تعلمت – بعد أن أتعلم، للأزمنة التامة. ونرى أن ليست الأفعال هي التي تشذ على القياس. وإذا ما وجد شذوذ ما كان مرده إلى أولئك الذين يخلطون عن عمد بين الأزمنة الثلاثة. » [1]

وصنف فارون الألفاظ في أربع زمر صورية:– الألفاظ التي تتغير(الأسماء والصفات).– الألفاظ التي لها زمن الأفعال.– الألفاظ التي تتغير وتفيد الزمن. – الألفاظ التي لا تتغير ولا زمن لها.[2]

كما تطرَّق إلى مواضيع أخرى كالاشتقاق والتوليد، وتطور دلالة المفردات والنظام التربوي، ومن مؤلفاته« (فن الخطابة) الذي قنَّن فيه قواعد اللغة اللاتينية استنادا إلى طبيعة استعمالها، وأسلوب الكتابة الذي يعتبر حجة في هذا الموضوع.» [3] ولاهتمامه بهذه الميادين يعد فارون عالما موسوعيا فذا، ولغويا أصيلا.

وقد أنجبت الحضارة الرومانية بالإضافة إلى فارون علماء كانت لهم أعمال رائدة ومهمة في حقل الدراسات اللغوية منهم: كونتيلين(Quintilin)(35م -90م) صاحب كتاب "في فن الخطابة" والذي يحوي موجزا لقواعد اللغة [4] وإلياس دوناتوس(Aelius Donatus) وعاش في

---

[7] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:26.

[1] جورج مونان تاريخ علم اللغة ص: 94 ،95.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص: 94.

[3] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلي، دار الأديب للنشر والتوزيع وهران، 2005، ص:55.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة،ص:92

القرن الرابع ميلادي، واشتهر بكتابة الأكاديمي"Ars minor" الذي ظل يستعمل في المدارس حتى القرن السابع عشر ميلادي، وهو أول كتاب يطبع في فرنسا لعدة مئات من الطبعات [5].أما بريسكيان(Priscian)(512م– 560م) فألَّف كتاب "قواعد اللغة "، وهو يقتفي أثر Apollon Dyscote [6] واهتم بعلوم اللغة« فقد خصَّص ثمانية عشر كتابا لأقسام الكلام، وصارت هذه الكتب تعرف بـــ: Priscionus Maior وخصَّص كتابين اثنين لعلم التركيب (Syntax) أصبحا يعرفان Priscianus Minor» [1] ويعد هذا المؤلف مرجعا شاملا ومهما للغة اللاتينية.

وما يلاحظ على الدراسات اللغوية الرومانية أنها ظلت تقليدا للدراسات اللغوية عند اليونان، إلا في بعض الإضافات التي توصل إليها النحاة الرومان. حيث أن اللاتين صاغوا نحو لغتهم على غرار النحو اليوناني، وهم بذلك قد وضعوا لغتهم في القالب الذي تصوره الإغريق للغتهم اليونانية.[2]

التفكير اللغوي عند العرب:

اهتم العرب في العصر الجاهلي بالشعر والخطابة، وشيء من الأمثال والحكم «فلم يؤثر عنهم قبل الإسلام إلا عنايتهم بالشعر، والخطابة وقد حفظوا لغتهم من التغيير فعدوا الخطأ فيها عيبا يتعير به... وأعلنوا بدائع شعرهم وخطبهم في أسواقهم المشهورة أيام مواسم الحج، فكان علمهم الحق هو أدب لغتهم، وهو علمهم العقلي الوحيد، فلم يعنوا بجمع اللغة، أو التأليف فيها.» [3] ولذلك تنافس الشعراء والخطباء في إجادة هذه الفنون واختيار الألفاظ والعبارات والجمل وتهذيبها، وانتشرت رواية الشعر عند العرب حتى اشتهرت في ذلك أسواق العرب كسوق عكاظ وغيره، إذ كانت ملتقى الشعراء والأدباء للاستماع إلى روائع الشعر وتبادل الآراء والأفكار حول ما سمعوا، والتفاخر بالفصاحة والبلاغة حين الأداء اللغوي.

---

[5] ينظر أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:27.

[6] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:93.

[1] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:28.

[2] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:261.

[3] محمد بن إبراهيم الحمد، فقه اللغة، مفهومه، موضوعاته، قضاياه، دار ا بن خزيمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 1426هـ – 2005م، ص:33.

ولمكانة الشعر عند العرب، عدَّ هذا الشعر ديوان العرب، يرجعون إليه في كل ما استغلق عليهم من ألفاظ العربية، وإليه يتحاكمون في الفصاحة والبلاغة، وبذلك صار مصدر علمهم.

وبظهور الإسلام، ونزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، ارتبط التفكير اللغوي عند العرب ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم، حفاظا عليه وخدمة له، وكانت عناية المسلمين بالقرآن الكريم معنى ومبنى، وقد« أوجبت العلاقة أن كل من يريد أن يفهم القرآن أن يتقن العربية وأساليبها إتقانا جيدا، يأمن به العثرة في تفهم ما ترمي إليه الآيات الكريمة. » [4] فكان لزاما على المسلمين أن يدرسوا العربية، ويعرفوا مفاتيحها وذلك للارتباط الوثيق بين اللغة وعلوم الشريعة.« فعني المسلمون منذ القرن الأول الهجري بتدقيق الكتابة العربية وتقييد الحروف الكتابية بالشكل صونا لكلام الله عز وجل عن أن يصيبه التحريف. » [1] فبعد أن استكتب عثمان بن عفان – رضي الله عنه – المصحف الشريف الذي جمع شمل المسلمين، احتاج الناس بعد ذلك إلى ضبط شكل وتنقيط المصحف، لتفادي اللحن الذي فشا في أوساط العامة نتيجة لاختلاط العرب بغيرهم، ودخول أمم جديدة في الإسلام.

قام أبو الأسود الدؤلي(ت 68هـ) بوضع رسم العربية، وذلك بنقط أواخر الكلمات في القرآن الكريم [2] هذا من ناحية الإعراب ولما كانت الحروف العربية متشابهة الرسم كان لابد من التمييز بينها، فندب الحجاج بن يوسف الثقفي نصر بن عاصم الليثي (ت89هـ) تلميذ أبي الأسود لحل هذه المشكلة، فوضع نقطا جديدا على حروف المصحف للتمييز بين الحروف، سمي هذا العمل بنقط الإعجام.[3]

وخوفا على اللسان العربي من اللحن والتحريف، انبرى علماء المسلمين للبحث عن قواعد تحفظ القرآن الكريم واللغة العربية من هذا الخطر، وقصة بنت أبي الأسود الدؤلي تعد أساس وضع علم النحو، ومن ذلك« أن ابنة له قالت له ذات يوم: يا به ما أشد الحر، فقال لها: الرمضاء في الهاجرة يا بنية... فقالت له: لم أسألك عن هذا، إنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها: فقولي إذا ما أشدَّ الحرَّ. ثم قال: إنا لله، فسدت ألسنة أولادنا. وهمَّ أن يضع كتابا يجمع فيه أصول العربية،

---

[4] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:61.

[1] محمود السعران،علم اللغة ، ص: 262 .

[2] ينظر أحمد مومن ، اللسانيات ، النشاة و التطور، ص: 36 .

[3] ينظر محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي ، ص: 77 .

فمنعه من ذلك زياد. وقال: لا نؤمن أن يتكل الناس عليه ويتركوا اللغة وأخذ الفصاحة من أفواه العرب، إلى أن فشا اللحن وكثر وقبح. فأمره أن يفعل ما نهاه عنه، فوضع كتابا فيه جمل العربية ثم قال لهم: أنحوا هذا النحو أي اقصدوه. والنحو القصد، فسمي لذلك نحوا. ويقال إنه أول من سطر في كتاب الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى. فسئل عن ذلك فقال: أخذته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.» [4] وبهذا تم وضع اللبنات الأولى للدرس النحوي وتأسيس علم النحو.

والنحو—كما يعرفه ابن جني–« هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير،والتكسير والإضافة، والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذَّ بعضهم عنها رد به إليها. وهو في الأصل مصدر شائع، أي نحوت نحوا كقولك:قصدت قصدا،ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم.» [5] ويقصد من هذا أن علم النحو جاء لتقويم اللسان العربي وحفظه.

وظهربعد هذا علماء كان لهم دور بارز في الدراسات النحوية كعيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ)الذي كان أول من بعج النحو ومدَّ القياس[1]،والخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175هـ) صاحب كتاب (الجمل في النحو)،وجاء بعده سيبويه(ت180هـ) الذي ألف كتابه المسمى(الكتاب) والذي يعد« أقدم كتاب وصل إلينا في النحو العربي والذي اتخذ أساسالمن وليه من دراسات نحوية» [2] وقد تناول فيه مختلف الجوانب اللغوية من نحو وصرف وبلاغة، كما ضم عددا كبيرا من آيات الذكر الحكيم، بالإضافة إلى شواهد من الشعر والنثر. ثم توالت الدراسات النحوية على أيدي علماء المدارس النحوية.

وأهم هذه المدارس، مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، وقد اشتد التنافس بينهما وإن اختلفتا في كثير من القضايا النحوية لاختلاف منطلقاتهما« وقد اتخذت البصرة اتجاها فكريا فلسفيا

---

[4] أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو،تح: مازن مبارك، دار النفائس ، بيروت، ط5، 1406 هـ- 1986 م،ص:89 .

[5] ابن جني، الخصائص، تح:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1421،1 هـ-2001 م،مج1،ص:88 .

[1] ينظر أحمد عزوز ، المدارس اللسانية ، ص:70 .

[2] محمود السعران، علم اللغة، ص:263.

اعتمد فيه على العقل والقياس ومقارعة الحجة بالحجة ومناظرة كل من يحلو له النقاش من الأجناس المختلفة التي كانت تقطن هذه المدينة من عرب وعجم.» [3]في حين أن«مدرسة الكوفة كان يغلب عليها طابع النقل والوصف والأخذ بالأشياء كما وجدت.» [4]وتتابعت الدراسات النحوية، فظهرت مدارس واتجاهات نحوية أخرى كان لها أعلامها كالمدرسة البغدادية والأندلسية والقاهرية والتي كان لها إسهامها في معالجة القضايا النحوية.

وظهر في القرون الموالية علماء نبغوا في الدراسات اللغوية، وألَّفوا فيها كتبا هامة: ككتاب "الجمل" للزجاجي (ت337هـ) "والإيضاح في علل النحو" ، و "اللمع" لابن جني، بالإضافة إلى المنظومات النحوية التعليمية« وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاختصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم لجميع ما نقل، كما فعله ابن مالك في كتاب "التسهيل" وأمثاله، أو اقتصارهم على المبادئ للمتعلمين، كما فعله الزمخشري في "المفصل"، وابن الحاجب في "المقدمة " له. وربما نظموا ذلك نظما مثل ابن مالك في "الأرجوزتين الكبرى والصغرى"، وابن معطي في "الأرجوزة الألفية".» [5] أما علم الصرف والذي يقصد به ذلك« العلم الذي يختص بدراسة القواعد التي تخضع لها الكلمة من حيث الصيغ، وما يحدث لها من التغيُّرات في بنيتها ومعناها.» [6]ولم ينفصل هذا العلم عن علم النحو إلا عند أبي عثمان المازني (ت249هـ)، الذي نظم كتابا مستقلا في علم الصرف، وسماه" التصريف"، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى في هذا العلم، مثل "الوجيز في علم التصريف" لأبي البركات الأنباري (ت577هـ) و"الكفاية في علم التصريف" لابن هشام المصري (ت761هـ).[1]

أما الدراسات الصوتية فقد نشأت مع ظهور علم القراءات القرآنية، والذي اهتم بتوضيح الوجوه التي قرئت بها آيات الذكر الحكيم، بذلك فقد كان لهذا العلم الفضل في تلك الدراسات التي أرسى قواعدها علماء اللغة العربية. فقد صنف الخليل بن أحمد الأصوات العربية في كتابه "العين" حسب مواضع النطق، حيث إنه رتب مواد معجمه حسب الترتيب الصوتي

---

[3] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:39.

[4] المرجع نفسه، ص:39.

[5] ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ-2004م، ص:622.

[6] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:24.

[1] ينظر كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:24.

للحروف، فبدأ بأقصى الحلق وصولا إلى الشفتين، كما يلي: ع، ح، هـــ خ، غ / ق، ك / ج، ش، ض/ ص، س، ز/ ط، د، ت/ ظ، ذ، ث/ ر، ل، ن/ ف،ب،م/ و، أ،ي.« وهذا ما جعله يدرس أعضاء النطق، ويصنف الأصوات إلى صحيحة وصائتة ثم درس تصنيف الصوامت – أو الحروف الصحاح كما سماها – حسب مخرج الصوت وصفات النطق والجهر والهمس، وقرر أن الصوائت أصوات هوائية الجوفية.» [2]و إلى جانب هذا فالخليل هو واضع علم العروض، واعتمد فيه على الأسباب والأوتاد والفواصل. أما سيبويه تلميذه فقد صنَّف الأصوات حسب مخارجها، وصفاتها وسماها بالجهر والهمس، وحسب طريقة النطق، فتكلم على الأصوات الشديدة، والرخوة، وما بين الشديدة والرخوة. وقد تحدث عن دراساته الصوتية في باب الإدغام.[3]

وتتابعت الدراسات الصوتية على أيدي علماء من أمثال: الزجاجي (ت340هـــ) في كتابه "الجمل"، وابن جني (ت 392هـــ) في كتابه "سر صناعة الإعراب"، واستعمل فيه« مصطلح "علم الأصوات" لأول مرة» [4] ودرس في كتابه هذا الأصوات العربية دراسة كاملة وافية.« ثم جاء ابن سينا، أبو علي الحسين (ت428هـــ) الذي كتب رسالة في أسباب حدوث الحروف، بناء على تشريح أعضاء النطق، وهو أول مسلم شرَّح الحنجرة، وعرف دورها، ودور الوترين الصوتيين. » [5]

أما السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت626هـــ) فتكلم عن الأصوات وأحكامها ووضع رسما تقريبيا للجهاز النطقي. ولم يتوقف الدرس اللغوي العربي عند النحو والصرف والأصوات بل شمل ميادين أخرىكعلم الدلالة؛ حيث اهتم اللغويون بجمع الألفاظ العربية من البوادي، وقاموا بتبويبها وترتيبها حسب موضوعاتها في رسائل منفصلة؛كالخيل والإبل وغيرها. بالإضافة إلى وضع المعجمات، فكان معجم العين أولها واختلفت طرق ترتيبها؛إما حسب الترتيب الصوتي أو الترتيب الهجائي مع مراعاة بنية الكلمة، "كالجمهرة" لابن دريد، إما وفق الترتيب

---

[2] عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1992م، ص:06.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:163،164.

[4] المرجع نفسه، ص:164.

[5] المرجع نفسه، ص166.

الهجائي مع مراعاة الحرف الأخير "كصحاح الجواهري".[1] بالإضافة إلى دراسات دلالية أخرى كالاشتقاق والترادف والمشترك اللفظي والمعرب والدخيل والمولد... وغيرها.

كما اهتم علماء العرب بالبلاغة والنقد ونشأة اللغة، وتاريخ الدراسات اللغوية فظهرت مؤلفات كثيرة شملت مختلف الميادين

المفهوم الفلسفي لجدلية الثنائية عند اليونان:

وفكرة الجدلية قديمة نشأت من تقابل المفاهيم الثنائية في الفلسفة اليونانية، ومن ذلك ربط أفلاطون للغة بالأشياء« فصار للأسماء هوية ومرجع، وهذه الإحالة هي ما يكسب اللغة معانيها ومقاصدها ودلالاتها الصريحة والضمنية. ربط أفلاطون الرمز بمرموزه والدال بمدلوله والخطاب بالعالم واللغة بالوجود واللوغوس (العقل) بالأنطولوجيا .ويتأسس التفكير الفلسفي على التفكير في هذه الثنائية.» [2] ويبدو أن البحث الفلسفي عند اليونان ارتبط بالبحث عن حقيقة هذه المفاهيم الثنائية، من ذلك ثنائية اللغة والفكر إذ إن البحث الفلسفي يجعلهما شيئا واحدا.

أما فكرة الثنائية فظهرت عند فلاسفة اليونان، والثنائية(Dualisme)« مذهب يقول بمبدأين يدبران العالم أو يدبره أحدهما ويفسده الآخر.ويرجع هذا المذهب إلى أوائل عهد الفلسفة. قال أنكساغوراس إن المادة كانت مختلفة مضطربة فنظمها العقل أي الإله العاقل.وقال أفلاطون مثل ذلك.» [3] أما أرسطو فقد اهتم بثنائية المادة والصورة إذ« يذهب إلى أن الأشياء تتألف من مادة (هيولى) وصورة.» [4] إذ لا وجود لإحداهما مستقلة عن الأخرى فهما متلازمتان« والصورة هي الحقيقة التامة للمادة.» [5]وهنا تظهر فكرة دي سوسير عن اللغة أنها شكل وليست مادة.

مفهوم الثنائية في التراث العربي:

---

[1] ينظر كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:26.

[2] نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، تونس، ط1،1993م، ص:63.

[3] مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار المأمون للطباعة، ط3، 1979م، ص:139.

[4] إمام عبد الفتاح، المنهج الجدلي عند هيغل ،دار المعارف،مصر،1969، ص:74.

[5] ول ديورانت، قصة الفلسفة، تر:فتح الله محمد مشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 4 ،1979،ص:112.

والجدل في اللغة من « جَدَلَ: الجَدْلُ شدة الفتل،وجَدَلْتُ الحبل أَجْدِلُهُ جَدْلاً إذا شددت فتله وفتلته فتلا محكما، ومنه قيل لزمام الناقة الجديل.» [1] و« الجدل مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة.» [2] فالجدلية بهذا المعنى تدل على التوأمة بين شيئين أو التطابق بينهما.

وقد اهتم العرب في إطار دراستهم للغة بقضية هامة وجوهرية قامت على فكرة الثنائية تخص أصل اللغة بين التوظيف والاصطلاح. فذهب أكثر العلماء إلى أنها تواضع واصطلاح و« قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات فيضعوا لكل واحد [منها] سمة ولفظا، إذا ذكر عرف به ما مسماه ليمتاز عن غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين.» [3] أي أنّ أهل اللغة اتفقوا على وضع الأسماء بإزاء مسمياتها، فأعطوا كل شيء اسما ومن ذلك الاختراعات التي يصنعها الإنسان، فيصطلح العلماء على تسميتها بأسماء معينة لتشيع بعدها في اللغة.

في حين ذهب فريق آخر إلى القول بتوقيفية اللغة ذلك أنّها وحي من الله عز وجل واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا...﴾[4] فقد فسروا معناها بقولهم:« إن الله سبحانه علَّم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات: العربية، الفارسية والسريانية والعبرانية والرومية، وغير ذلك من سائر اللغات، فكان آدم وولده يتكلمون بها ثم إنّ ولده تفرقوا في الدنيا، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات، فغلبت عليه».[5]هذا يعني أن اللغة إلهام من الله عز وجل. ويبدو هذا الرأي نابعا من النظر في اللغة وروعة بيانها وحسن تنسيقها ودقة ألفاظها وتراكيبها، ولطائفها وحكمها. فيدل كل هذا على تجاوزها قدرة البشر.وترتبط نشأة اللغة ارتباطا وثيقا بثنائية أخرى تظهر في المستوى الصرفي للغة وتخص الجذر الثنائي للكلمات، ولعل هذه الفكرة نبعت من تصنيف المعاجم العربية القديمة كمعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (100هـ-175هـ)

---

[1] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة،ج13، ب-ط ، ب-ت ص:108.

[2] المرجع نفسه، ص:111.

[3] ابن جني ،الخصائص،ص:96 .

[4] البقرة :31

[5] ابن جني ،الخصائص،ص:96.

الذي قام بترتيب الكلمات حسب الجذور المعجمية. مما يجعل للثنائية مفهومين أحدهما:« الثنائية التاريخية، من مركب واحد، متحرك فساكن نحو: "قط". وتعود لدى أكثر القائلين بها إلى تفسير نشأة اللغة الإنسانية بمحاكاة الأصوات الطبيعية كتقليد الإنسان أصوات الحيوان،وأصوات مظاهر الطبيعة،أو تعبيره عن انفعالاته الخاصة أو عن الأفعال التي تحدث عند وقوعها أصواتا معينة.» [1] أي أن مفهوم الثنائية التاريخية مرتبط بنظرية المحاكاة القائلة بأن بعض الأصوات اللغوية ناتجة عن محاكاة الإنسان لأصوات طبيعية كأصوات الظواهر الطبيعية مثل: خرير الماء. وأصوات الانفعالات كالتأوه (آه) والقهقهة. والأصوات التي تحدثها بعض المواد كحرفي (ق-ط) اللذين يؤديان المعنى العام لعملية القطع.

أمّا« الثنائية المعجمية، فهي الثنائية التاريخية في نقلتها إلى المعجم حيث زيد عليها صوت أو أكثر فصارت مواد ثلاثية أو رباعية وترتد إلى أصلها الثنائي، ولكن الرابط المنطقي لا ينفك يلمح بين تلك الصيغ المزيدة وأصولها في نشأتها الأولى.» [2]هذا يعني أنّ انتقال الجذر من المحاكاة الطبيعية إلى التصنيف المعجمي زيدت عليه بعض الحروف مما أدى إلى زيادة في المعنى. ففي "قط" أدت إضافة حرف ثالث إلى تفصيل في المعنى. "قطّ" تعني قطع رأس الغنم، و"قدّ" تعني قطع الثوب.

ولابن جني رأي آخر في الانتقال من الثنائي إلى الثلاثي إذ يقول: « ألا ترىأن المبتدأ لا يكون إلا متحركا وأنّ الموقوف عليه لا يكون إلا ساكنا فلما تنافرت حالاهما وسّطوا العين حاجزا بينهما لئلا يفجئوا الحس بضد ما كان آخذا فيه ومنصبا عليه.» [3]فكأنه استثقل التقاء المتحرك والساكن على أذن السامع فأضاف حرفا وسطا بينهما لتخفيف اللفظ.

ولعل هذه الإشارة إلى نشأة اللغة وعلاقتها بالجانب الصوتي الصرفي تعد تأصيلا لفكرة الثنائية عند العرب.

---

[1] رياض القاسم ،اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي-2-لبنان، مؤسسة نوفل،بيروت،لبنان، ط1،1982م، ص:79.

[2] المرجع نفسه ،ص:80 .

[3] ابن جني، خصائص ، ص: 06 .

الفصل الأول

رؤى جدلية في اللسانيات التاريخية:

- الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث.
- اللسانيات التاريخية.
- اللسانيات المقارنة.

تطور الدرس اللساني.

الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث:

يقصد بالنهضة(Renaissance) تلك الفترة التي عاشتها أوربا بين العصور الوسطى والعصر الحديث، وتمتد من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر« والثابت لدى المؤرخين أن حركة النهضة قد انبعثت من إيطاليا مهد الحضارة الرومانية ثم انتشرت بسرعة كبيرة في باقي الدول الأوربية. وقد تميزت هذه المرحلة بازدهار العلوم والفنون، وظهور المفاهيم الكلاسيكية. »[1] حيث اتسعت النشاطات الفكرية في أوربا في هذه الفترة، وزاد الاهتمام بالدراسات اللغوية، وكل ما يتصل بها منها: حركة إحياء التراث اليوناني والروماني، إذ دعا بعض الباحثين إلى إعادة بعث لغة الآداب الكلاسيكية مثل: لغة شيشرون.كما انكب الباحثون على جمع النصوص النموذجية من الإغريقية واللاتينية، ونشرها في دور الطباعة التي ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر.[2]

وأدت رحلات الكشوف الجغرافية إلى اكتشاف لغات جديدة وتدوينها« ووصل الأب تيفيه (Thévet) حتى مدينة ريودوبلاتا في الأرجنتين، وبدأ الإنكليز والهولنديون يتعرفون على بلاد الروس، وأرسلت بعثات من الطلاب الروس إلى باريز... إلخ... وقتئذ راح المسافرون يصفون رحلاتهم ويتعلمون لغات جديدة ويدونونها. (وإن لم تنشر جميع هذه الأبحاث، مثل الرسائل التي بعث بها ساستي (Sasseti) من جزيرة غوا، ويشير فيها إلى بعض أوجه الشبه بين الإيطالية والسنسكريتية من عام(1583م-1588م).» [3] وظهر اهتمام الباحثين بعدة لغات:كلغة البرازيل، واللغة القوطية وألف بوستيل (Postel Guillaume) كتابا في اللغة العربية. كما نشرت معاجم ذات لغات متعددة مثل: معجم اللغوي الإيطالي كاليبينو(Ambrogio Calepino)1502م.[4] هذا بالإضافة إلى دور البعوث التبشيرية المسيحية في ترجمة الكتب المقدسة إلى لغات البلاد المكتشفة، ووضع أنحاء ومعاجم لبعض اللغات.[5]

---

[1] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:46.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:46.

[3] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:123.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:123.

[5] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:265.

وأدى ظهور الحركات الوطنية إلى الاهتمام بقواعد اللغات القومية العامية. فظهرت قواعد اللغة الفرنسية في القرن الرابع عشر ميلادي، وقواعد اللغات الإيطالية والإسبانية والبرتغالية والسلافونية والبولونية والباسكية في القرن السادس عشر.[6] « ويعتبر دانتي (Danté) (1321م) من رواد عصر النهضة، ومن أهم علماء هذه الفترة ويعد كتابه "العامية والفصحى" الذي أصدره سنة 1305م أول محاولة جادة للكشف عن العلاقة بين اللغات الرومانسية واللاتينية.» [1]

وظهرت في عصر النهضة مدارس نحوية، اهتمت بالقضايا اللغوية،وأشهر هذه المدارس:مدارس بورروايال(Port Royal) وقد أسست هذه المدارس سنة 1637م وحلت في1661م، اشتهرت في أوربا كلها، وقد نشر أول عمل لأصحابها في سنة 1660م بعنوان "النحو العام والعقلي" (Grammaire général et raisonnée)،ويبدو أن أصحاب هذه المدارس تأثروا بالمذهب العقلي(Rationalisme)، ولاسيما أرسطوومنطقه، والفلسفة السكولاستية*.[2]ومن مؤسسيها لانسو(Lancelot) وأرنو(Arnauld) وتناول هذان المؤلفان في كتاب "القواعد" مجموعة من الملاحظات النحوية القائمة على العقل والمنطق ومنها نظريتهما في الأفعال، وفي هذا السياق يقارن جورج مونان بين نظرة الفيلسوف للفعل وتعريفه له، وبين نظرة نحاة بورروايال له فيقول:«نحن نعلم أن الفيلسوف الإغريقي يعرف الفعل بقوله: لفظة ذات معنى تفيد الزمن، وعند راهبي بورروايال (Port royal) كان أهم استعمال للفعل هو التعبير عن قضية منطقية بكل بساطتها أي الإشارة إلى أن الكلام الذي يستعمل فيه الفعل هو كلام إنسان لا يتصور الأشياء فقط بل يحكم لها أو عليها، ويؤكد وجودها.» [3] فالإنسان يحكم من خلال الفعل على أشياء ووجودها. ويذهب شومسكي إلى «أن هذا النحو قد عرف منذ هذا العهد مفهوم التركيب كوحدة نحوية بينما النحو الذي سبق مدرسة بورروايال كان الأساس نحو صفوف

---

[6] ينظر أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:48.

[1] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:43.

* فلسفة لغوية أوربية ظهرت في القرون الوسطى، استمرت حتى أوائل عصر النهضة، وقد بنيت على المبادئ النصرانية ومنطلقات أرسطو الفكرية ومفهومه لما وراء الطبيعة. وكان هدفها الأسمى إخضاع الفلسفة وكل العلوم الأخرى بما فيها النحو للاهوت الكاثوليكي.(ينظر أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:32،31).

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:49.

[3] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 132،133.

للكلمة والإعراب»[4] ويعتبر نحو بورروايال في سنة 1660م في فرنسا أفضل علم لغوي يمثل هذه المرحلة، لأن قواعد بورروايال أسست وفقا لتحليل عقلاني للغة.[5]

واهتم علماء بورروايال بالمستوى الصوتي، حيث تناول كتاب " القواعد" في الجزء الأول بحثا في الأصوات، ولاسيما في التمييز بين الأصوات والحروف المكتوبة.[6]

ويرى جورج مونان أن أعمال وقواعد نحاة بورروايال، وإن كانت تحمل جديدا وملاحظات هامة متعلقة باللغة الفرنسية إلا أنها اتسمت بطابع قديم[1]؛ إذ قامت هذه القواعد على النزعة المنطقية والعقلانية الديكارتية.[2]كما استلهمت بعض مفاهيمها من النحو الإغريقي والروماني، فهي بذلك بقيت وفية لما سبقها من أبحاث لغوية في العهود السابقة. لكن دي سوسير يثني على أعمال مدرسة بورروايال، ويعتبر أعمالها واضحة؛ وأن أصحاب هذه المدرسة كانوا يسعون لوصف حالات لغوية معينة.[3]

وشهد هذا العصر دراسات صوتية نتجت عن العناية باللغات الجديدة، «فالمبشرون الذين وضعوا أنظمة ألفبائية لبعض اللغات الشرقية والإفريقية كانوا قد أضفوا معلومات قيمة تتعلق بصوتيات هذه اللغات. ومن الذين لمع نجمهم في هذا الميدان إراسموس (Erasmus) الذي ألف كتابا في الصوتيات... ويعد هذا العمل ذا قيمة علمية بالغة ليس في عصره فحسب بل في العصر الحديث أيضا، وقد تناول فيه مؤلفه قضايا النطق الصحيح في اللغتين الإغريقية واللاتينية.»[4]

وفي هذا العصر ظهرت نزعة لغوية نحو ابتكار لغات عالمية(Universal languages)، وذلك بإنشاء لغة واحدة عالمية تعتمد على المنطق ولها أبجدية صناعية وعدد من القواعد التركيبية والصرفية المبسَّطة بقصد توفير الجهد المبذول في تعلُّم اللغات المختلفة، وتيسير عملية التواصل والتحصيل العلمي.[5] وقد عني بهذا الموضوع كل من «ديكارت وسيوبيوس (Scioppins)

---

[4] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، دار هومة، ط2002، ص: 32.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:31.

[6] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:128.

[1] بنظر جورج مونان ، تاريخ علم اللغة ، ص: 133

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:147

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:133 ،134

[4] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:55

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:51

ولدويك (Lodwick) ودالغارنو (Dalgarno) وبيك(Cave Beck)، وولكنس(Wilkins) والقس دانجو(Dangeau) والفيلسوف لايبنيز (Leibniz).» [6] وأشهر لغة عالمية ظهرت هي لغة الإسبرانتو (Esperanto).*

وظلت الدراسات اللغوية في هذا العصر تستمد بعض أصولها من الدراسات السابقة في العصور الوسطى، ووجدت بعض مظاهر التجديد، ولاسيما في التقعيد للغات الجديدة.

ومع نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، شهدت الدراسات اللغوية تطورا ملحوظا تمثل في الاهتمام بدراسة اللغات وتحليلها، فكانت هذه الأعمال الإرهاصات الأولى للدراسات اللسانية المعاصرة. وارتبطت هذه الدراسات بظهور مفكرين أوربيين كان لهم دور بارز في إرساء قواعد الدراسات اللغوية في هذا العصر.

فانشغل لايبتيز (Gottfried Wilhelm Leibniz) بدراسة اللغات لمعرفة تاريخها وعلاقة القرابة بينها[1] ولأجل ذلك« طوَّر منهجا علميا يعتمدعلى التحليل الدقيق للغات لاستخراج السمات والأشكال الجامعة بينها، وتصنيفها حسب أنسابها، وقد انكب على دراسة عدة لغات أوربية وآسيوية وإفريقية وتوصل إلى تصنيفها في مشجرات أسرية.» [2]

أما المفكر الإيطالي غيامبتسته فيكو (Giambattista Vico) (1668م-1744م) فاشتهر بنظريته حول مراحل تطور اللغات، التي مرَّت بأدوار ثلاثة« في بادئ الأمر كان للبشر لغة أولى إلهية أو أسطورية يسميها فيكو أيضا "لغة هيروغليفية مقدسة" أو هي لغة الآلهة.» [3] وترجع هذه اللغة إلى زمن الآلهة، وتتألَّف من مجموعة من الطقوس الدينية الصامتة والشعائر التي جرى عليها العرف. أما اللغة الثانية فهي لغة الأبطال، ويطلق عليها فيكو: اللغة البطولية أو الشعرية، وتتصل بالحياة العسكرية ويعبَّر عنها بالرموز.[4] واللغة الثالثة هي لغة العوام؛ وهي من صنع

---

[6] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:137

* تعني الأمل، ألفها الباحث اليوناني الدكتور لازاروس زامنهوف (Dr.Lazarus Zamenhof) في سنة 1887م وحرص حرصا شديدا على أن تكون كل مفرداتها حديثة وقواعدها بسيطة، فوضع لها ست عشر قاعدة نحوية وبضع قواعد اشتقاقية. (أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:51،52).

[1] أحمد مومن ، اللسانيات ، النشأة و التطور ، ص:51،52 .

[2] المرجع نفسه، ص:52.

[3] جورج مونان ، تاريخ علم اللغة ، ص: 140 .

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:141.

الجماهير« سميت بلغة (المراسلات) لأنها تصلح للعلاقات الفعلية.» [5] ولتدوينها لا بد من حروف عامية تتمثل في الأبجدية الفينيقية[6] . فتكون بهذا اللغة الأولى الصامتة إذ لم يعرف الإنسان البدائي الكلام، واللغة الثانية مزيجا من اللغة الصامتة والمجهورة إذ تمتزج فيها الإشارات الحربية والمفردات. أما اللغة الثالثة فهي لغة مجهورة مادامت لغة المراسلات.

ثم ظهرت في القرن الثامن عشر الفيلولوجيا أي فقه اللغة، ففي سنة 1777م أنشأ فريدريك أوجست ولف (Frederic Auguste Wolff) النقد المقارن للنصوص القديمة ولم تكن الفيلولوجيا الغاية الوحيدة، وإنما اهتم أصحابها بضبط النصوص وتفسيرها والتعليق عليها.[7] وشهد هذا القرن حدثا لغويا مهما، شكّل منعطفا حاسما في تاريخ علم اللغة وهو اكتشاف سير وليام جونز (Sir William Janes) الإنجليزي سنة 1786م للغة السنسكريتية وللعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية.[8]

اللسانيات التاريخية:

تعد أقدم الدراسات اللغوية، إذ ظهرت منذ أواخر القرن الثامن عشر، وترسخت كعلم قائم بذاته في القرن التاسع عشر.يرى جورج مونان أن اللسانيات التاريخية وجدت منذ سنة 1816م-1820م أي قبل نشوء البحث العلمي في أزمنة ما قبل التاريخ.[1] وتعود الإرهاصات الأولى للدراسات اللغوية التاريخية إلى ظهور حركة أدبية وفنية وفلسفية في ألمانيا تدعى بـــ:الرومانسية (Remantisme) إذ« ظهر في هذه الحركة ولوع الناس بالأحداث التاريخية وأخبار الأمم القديمة، فانكبوا على دراسة العصور الوسطى في أوربا... ونذكر بهذا الصدد أن وصف لغات العالم قد استمر في هذا العصر فقد أخرج أديلونج (J.Ch.Adelung) كتابا جامعا لأوصاف الألسنة البشرية سماه (Mithridate)، وتابع عمله فاتر(Vater).» [2] والألمان في

---

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:141.

[6] ينظر المرجع نفسه، ص:141.

[7] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تع: صالح قرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا 1985م، ص:17.

[8] محمود السعران، علم اللغة، ص:268.

[1] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:22.

[2]عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (3)،مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، 1972م، مج2، ص:07.

اهتمامهم بدراسة لغتهم والإطلاع على ماضيهم ودراسة الآداب الجرمانية توغلوا في الدراسات الفيلولوجية للنصوص القديمة، وبذلك وضعوا أسس الدراسات المقارنة والتاريخية.

ونتيجة لهذا كانت بداية الدراسات التاريخية من البحث عن أصل اللغة ودراسة تاريخ اللغات، ونجد هذه الفكرة عند قيشار(Guichard) في بداية القرن 17م إذ اعتبر اللغات كلها منحدرة من العبرية، ومن ثم فسَّر التطورات اللغوية إما بالإضافات وإما بالحذف وإما بتغييرات الحروف التي تعود إلى تحول اتجاه الكتابة.[3]كما« ساهم التطور الحاصل في دراسة النصوص الموروثة من القديم (النشاط الفيلولوجي المؤسَّس في نهاية القرن 18م من قبل ف.أ.وولف) في ظهور البحوث اللسانية التاريخية للقرن 19م. » [4]

وبتطور الدراسات التاريخية للغات تبين أنه لابد من البحث عن أسس جديدة وتجديد مناهج اللسانيات التاريخية؛ وأدت هذه الرؤية الجديدة باللغويين إلى البحث في التطورات والتغيرات التي تمس العناصر اللغوية، مما فتح المجال أمام الدراسات المقارنة والتي كانت تعتمد في هذه الفترة على الدراسات التاريخية، كما تخلَّصت من تلك الأبحاث المتعلقة بنشأة اللغة. واتجهت إلى البحث في موضوعات أخرى. وقد« كان لزاما على الدراسات التاريخية كي تصل إلى تحديد إطار بحثها أن تستخدم منهجية خاصة بها تتوسل المقارنة بين الحالات الزمنية المتعددة للغة، وهذه المنهجية تطورت أكثر فأكثر في إطا[illegible] المقارن أو القواعد المقارنة (Grammaire Comparée)» .[1] وقد قامت الدراسات التاريخية على ما سبقها من دراسات، ولاسيما تلك التي تعرف بالنحو التقليدي و القواعد المعيارية.» [2]في القرن السابع عشر إذ تميَّزت هذه« القواعد كلها أنها غلب عليها الطابع الأرسطي المعياري وطغت عليها المقولات المنطقية الفلسفية مثلها في ذلك مثل القواعد الإغريقية واللاتينية»[3] ويعد النحو المعياري الأرضية التي قامت عليها الدراسات التاريخية ، وتعتبر القواعد النحوية من أهم الإنجازات التاريخية اللغوية

---

[3] ينظر جان بيرو، اللسانيات، تر: الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، دار الأفاق، الأبيار، الجزائر، 2001م، ص:05.

[4] المرجع نفسه، ص:05.

[1] ميشال زكريا ، الألسنية (علم اللغة الحديث) ،المبادئ و الأعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسا ت و النشر و التوزيع ، بيروت، لبنان ، ط2 ، 1403 هـ -1983 م ،ص:114 .

[2] ينظر عبد الجليل مرتاض ، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية ،ص:8 .

[3] أحمد مومن ، اللسانيات ،النشأة و التطور ،ص:48 .

والتي« كانت أول دراسة علمية داخلية تعتبر اللغة موضوعا محددا خاصا.وما يوجد موروثا وحيا لا يزال مستعملا في قواعد لغة على الرغم من شذوذه عن القاعدة العامة ويؤكد بأن المنهج اللغوي التاريخي المتصل بالقواعد كان يقوم على دقـــة الملاحظة واحتـــرام المستويات اللغوية حتى من أشد المتعصبين تحريا. » [4]

واهتمت القواعد المعيارية بالنظرة الشكلية للغة والمتمثلة في قبول هذا التركيب ورفض الآخر بالاعتماد على المنطق الصوري أو على الملاحظة والحدس. ونتج عن هذه النظرة صراع بين فئتين: إحداهما ترى أن كل موروث ومسموع ومسجل قاعدة معيارية صحيحة، لابد من الالتزام بها دون معارضة أو تردد، أما أخرى فلا تمانع في مراجعة هذا التراث الموروث.[5] ولعل خير من يمثل اللسانيات التاريخية في تأثرها بالمنطق والقواعد المعيارية مدارس بورروبال والتي ظهرت سنة 1637م، ذلك أن أصحاب هذه المدارس تأثروا بالفلسفة العقلية والفلسفة السكولاستية (Sckolasticism). و« فضلا عن تأثير المنطق الأرسطي الذي لا يدحض، وعن تأثير التقاليد المعيارية للنموذج اللاتيني الذي لا يرد، فإن قواعد بورروايال ورثت تراث ما تقدمها من علوم ونظريات لغوية ثرية على الأقل كميا من الصعب الطفو فوق سطحها دون معاناة التأثير بها».[6] وكان الهدف من الدراسات البورروالية تفسير اللغة تفسيرا منطقيا.

ومع بداية القرن التاسع عشر ظهرت الدراسات اللغوية في صورة دراسات تاريخية مقارنة، باعتبار الدراسات المقارنة تعتمد على عامل الزمن، وفي هذه الفترة« عرف النحو المقارن تطورا بفضل أعمال متميزة حول اللغات الجرمانية (علماء الجرمانية هم مؤسسو اللسانيات التاريخية)، خاصة أعمال جاكوب قريم(Jacob Grimm) الذي درس بعد راسك تطور نظام الصوامت في الجرمانية، وحول اللغات الرومانية نجد Grammaire des langues remaines لـِ: دياز (Diez) 1836م-1838م وذلك بعد الأعمال الهامة التي أنجزها فر.رينوار (Fr.Raynouard) عام 1821م. إن إمكانية تتبع مجموعات هذه اللغات عبر التاريخ ابتداء من زمن بعيد (من خلال نصوص كثيرة تمتد حتى العصر الحديث) وكذا كون نقطة الانطلاق للغات الرومانية كان من حالة

---

[4] عبد الجليل مرتاض ، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية ،ص:9 .

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:9 ،10 .

[6] المرجع نفسه، ص: 42

لغة معروفة هي اللاتينية، ساهم بشكل كبير في توضيح تطور اللغات. وهكذا تطور النحو التاريخي بالموازاة مع النحو المقارن. » [1]

وبتطور الأسلوب المقارن القائم على رصد التطور التاريخي ظهر أسلوب تاريخي اهتم بمعرفة جميع التطورات اللفظية في لغة ما من خلال مجموع تاريخها.[2] «وتعد سنة 1816م عند عامة اللغويين الأوربيين من الجيل السابق سنة ميلاد اللسانيات كعلم لصدور أول كتاب تحلل فيه لأول مرة في التاريخ لغات من الوجهة التاريخية وعلى أساس المقارنة العلمية، لغرض علمي بحت ويتجنب فيه فرض الحدود والمعايير (Prescription) والتأمل الفلسفي والتحليل الأرسطوطاليسي. وصاحب هذا الكتاب هو فرانتس بوب (Franz Bopp).» [3] ويبدو التداخل شديدا بين الدراسات المقارنة والتاريخية حتى لا يمكن التفريق بينهما، فنجد بعض الباحثين يجعلهما مترادفين، في حين يذكر أنطوان ماييه أن القواعد المقارنة ليست إلا شكلا من أشكال علم اللغة التاريخي ويعلل ذلك بأن بحث القواعد المقارنة للغة ما يتطلب دراسة تاريخ هذه اللغة على هدي الطريقة المقارنة.[4] أما جاكوب غريم 1785م-1863م مؤسس علم اللغة التاريخي فقد تحدث صراحة عن معالجة تاريخية (لا مقارنة) للغات الجرمانية.[5] ويحدِّد بعض العلماء سنة 1870م للفصل بين الدراسات المقارنة والتاريخية، إذ يرى دي سوسير أن الدراسات المقارنة نشأت من دراسة اللغات الرومانية والجرمانية، وفي سنة 1870م بدأ التساؤل عن شروط حياة اللغات. وما المقارنة إلا وسيلة ومنهج لإعادة بناء الواقع.[6]

ويدرس علم اللغة التاريخي تطور لغة واحدة عبر القرون من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية« ولا يتنـــاول تاريـــخ اللغات تطورها البنيـــوي والمعجمي فحسب، بل

---

[1] جان بيرو، اللسانيات، ص:71.

[2] ينظر أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1419هـــ-1999م، ص:15.

[3] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (3)، مجلة اللسانيات، ص:10.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:185.

[5] ينظر المرجع نفسه،ص:185.

[6] ينظر فاردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:22.

يبحث أيضا تطورها وحياتها في المجتمع، فقضية انتشار لغة من اللغات والظروف التي مهدت لذلك وأثر ذلك في بنية اللغة تعد من موضوعات علم اللغة التاريخي.» [1]

رواد اللسانيات التاريخية:

ومن أعلام الدراسات اللغوية التاريخية نجد: جاكوب غريم مؤسس هذا العلم إذ يرى مايبه (Meillet) أنه لما كان بوب (Bopp) في سبيل إعداد القواعد المقارنة كان غريم (Jaco Grimm) يضع القواعد التاريخية للغة الألمانية.[2]

«إذا كان راسك قدم في منتهى الدقة المنهج المقارن الجديد، فإن جاكوب ڤريم خلَّف عام 1819م المنهج التاريخي الحقيقي. لكن بوب كان قد باشر قبل ڤريم مقارنة منهجية للعائلات اللغوية الهندية – الأوربية»[3] وقد وضع غريم قانونا«أكَّد فيه على اطِّراد التغير الصوتي في معظم الحالات، ولكنه لم ينكر وجود حالات استثنائية لأنَّ بعض الألفاظ قد لا يصيبها التغير وتحتفظ بشكلها القديم»[4] ويرى فريق من العلماء أن فرانز بوب كان له دور كبير في ظهور اللسانيات التاريخية – وإن كان مكتشف الأسلوب المقارن- و« عادة يربط ميلاد اللسانيات التاريخية بكتاب فرانز بوب حول ما أسماه "نظام التصريف في اللغة السنسكريتية المقارن بغيره في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية."»[5] وإن اقتصر فيه على تصريف الأفعال قبل أن يوسع دراسته لتشمل إعراب الأسماء.

ومن الرواد الآخرين للسانيات التاريخية والذين كان لهم دور بارز في تطور الدراسات اللسانية، راسموس راسك (Rasmus Rask) (1787م-1832م) الذي درس القرابة بين اللغات الأروبية الشمالية والجنوبية في مؤلفه الذي نشر سنة 1818م"التحقيق في أصل اللغة الاسكندنافية القديمة أو الأيسلندية" [6] بالإضافة إلى فرديريك شليجل أوغست شلايشر، أوغست فيك الذي قام« بجمع مفردات اللغة الهندوأوربية البدائية وإخراجها في معجمه الشهير الموسوم بـــ:"معجم

---

[1] محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د- ت- ن، ص:40.

[2] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:183، 184.

[3] عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص:83.

[4] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:88.

[5] عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، ص:82.

[6] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:70.

اللغات الهندوجرمانية المقارن"1868م» [7] وفردينان دي سوسير الذي قدم دراساته التاريخية بعنوان:"دراسة حول النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندوأروبية" 1878 م، و"حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية"1881م.

أما اللساني الدانماركي كارل فرنر(Karl Verner) فقد نشر عام 1875 مقالا علميا بعنوان: "شذوذ التغير الصوتي الأول" وقد فسر فيه بعض الشواذ المخالفة لقانون غريم وأكد أن التغير الصوتي لم يحدث صدفة وإنما يحصل تدريجيا وفق قوانين مطردة وهذا ما سمي بقانون فارنر، وقد بنى قانونه هذا على الملاحظة الدقيقة والمعطيات التاريخية وكانت من نتائجه إعادة بناء اللغة الهندوأوربية على أسس منهجية.[1]

ولابد من الإشارة إلى الدور الهام الذي قام به النحاة الجدد في سبيل تطوير الدراسات التاريخية وعلى رأسهم أكبر منظريهم هارمن بول(Herman Paul) الذي أعطى دفعا جديدا اللسانيات التاريخية إذ يرى أن « الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية» [2] وقدم اللساني الفرنسي أنطوان مييه(Antoine Meillet) (1866م- 1936م)مؤلفا في اللسانيات التاريخية بعنوان " المنهج المقارن في اللسانيات التاريخية"[3].

وفضل العالم الأمريكي الكبير ويليام دوايت وايتني (William Dwight Whiteny) (1867م-1894م) الدراسة التاريخية للغة وقد درس اللغة السنسكريتية، كما اهتم باللغات الحية، فكتب قواعد اللغة الإنجليزية ونشر قواميس فرنسية وألمانية[4]، ويرى وايتني في إحدى مقولاته «أن اللغة ليست واقعة طبيعية وصفة بيولوجية إنسانية بل هي واقعة اجتماعية، ونتيجة لذلك فإن علم اللغة ليس علما طبيعيا بل إنه تاريخي.»[5]

---

[7] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:91.

[1] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:93.

[2] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:217.

[3] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:96.

[4] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: نجيب غزاوي، مطابع مؤسسة الوحدة وزارة التعليم العالي الجمهورية العربية السورية، 1101هـ-1972م، ص:13.

[5] المرجع نفسه، ص:17.

واستمرت الدراسات التاريخية في القرن العشرين على يد نخبة من رواد علم اللغة على غرار موريس سواديش(Morris Swadesh، 1909م-1967م) المتخصص في اللسانيات والأنتروبولوجيا ومبتكر تقنية "قياس عمر اللغة" (Gllottochronology) في اللسانيات التاريخية في أواخر الأربعينات، ويهدف هذا المنهج إلى تحديد عمر اللغة وتاريخ انفصالها عن اللغة الأصلية، ومعرفة تغيرها عبر العصور وذلك بإحصاء المفردات في لغتين أو أكثر، ومعرفة مدى التشابه بينهما، ثم حساب نسبة فقدان المفردات في كل واحدة منهما.[1]

واهتمت طائفة من العلماء بالدراسات الهندية الأوربية كبنفنيست ومييه وغيرهم... ووجدت طائفة أخرى من العلماء اهتموا بتطوير« منهج علمي لدراسة اللغات غير المكتوبة التي لا تعرف ظروفها التاريخية، ورواد هذا الحقل علماء مثل: بوس(Boas) وسابير(Sapir) وبلومفيلد(Bloomfield).» [2]

مناهج اللسانيات التاريخية:

اعتمدت الدراسات اللسانية التاريخية ثلاثة مناهج في معالجة الظواهر اللغوية وإعادة بناء اللغات وهي: **المنهج المقارن، منهج إعادة التركيب الداخلي، المنهج الفيلولوجي.**

1. المنهج المقارن:

ظهر هذا المنهج منذ أن اكتشفت اللغة السنسكريتية، وشهد تطورا كبيرا في القرن التاسع عشر. و يقوم على وضع الصيغ المبكرة المأخوذة من اللغات موضوع الدراسة ليفحصها ويوازن بينها، ويقارنها ببعضها البعض، ليصل إلى تحديد درجة الصلة بينها واستخراج الشكل الذي يبدو أقرب إلى أصل مشترك إذا وجد تماثلا كافيا في تركيباتها النحوية ومفرداتها الأساسية.[3] فإن وجد تماثلا واضحا بين لغتين يعتبرهما من أصل واحد.

ويهدف هذا المنهج إلى« الكشف عن القرابة بين اللغات ومعرفة نسبها الجيني بصورة دقيقة للغاية.» [4] ويرى ف.بيزاني (F.Pizani) أن« القرابة اللغوية ليست شيئا آخر سوى

---

(1) ينظر أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:96.

(2) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص:236.

(3) ينظر صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2005، ص:49.

(4) أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:70.

مجموعة العناصر التي نلاحظها بين لغة ولغة.» [5] ويحدِّدها بالعناصر اللغوية الملاحظة والمشتركة بين لغتين. في حين يرى أنطوان ماييه أن« ما يحدِّد قرابة لغوية هو فقط واقع تاريخي، فنقول أن لغة منحدرة من أخرى إذا كان للمتكلمين في كل الفترات الموجودة بين تلك التي استعملت فيها الأولى وبين التي استعملت فيها الثانية الإحساس والإرادة لاستعمال نفس اللغة... وهكذا تكون هناك قرابة بين كل اللغات المنحدرة من نفس اللغة بنفس الطريقة وتنتج القرابة حينئذ فقط من استمرار الإحساس بالوحدة اللغوية.» [6] فهو يرُّد القرابة إلى إرادة المتكلمين واستعمالهم لنفس اللغة. وتوضيحا لطريقة تطبيق المنهج المقارن يقول لاهمان (Lehman):« إذا أردنا أن نعرف صيغة فعل الكينونة(To be) في الطراز البدائي الهندوأوربي، فيمكن أن نقارنها في بعض اللغات كالسنسكريتية asti، واللثوانية esti والإغريقية ésti، وبعد هذا يمكن التوصل إلى وضع الصيغة الأصلية التالية: ésti.» [1]

وأفاد المنهج المقارن في تصنيف اللغات في أسر لغوية وفقا لخصائصها الصوتية والمعجمية وحتى التركيبية والدلالية.

2. منهج إعادة التركيب الداخلي:

يقوم هذا المنهج على إعادة بناء الصيغ القديمة دون اللجوء إلى المقارنة، ويستعمل في حالة تعذر المقارنة لانعدام اللغات المدونة، ويهدف إلى معرفة العناصر اللغوية القديمة من العناصر اللغوية الجديدة.[2] وتختلف أشكال هذا المنهج باختلاف المستوى المعتمد عليه في الدراسة، فإذا اعتمد الباحث على التغيرات الصوتية أو الفونولوجية كان هذا الشكل الأول لهذا المنهج، أما إذا اعتمد على التغيرات المورفولوجية فيسمى هذا الشكل: **منهج الصيغ الاستثنائية**« بمعنى أنه إذا كان لدينا صيغتان تحملان دلالة واحدة، صيغة منتظمة مطابقة للنمط المورفولوجي العام، وصيغة غير عادية واستثنائية، فيجب عد هذه الأخيرة شكلا من بقايا نظام قديم أي الصيغة الأقدم.» [3] أما الشكل

---

[5] جان بيرو، اللسانيات، ص:87.

[6] المرجع نفسه، ص:88.

[1] Winfred Lehman, Historical linguistics, New York, Holt Rimehart and Winston, Inc, 1973

(عن أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:70.).P77

[2] ينظر أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:72-73.

[3] المرجع نفسه، ص:73.

الأخير لهذا المنهج فيعتمد على الصيغ التي في طريق الانقراض فمثلا في اللغة الإنجليزية، توجد صيغتان لضمير المخاطب المفرد أنت: thou وyou فالصيغة الأولى أقدم من الثانية وهي في طريق الانقراض والثانية جديدة.[4] وقد أفاد هذا المنهج في بناء بعض الصيغ التي أكّدت الاكتشافات والحفريات صحتها.

3. المنهج الفيلولوجي:

لقد مهد العالم الألماني فريدريك ولف سنة 1777م الطريق أمام ظهور هذا المنهج العلمي، فقد ألهم اللغويين طريقة المقارنة بين النصوص، إذ تحولت الفيلولوجيا القديمة إلى بحث منتظم في النصوص العتيقة، وتصحيحها بالمقارنة العلمية ودراسة لغتها من حيث الألفاظ والمعاني.[5] و« بقيت لفظة الفيلولوجيا مستعملة إلى هذه السنوات الأخيرة فكلما تم المزج بين الغرضين: جمع النصوص القديمة ونقدها نقدا تاريخيا والنظر فيها لاستخراج أوصاف اللغة التي كتبت بها من جهة ثم المقارنة بينها بعد ترتيبها زمانا ومكانا لإثبات مراحل التطور اللغوي من جهة أخرى، صار يطلق على هذه المجموعة من الدراسات الفيلولوجية التاريخية أو المقارنة في الإنكليزية: Comparative Philology أو إذا عنى بها مظهرها التاريخي فقط: Historical grammar ».[1]

وباستخدام اللسانيات التاريخية لهذه المناهج الثلاثة ترسخت دعائمها واتسعت آفاقها وحافظت على مكانتها الهامة في ميدان الدراسات اللغوية، واستمرت كمنهج علمي لدراسة اللغة رغم ظهور منهج آخر نافسها في مطلع القرن العشرين وهو المنهج الوصفي الذي دعا إليه أنطوان مارتي سنة 1914م، وأوضحه دي سوسير في كتابه "دروس في الألسنية العامة". وحاول فريق من اللسانيين المزج بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي مما أعطى اللسانيات التاريخية انطلاقة جديدة.

اللسانيات المقارنة:

مهد ظهور الفيلولوجيا المقارنة للنصوص القديمة الذي نشأ على يد فريدريك أوجست ولف سنة 1777م لظهور الدراسات المقارنة والتاريخية، إذ اعتمدت هذه الحركة العلمية« على نشر هذه النصوص والتعليق عليها، و لم تكن دراسة هذه النصوص لذاتها من الناحية اللغوية، وإنما

---

[4] المرجع نفسه، ص:73.

[5] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (3)، مجلة اللسانيات، ص:20.

[1] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، مجلة اللسانيات، ص:20.

كانت وسيلة لدراسة الأدب والثقافة، وبذلك مهدت الحركة الفيلولوجية الطريق لنشأة حركة المقارنات التي بدأت في نهاية هذا القرن.» [2] كما شهد القرن الثامن عشر أهم حدث لغوي فيه، وهو كشف سير وليام جونز الإنجليزي سنة 1786م للغة السنسكريتية والعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية.[3] وإن كان قد سبق عدد من المفكرين وليام جونز إلى هذا الاكتشاف، والاهتمام بهذه اللغة، فهذا بوب الألماني يوَّجه الناس إلى الاهتمام بهذه اللغة منذ عام 1816م أما العالم الإيطالي ساستي (Sasseti) فقد قارب بين السنسكريتية والإيطالية. وكتب الأب كوردو (Coeurdoux) مذكرة حول المفردات والصيغ النحوية المشتركة للغة السنسكريتية.[4] لكن عمل جونز كان له أثرا بالغا على تطور الدراسات اللغوية إذ عدَّ نقطة تحول في الدراسة اللغوية الأوربية حيث« وجه جونز الأنظار إلى الدراسة المقارنة على أسس علمية بإعادة اكتشافه للعلاقة بين اللغة السنسكريتية واللغتين اليونانية واللاتينية، وعلاقات هذه اللغات باللغات الهندوأوربية الأخرى وذلك بصورة تفصيلية دقيقة لأول مرة.» [5] وبذلك شجع العلماء على دراسة اللغات دراسة مقارنة، فتوسع الاهتمام بهذا النوع من الدراسة. وظهر المنهج المقارن أو الدراسات المقارنة، ويقصد به« ذلك المنهج الذي تتبناه اللسانيات والذي يعود تاريخه إلى نهاية القرن الثامن عشر كبوادر جديدة في حقل الدرس اللغوي، أو إلى بداية القرن التاسع عشر كعلم مؤسس على معطيات لغوية متبادلة من الداخل.» [1]

وكبداية للدراسات المقارنة اهتم اللغويون بمعرفة اللغة السنسكريتية ودراستها، فهذا العالم الفرنسي سلفستر دي ساسي (Silvestre de Sacy) (1758م-1838م)، والذي امتاز بمعرفة واسعة للغات الشرقية، وخاصة اللغة العربية قد كوَّن شيزي (Chezy) في اللغة السنسكريتية والأخوين فون شليجل (Von Schlegel) والأخوين غريم (Grimm) وفرانتس بوب وفون هومبولت وغيرهم كثيرون...[2] مما أدى إلى إطلاع الغرب على الموروث اللغوي الهندي.

---

[2] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية، ص:46.

[3] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:268.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:161-162.

[5] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية، ص:46.

[1] عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، ص:84.

[2] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسانيات الحديث (3)، ص:09.

« ويميل أكثر مؤرخي الدراسات اللغوية الحديثة إلى أن أعمال النحاة السنسكريتيين هي التي أوقفت النحاة الغربيين على أقدامهم. ولقد اطلع علماء الغرب على نحو اللغة السنسكريتية لا يقوم على أسس من الفلسفة والمنطق كنحو اليونان لليونانية، ونحو تلامذتهم المخلصين الرومان للاتينية، وكأنحائهم هم أنفسهم للغاتهم الأوربية، هذه الأنحاء التي تأثروا فيها بالنحو اللاتيني خاصة.» [3] وكذلك بالنسبة للدرس الصوتي إذ تأثروا بالملاحظات الصوتية التي قدمها الهنود، ذلك أن الدراسات الهندية قامت على منهج وصفي بعيد عن المعيارية.

ويعد فرانز بوب مؤسس القواعد المقارنة أو الأسلوب المقارن حيث كتب في باريس مذكرته المشهورة« في نظام تصريف اللغة السنسكريتية ومقارنته بالأنظمة الصرفية المعروفة في اللغات اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية.» [4] والتي تعتبر مرجعا أساسيا للدراسات المقارنة.

ويرى دي سوسير أن بوب وإن لم يكن أول من لاحظ درجة القرابة بين السنسكريتية واللغات الأخرى كاليونانية واللاتينية إلا أنه أدرك موضوع علم اللغة المقارن، وهو العلاقات بين اللغات التي يجمعها رحم واحد، والتي يمكن دراستها وشرح صيغ إحداها مقارنة بصيغ غيرها، وهو ما لم يتحقق قبل الآن. غير أن دي سوسير يشك في قدرة بوب على تشييد صرح علم اللغة المقارن – بتلك السرعة– دون اكتشاف اللغة السنسكريتية والذي يعتبر عاملا مهما في دراسة مقارنة علمية وشاملة، بالإضافة إلى الظروف المؤاتية للغة السنسكريتية.[5] ولعل معرفة بوب بكثير من اللغات كالفارسية والعبرية والسنسكريتية أهلهُ لتأسيس علم اللغة المقارن.« وتابع بوب(Bopp) أبحاثه في اللغة المقارنة طوال نصف قرن من الزمن، وتقدم إلى المجمع اللغوي في برلين بخمس مذكرات على التوالي نذكر منها: "التحليل المقارن بين السنسكريتية واللغات التي تمت إليها بصلة القربى." (1824م-1831م) وكذلك "القواعد المقارنة"(1833م-1852م).» [1]

أما عن نظرة بوب للغة فهي مستمدة من تلك النزعة البيولوجية التي سيطرت على الدراسات اللغوية في تلك الفترة، وبذلك عدَّ اللغة كائناً حياً، أو جسما عضويا حيا ينمو ويتطور، وفي هذا السياق يقول جورج مونان:« واستمر بوب (Bopp) – على عادة زمانه– في تشبيه

---

[3] محمود السعران، علم اللغة، ص:269.

[4] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:177.

[5] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص: 18، 19.

[1] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 178.

اللغة " بالجسم العضوي الحي" أو "العضوية الحية" وهو يعني بهذه اللفظة تارة ما نعنيه بكلمة بنية. (قال في المقدمة : "إني قصدت من هذه الدراسة إلى وصف عضوي لمختلف اللغات التي يعددها عنوان الكتاب") كما يعني تارة أخرى ما تضمنته كتب التاريخ الطبيعي.» [2] وبهذا يبدو متأثرا بالنزعة البيولوجية في اللسانيات على غرار معاصريه.

رواد اللسانيات المقارنة:

قام صرح الدرس اللساني المقارن بفضل جهود كوكبة من علماء اللغة في أوروبا «إلاَّ أنَّ النحو المقارن للغات الهندية الأوروبية كان مقصوراً على الألمان وبعض الدانمركيين (راسك وتومسان ومدفيك) حتى سنة 1866م» [3] ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الدراسات اللغوية المقارنة اللساني الدنماركي راموس راسك (1787م-1832م) الذي « يعد أول رائد كبير في تأسيس المنهج المقارن بفضل ما قام به من إنجازات مقارنة بين أهم اللغات الأوروبية الجنوبية واللغات الشمالية».[4] وكان قد قدم بحثاً مخطوطاً عام 1814م بعنوان" التحقيق في أصل اللغة الاسكندنافية القديمة أو الإسلندية." في الإجابة عن موضوع مسابقة المجمع اللغوي الدانماركي حول علاقة اللغة الايسكندنافية القديمة بالجرمانية ومصدرها مع تحديد دقيق للمبادئ التي تقوم عليها المقارنات بين هذه اللغات. غير أنَّ هذا المخطوط لم ينشر إلاَّ في سنة 1818م بعد سنتين من صدور كتاب بوب.[5] ومن خلال هذا البحث أرسى راسك القواعد المنهجية الدقيقة التي يقوم عليها المنهج المقارن. وقرَّر قاعدة أساسية تقوم عليها المقارنة بين اللغات فقال:« لقد أثبتت التجارب أنه لا يعول مطلقا على التوافق بين المفردات. فهناك عدد لا تتخيله من المفردات قادر على الانتقال من لغة إلى أخرى، إبان امتزاج الشعوب، مهما تكن هاتان اللغتان مختلفتين أصلا ونموذجا... فالتوافق النحوي أقوى دلالة على القرابة أو التطابق الأصلي، لأن اللغة التي تمتزج بغيرها لا تقتبس إلا نادراً تحولات الصرف والإعراب، وقد لا تقتبسهما مطلقا، وهذا اللون الهام

---

[2] المرجع نفسه، ص: 179.

[3] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث(03)، مجلة اللسانيات، ص:21.

[4] عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، ص:83.

[5] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 169، 170.

الثابت من التلاؤم قد أغفل مع ذلك كل الإغفال في دراسة تفرع اللغات حتى يومنا هذا.» [1] فهو يقيم المقارنة بين اللغات على معايير نحوية ولكنه لا يهمل جانب المفردات.

ولا بد من الإشارة إلى بعض اللغويين الذين اشتهروا بتطبيق المنهج المقارن ومنهم شليجل(Fr.Schlegel) الذي تنسب إليه لفظة " قواعد المقارنة "[2] وقد اهتم بدراسة الحضارة الهندية كما صنَّف اللغات، وتحدث عن علاقات التشابه التي تربط اللغات الأوربية والهندية والآرية.[3]

ويشبه شليجل اللغة بالنبات – وهي النزعة التي سيطرت على الدراسات اللغوية في تلك الفترة– ويستخدم لذلك مفردات طبيعية كالرشيم، والجذور العقيمة والجذور المثمرة. وفي نفس السياق يرى بأنه يحق لعلماء اللغة أن يقارنوا تكوين اللغة بتكوين نسيج حي.[4] وفي تصنيفه للغات قسمها إلى: لغات معربة كالهندية الأوربية، ولغات أخرى تكونت تكوينا عضويا. ولغات غير معربة يرى أنها ناقصة جدا تنقصها حروف أساسية ولا وجود فيها للتعبير عن الجنس ولا العدد ولا حالات الإعراب.[5] وبهذا يكون شليجل من أوائل اللغويين الذين طبقوا المنهج المقارن.

ومن الذين أسهموا في النهوض بصرح الدرس اللغوي المقارن ذكر دي سوسير في كتابة "دروس في الألسنية العامة" ماكس مولر(Max Muller)، وجورج كورتيوس(G-Curtius) وأوغست شلايشر(Aug.Schleicler). ويرى دي سوسير أن ماكس مولر قد أذاع الدراسات اللغوية من خلال كتابه " دروس في علم الكلام البشري 1861م " وإن لم يتوخ الدقة.[6] أما جورج كورتيوس فقد عدَّه من الفيلولوجيين الذين وفقوا بين النحو المقارن أو المنهج المقارن والفيلولوجيا القديمة، وقد تابع تطور علم اللغة المقارن بحذر وله كتاب اسمه "مبادئ الإتيمولوجيا اليونانية " 1879م [7] أي«أساس تأصيل الكلمات اليونانية.» [1] بالإضافة إلى دوره

---

[1] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:172.

[2] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:165.

[3] ينظر أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص: 14.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 164،165.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:167.

[6] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:20.

[7] ينظر المرجع نفسه، ص:20.

[1] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص: 13.

في التعليم في مدرسة ليبزيج، والمقالات التي كان يكتبها ويصدرها في مجلة "دراسات في القواعد اليونانية واللاتينية" مع تلميذه بروكمان.

ومن أكبر رواد اللسانيات المقارنة وأشهرهم أوغست شلايشر (1821م-1867م) «الذي يعدُّ خاتمة لتتويج هذه المرحلة العلمية الطويلة.» [2] وشلاشير عالم طبيعي قبل أن يكون عالما لغويا فحاول بهذا تطبيق علومه الطبيعية في ميدان الدراسات اللغوية. وأعظم أعماله مؤلفه المعنون بـــ:"المختصر في النحو المقارن للغات الهندية الأوربية" (1862م-1863م)، وقد كان لهذا الكتاب أثره الخاص.

تأثر أوغست شلايشر بنظرية داروين حول أصل الأنواع سنة 1859م فطبق هذه النظرية على اللسانيات«وقدم نظرية شجرة السلالة (Stammbaum théorie)" أو" النظرية الطبيعية البيولوجية في اللسانيات". ورأى في اللغة كائنا حيا يمكن أن ينمو ويموت كما يمكن لتغيرات اللغة أن تخضع للتحليل باستخدام طرق العلوم الطبيعية.»[3] ويظهر شلايشر متأثرا بالفيلسوف هيجل في اعتقاده بأن علم اللغة علم طبيعي لخضوعه لقوانين حتمية تساعد علم الصوت على إعادة إنشاء اللغات البائدة، في حين أن العلوم الإنسانية – كما يرى هيجل- ميدان للحرية.[4] واهتم شلايشر بإعادة بناء اللغة الهندية الأوربية فكان«أول من حاول بالفعل إعادة الصورة التي كانت عليها اللغة الهندية الأوربية البائدة(Ursprache) متَّبعا في ذلك قوانين التناسب الموروث التي كان أثبتها هو ومن عاصروه منذ البداية... فقد كتب بهذه اللغة المحتملة حكاية على شكل كليلة ودمنة.»[5] وقد بنى شلايشر علمه اللغوي متأثرا بأفكار فلسفية -خاصة أفكار هيجل – ومثلت نظريته اللغوية فكر القرن التاسع عشر.

أما أوغست فردريش بوت(August Friedrick Pott)(1802م-1887م) فهو مؤسس النحو الهندوأوربي المقارن[6] وهو صاحب كتاب "أبحاث في الاشتقاق".

---

[2] عبد الجليل مرتاض، التحويلات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:77.

[3] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، عالم الفكر، المجلد (26)، العدد(02)، أكتوبر- ديسمبر، 1997م ص:224.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:202.

[5] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى عالم اللسان الحديث(03)، ص:15.

[6] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:272.

ولا بد من الإشارة إلى المفكر الألماني ولهالم فان همبولد (W.Von.Humboldt)(1767م-1835م) الذي درس« ماعدا اللغات الكلاسيكية، لغات الهنود الحمر في أمريكا الشمالية واللغة السنسكريتية والصينية والمجرية والتترية» .[7] وقد اختلف هذا العالم عن سابقيه من علماء المقارنات إذ اختلفت نظرياته اللغوية عن تلك التي عاصرتها بالإضافة إلى بعض الآراء التي عرف بها ومنها: - اعتباره اللغة نظام عضوي لها بنية وصورة باطنية، وهذه الأخيرة تختلف عن الصورة الظاهرة في الكلام.[1] وهو بهذا يحاول« إثبات شكلين مختلفين ومتكاملين للغة: شكل خارجي آلي يتمثل في الكلام، وشكل داخلي عضوي.» [2] وهذه الثنائية تشبه إلى حد كبير ثنائية دي سوسير الشكل والمادة. ودعا انطلاقا من هذه النظرة إلى دراسة اللغة فيما تختص به من نظام باطني. ويرى أنه لابد من دراسة اللغة في مختلف جزئياتها بالإضافة إلى الدراسة المقارنة للغات.[3] وذلك بحسب طبيعة اللغات وتراكيبها.

-ويعتبر همبولد اللغة ملكة فطرية خاصة بالفكر الإنساني، فهي قوة داخلية من عمل العقل ويصعب على الإنسان سبر أغوارها. ويرى أن اللغة أبدعت دفعة واحدة، كاملة العناصر بفضل الطاقة المودعة في الإنسان منذ بدء خلقه.[4] واهتم همبولد بمعرفة الثقافات والمعتقدات والملاحم القديمة التي تنقلها اللغات التي اطلع عليها ودرسها. وتعد الآراء التي قدمها إرهاصات أولية لعلم اللغة الحديث - وإن اختلفت آراء العلماء حولها – وبهذا يمثل« همبولدت العقل الذي سبق زمنه.» [5]

مدرسة النحاة الجدد:

ضمت هذه المدرسة مجموعة من الشبان الذين تتلمذوا على يد العالم اللغوي جورج كورتيوس« ففي عام 1876م التف حول كورتيوس(Curtius) في مدينة لايبزيغ فريق من الباحثين الشباب الذين تتلمذوا عليه، وكانوا – كما هي العادة – قد توفروا على تمحيص بعض

---

[7]ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:270.

[1] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:25.

[2] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:60.

[3] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:25.

[4] ينظر ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:271.

[5] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:74.

الموضوعات المتصلة بالقواعد المقارنة، والتي لا تزال على جانب من الصعوبة.» [6] كان من بين هؤلاء التلاميذ بروكمان(Brugman) الذي ساعد أستاذه في إصدار مجلة اسمها "دراسات في القواعد اليونانية واللاتينية ".

وحدث أن كتب بروكمان مقالة حول "حروف الغنة الصائتة في اللغة الهندية الأوربية المشتركة". وكانت هذه المسألة ما زالت موضوع جدل. فاستنكر الأستاذ عمل مساعده، محملا إياه مسؤولية نتائج عمله هذا. وبهذا انفصل بروكمان عن أستاذه، وأصدر رفقة زميله أوستهوف مجلة أخرى.[7]

وفي سنة 1878م – أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر- ظهرت « مدرسة النحويين الشبان بمفهوم الألمان أو النحاة الجدد بمفهوم اللغوي الإيطالي أسكولي(Ascoli)(1829م-1907)».[1] والتي قامت على جهود مجموعة من الشبان، فكان أعلام هذه المدرسة من الألمان منهم: بروكمان (Brugman) (1849م-1919م) أوستهوف (Osthoff) (1847م-1909م)، لسكين (Leskien)(1840م-1916م) ودلبروك (Delbruk)(1842م-1922م)، هارمان بول(Herman Paul)(1846م-1921م). وتأثر هؤلاء الشبان بمذهب فلسفي كان في قمة ازدهاره في تلك الفترة وفي قمة تأثيره في علوم ذلك العصر، وهو المذهب الوضعي(Positivisme) «المستوحى من فلسفة أوغست كونت، والذي لا يعبأ إلا بالظواهر والوقائع اليقينية والتجربة العلمية.» [2] واهتم النحاة الشبان بقضية أساسية كانت السبب في نشأة مدرستهم وهي مبدأ الاطراد أو الانتظام في القواعد التي تحكم التغيير في الظواهر الصوتية.[3] وقد اشتهروا بإصرارهم على اطراد القوانين الصوتية، ورأوا أن « لا استثناء للقوانين الصوتية، بل هي منتظمة انتظاما مطلقا وتتصرف بلا تبصر مثلها مثل قوانين الطبيعة» [4] ونفوا وجود شذوذ لهذه القوانين أو استثناء إلا لعلة معينة« وقد تخفى علينا هذه العلة لعدم

---

[6] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:209.

[7] ينظر المرجع نفسه، ص:210.

[1] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:116.

[2] المرجع نفسه، ص:19.

[3] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، دراسة تحليلية إبستمولوجية، دار القصبة للنشر، ط2001م، ص:39.

[4] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:121.

إطلاعنا على جميع أحوال التطور بل على جميع أسراره وظروفه النفسانية والاجتماعية والفيزيولوجية.» [5] فردوا علة هذا الشذوذ إلى جهل الباحثين بهذه القوانين. وهم وإن اعترفوا ببعض حالات الشذوذ إلا أنهم« يجدون تفسيرا لها في ظل القياس أو الاقتراض.» [6] ومثال ذلك« فإذا كنا نستخدم في الفرنسية الكلمة(Aimer) يحب، من اللاتينية(Amare) بل(Amer) كما تقتضيها قوانين التطور الصوتي فلأن صيغة المصدر (infinitif) خضعت للتأثير القياسي لكلمة(Aime) من اللاتينية(Amat) حيث a الاستهلالية (Initial) تنتقل بانتظام إلىAI.» [7]

حاول النحاة الجدد أن يثبتوا بأن تطور اللغات يماثل تطور الأنواع الحيوانية وفق قوانين صارمة واستمدوا رؤيتهم هذه من نظرية داروين. وكل شذوذ في النمو اللغوي ناجم عن الجهل بالقوانين اللغوية، بالإضافة إلى تدخل عوامل أخرى كالعامل النفسي وهذه القوانين توجد في المستوى المورفولوجي بالإضافة إلى المستوى الصوتي.[1] ورأى أصحاب هذه المدرسة أن وظيفة الباحث اللساني تفسير التغيرات اللغوية.

ويحاول الباحث اللساني أن يجد علل التغيرات اللغوية، ويفسرها على أن يكون تفسيره بعيدا عن التعليلات الفلسفية أي من النمط الإيجابي(Positif)[2] وهذه التعليلات تستخرج من نشاط المتكلمين باعتبارهم يطوِّرون اللغة بالكلام. ويحدِّد النحاة المحدثون العلل بالنوعين التاليين:[3]

- علل ذات طابع نطقي، ويكشف عنها داخل القوانين الصوتية المطَّردة والمعتمدة على التفسير الفيزيولوجي. مثلا: في اللغة العربية يتطلب الجانب الفيزيولوجي أن يستبدل الصوت(ت) بصوت(ط) في كلمة اضطراب[4].
- علل تقوم على مبدأ المماثلة أو القياس وتعتمد على قوانين ترابط الأفكار، وتعتمد في تفسيرها على جانب نفسي وذلك لأن المتكلمين يميلون إلى:[5]

---

[5] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:18.

[6] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:94.

[7] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:124.

[1] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:120.

[2] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية. ص:40.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:40.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:40، (الهامش).

- جمع الكلمات والجمل في مراتب تشابه عناصرها في الآن ذاته بواسطة الصوت والمعنى.
- إبداع كلمات أو جمل مماثلة لأخرى صوتا ومعنى مثل:(Actionner, Solutionner) على نموذج (Fonctionner)، والجملة(Je me rappelle) على طراز(je me souvien)

ويرى النحاة المحدثون أن البحث اللساني الجيد لابد أن يرَّكز على دراسة التغييرات التي تمتد عبر مدة زمنية محدودة. [6]وأصروا على الدراسة التاريخية لعلم اللغة حتى إن هرمان بول- الذي يعد أكبر منظر لهذه المدرسة – يقول: «إن الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية.»[7] ويضيف« إن كل دراسة لغوية علمية لا تكون تاريخية في أهدافها وأسلوبها يمكن تعليلها فقط بتقصير من الباحث، أو بعدم كفاية المصادر التي توفرت له[8] فيصف كل دراسة لا تعتمد على العامل التاريخي بغير العلمية.

كما استخدم النحويون الشباب مبادئ علم النفس في تفسير الظواهر والعلل اللغوية واعتبروه«أداة من أدوات البحث تساعد على مناهضة الاستعانة بالمنطق القديم من أجل دراسة العلاقة بين اللغة والتفكير» [1] ونجد بركمان في مقدمته يستشهد بعلم النفس أكثر من استشهاده بالقوانين الصوتية، ويرجو أن يرتبط علم اللغة ارتباطا وثيقا بعلم النفس.[2] أما هرمان بول فقد أعطى العامل النفسي الأولوية في اللغة.

آراء العلماء في أفكار النحاة الجدد:

اختلفت آراء العلماء حول أفكار هذه المدرسة وما قدَّمه أصحابها بين موافق ومعارض، ولاسيما في مسألة اطراد القوانين الصوتية، والدراسة التاريخية للغة.

فهذا دي سويسر يثني على أعمال هذه الجماعة – حتى إن بحثه المقدم لنيل الدكتوراه يعتبر قسما هاما من أبحاثهم وتوجههم العام. – في كتابه "دروس في الألسنية العامة" فيقول:«وقد كان لهؤلاء الفضل في إحلالهم نتائج منهج المقارنة كلها محلها من المنظور التاريخي، وبالتالي في ربط

---

[5] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:126.

[6] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:40.

[7] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 217.

[8] المرجع نفسه، ص:217.

[1] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 217.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص: 218.

حلقات سلسلة الأحداث اللغوية حسب نسقها الطبيعي، وبفضلهم لم يعد الناس يعتبرون اللغة جهازا يتطور من تلقاء نفسه وصاروا يرون فيها نتاجا من نتاجات الفكر الجماعي للمجموعات اللغوية، وأدركوا تبعا لذلك وفي نفس الوقت ما في الأفكار التي يقوم عليها فقه اللغة والنحو المقارن من خطإ وقصور.» [3] وهو بهذا يعتبر النحاة الجدد نقطة تحول في الدراسات اللغوية من دراسات مقارنة إلى دراسات تاريخية.

ويرى الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح أن هؤلاء النحاة« هم أول من نقض الأوهام التي سادت في أوساط اللغويين في الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر، وأهمها الاعتقاد بأن اللغات القديمة أشرف من الحديثة بحسب توفرها على أكبر عدد من الأحوال التصريفية والعلامات الإعرابية» [4] بالإضافة إلى تطبيقهم مبادئ علم اللغة التاريخي ومحاولتهم ضبط مناهج الدراسات اللغوية وجعلها أكثر علمية.

أما على صعيد المعارضة فقد واجه النحاة المحدثون معارضة شديدة، وخاصة في مسألة اطراد القوانين الصوتية، فقد أقام اللغوي هوجو شوشارت(Shuchardt) (1842م-1927م) الدليل على صعوبة تفسير كل ظاهرة لغوية بتطبيق كامل لقوانين صوتية مطلقة،وقدم أمثلة حية على ذلك.[5] في كتابه« حول القوانين الصوتية المناقضة للنحاة المحدثين، مطبوع في برلين عام 1885م » [1] إذ« حاول أن يبرهن فيه بأن القوانين التي تسهر على التطور في اللغة ليست ذات طابع منتظم، بل بالعكس كل تطور صوتي له طابع غير متجانس(Hétérogène)تبعا للموقع الجغرافي الذي يتكلم فيه اللغة.» [2] فقد ركز على أهمية العامل الجغرافي في التطور اللغوي. وفيه يشترك هوجو مع جوهان شميدت صاحب نظرية الأمواج(Théorie des ondes)* وذلك أنهما

---

[3] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:23.

[4] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:17.

[5] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:215.

[1] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص: 255.

[2] عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:130.

* ومفادها« أن اللغات تنتشر على سطح الأرض كما تنتشر الدوائر المرتسمة على سطح الماء إثر سقوط حجر عليه وكما تبتعد الدوائر عن نقطة انطلاقها، وتتقاطع مع دوائر أخرى نتيجة سقوط أجسام أخرى، فكذلك الشأن بالنسبة للغات حيث تتشعب شيئا فشيئا، وتتسع الهوة تدريجيا بين اللغة الأصلية واللغات المتفرعة.» ويرى شميت« بأن التغيرات بما فيها تغيرات

يربطان أي جديد لساني بموطن اللغة التي يظهر فيها[3] فقد اهتما بالعامل الجغرافي وأثره في التغيرات اللغوية.

أما فندريس فيرى أن الجملة الشهيرة "القوانين الصوتية تسير في صورة عمياء وبحتمية عمياء."جريئة وتعطي القانون الصوتي سلطة لا مبرر لها.[4] وقرر أن القوانين الصوتية لا تشبه حتى قوانين الطبيعة والكيمياء« فالذي يجمع بين حالتين متتابعتين في لغة واحدة إنما هو رباط تخلقه وليس رباطا طبيعيا لذلك لا يمكن أن نعرف مقدما كيف يتطور هذا الصوت أو ذاك لأنه يوجد دائما في تطور الأصوات عدد يكثر أو يقل من العوامل غير المنظورة التي تنتج أثرها.» [5] ويرى من جهة أخرى أن القانون الصوتي بوصفه تعبيرا عن تغير وقع في الماضي له صفة الإطلاق نتيجة لانسجام النظام الصوتي واطراد التغيرات، وبما أن التغير لا يحصل في الكلمة منعزلة بل في آلية النطق نفسها فإن جميع الكلمات التي تتبع آلية واحدة في النطق تتغير بنفس الصورة، وهذا مبدأ القوانين اللغوية بأسره، وهذه القوانين ليست إلا عبارات تلخص هذه العمليات، و إلا قواعد من الارتباطات.[6]

وقد أشار ماريو باي إلى ذلك الخلاف الذي ثار بين النحويين المحدثين واللغويين المحدثين* حول اطراد القوانين الصوتية وإلزاميته، إذ رأى اللغويون المحدثون أن التغير اللغوي يرجع إلى الهوى الشخصي في العادة. وقد نتج عن هذا الخلاف حل وسط حيث يوجد اطراد في التغير الصوتي بشرط أن لا تتدخل عوامل أخرى مثل: القياس والاقتراض اللهجي أو الثقافي في طريق القوانين الصوتية.[1] ومن نتائج هذا الخلاف الاهتمام بدراسة اللهجات.

ولعله يمكن استخلاص أهم هدف كان أصحاب هذه المدرسة يسعون لتحقيقه من قول مؤسسها بروكمان« كان الهدف الرئيسي أو مركز الاهتمام حتى الآن في علم اللغة المقارن أيا

الأصوات تنتشر في مكان معين من لهجة إلى لهجة، ومن لغة إلى لغة ما دامت هناك اتصالات لغوية. » (أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:82).

[3] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:132.

[4] ينظر ج.فندريس، اللغة، تع: عبد الرحمان الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلومصرية، 1950، ص:71.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:72.

[6] ينظر المرجع نفسه، ص:72.

* ومن أشهر هؤلاء المعارضين: شوخارت وفوسلر من ألمانيا، أسكولي وكروتشه في إيطاليا، وسيسي وسويت في إنجلترا، وبريال في فرنسا، وجيسبرسن في الدانمارك.(كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة ص:50).

[1] ينظر ماريو باي، أسس علم اللغة، ص:234.

كانت مظاهره إعادة إنشاء الأصل المشترك للغات الهندية الأوربية. فنجم عن ذلك أن الأنظار اتجهت باستمرار وفي كل تحقيق نحو هذه اللغة الأصلية. فكانت الفترات القديمة جدا والتي هي أقرب ما يكون إلى هذه اللغة الأصلية هي التي تثير الاهتمام الكامل تقريبا سواء في إطار التطور اللغوي للسنسكريتية والإيرانية واليونانية إلخ... وأغفلت التطورات اللغوية الحديثة ونظروا إليها نظرة ازدراء، وكأنها فترات من الإعياء والانحطاط والهرم... ولا بد لنا من أن نكون نظرة عامة لنمو الأشكال اللغوية، لا من خلال رموز لغوية افتراضية أصلية، بل ولا من خلال أقدم الأشكال التي تحدرت إلينا من السنسكريتية واليونانية إلخ... بل على أساس تطورات لغوية يمكننا أن نتتبع مقدماتها اعتمادا على وثائق تمتد على فترة أطول من الزمن تكون بدايتها معروفة لدينا مباشرة.»[2] فكان هدف هؤلاء الشبان تحديد علم اللغة المقارن، وذلك من خلال دراسة التطورات اللغوية بتتبع مقدماتها انطلاقا من وثائق ممتدة على فترات زمنية طويلة محددة البداية. وعليه فنقطة التحول في دراسات هؤلاء الشبان تتمثل في صرامتهم في تطبيق مبادئ علم اللغة التاريخي، والاعتماد على العامل النفسي في إيجاد العلل للتغيرات اللغوية، وساهم النحاة الشبان بصرامتهم ومحاولتهم تقريب منهج الدراسات اللغوية من المناهج العلمية وضبط مناهجها.

وذكر الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح تيارات ثلاثة للسانيات المقارنة وحددها بفترات زمنية كما يلي:[3]

- **المقارنة من أجل بيان القرابة بين اللغات الهندية الأوربية:**

وانطلقت الدراسات في هذه المرحلة من رغبة الأوربيين الشديدة في العثور على أصل لغتهم ومصدرها خاصة اللغة الجرمانية.[4] إذ اهتم اللغويون منذ العصور القديمة بالبحث عن أصل اللغات وصولا إلى القرن الثامن عشر. ففي القرن السابع عشر كانت النظرية القائلة بأن العبرية هي أم اللغات مازالت تسيطر على تاريخ اللغات، فأصدر غيشار(Guichard) كتابه "التوافق الإشتقاقي بين اللغات مما يدل على أن اللغات جميعا قد تحدرت من العبرية"[1] وقد تصدى له لايبنتز ونفي هذه النظرية. ولكن تطور اللسانيات التاريخية المقارنة خلص الدراسات اللغوية من هذه المواضيع،

---

[2] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:216.

[3] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث(3)، ص:12.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:13.

[1] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:135.

مما جعل العلماء يهتمون بالمعطيات التاريخية للغة، وأدى كشف سير وليام جونز للغة السنسكريتية وعلاقتها باليونانية واللاتينية إلى القيام بمقارنات بين اللغات، واهتدى بذلك اللغويون إلى المنهج التاريخي القائم على المقارنة بين لغة في فترة زمنية ونفس اللغة في فترة أخرى بالنظر في التحولات التي مست جميع عناصرها، وبهذا أصبح للدراسات المقارنة بعدا تاريخيا وقامت هذه الدراسات على البرهنة على القرابة بين اللغات.[2] ومن أبرز اللغويين الذين يمثلون هذه المرحلة، بوب وراسك وشليجل.

♦ **التشبيه بين اللغات والكائنات الحية:**

بدأ هذا التوجه منذ القرن الثامن عشر ويمثله اللغويون الذين يعتبرون أن اللغة«جهاز عضوي مثل الأحياء لأنها تتكون من عناصر ذات وظيفة، وهي تنشأ وتترعرع ثم تشيخ وتموت.» [3] وقد سادت هذه الفكرة أوساط اللغويين في تلك الفترة. وكان شليجل أول من نادى بتشريح اللغات بنفس الوسيلة التي اعتمدها علم التشريح حتى يلقي الضوء على البدايات الأولى للكائنات الحية في التاريخ الطبيعي.[4]

وظهرت هذه الفكرة بشكل واضح بعدما نشر كتاب داروين سنة 1859م "أصل الأنواع" فكان«أول من تحمس لهذه النظرية وطبقها في اللسانيات الألماني أوغست شلايشر» [5] فحاول دراسة اللغة بمناهج العلوم الطبيعية. فظهرت بذلك مناهج جديدة للبحث اللغوي وتصورات جديدة، تمثلت في التشابه بين طبيعة التغيرات اللغوية والتغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي، ولاسيما عالم الحيوان والنبات، حتى رأى بعض العلماء أن التغيرات اللغوية تخضع لقوانين عمياء.[6]

♦ **التتبع التاريخي الدقيق والإهتمام بتدقيق التطور وتعليله:**

---

[2] ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:13.

[3] المرجع نفسه، ص:14.

[4] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص: 165.

[5] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:37.

[6] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:271.

اعتمدت الدراسات اللغوية المنتمية إلى هذا التيار على التحليل التاريخي ومنهج الاستقراء لتطور عناصر اللغة كأساس للبحث[7] واهتم اللغويون في هذه الفترة بتتبع التطور التاريخي للغة ثم استنباط القوانين الكلية والجزئية. وتمثل أعمال جاكوب غريم فريدريش بوت وديز بدايات هذا التوجه في البحث اللغوي، وذلك«عندما وضع غريم(Grimm) القواعد المقارنة للغات الجرمانية استند إلى نصوص متدرجة على أربعة عشر قرنا، فكان بوسعه أن يبدأ بدراسة التطورات الطارئة على الأشكال اللغوية التي يقارن بينها، كذلك الحال بالنسبة للغوي (Diez) الذي اعتمد وثائق متدرجة على أكثر من ألفي سنة وكان يملك – مع كل تلك الإثباتات – تلك اللغة الأصلية التي تفرعت عنها اللغات الرومية.» [1] ولا شك أن غريم وديز أخذا التطور اللغوي والتسلسل التاريخي بعين الاعتبار على عكس بوب الذي لم يهتم لذلك فقارن السنسكريتية باليونانية الهوميرية ولاتينية القرن الخامس قبل الميلاد، واستعان بالقوطية الشائعة في القرن الرابع ميلادي وسلافية القرن التاسع عشر والفارسية الحديثة.[2]

وعد دي سوسير الدراسات الرومانية التي ظهرت على يد ديز المحدد الأساسي لغرض الألسنية وذلك نتيجة توفر الظروف الملائمة لعلماء اللغات الرومانية وتوفر النموذج الأصلي لهذه اللغات، وهو اللغة اللاتينية، وكثافة الوثائق المساعدة على متابعة تطور اللغات.[3]

ومنذ سنة 1870م كانت النزعة التاريخية قد سادت ميادين البحث« فظهرت الدراسات التطورية البحتة أي التي لم توقف فيها النظرة التاريخية على الاهتمامات الأخرى.» [4] ولاسيما مع إصرار النحاة الجدد على الدراسة التاريخية للغة كمنهج علمي وحيد.

تطور الدرس اللساني:

واستمرت الدراسات اللغوية في التطور بفضل جهود علماء اللغة في مختلف الاتجاهات، وبالرغم من استمرار النزعة التاريخية وصرامة مواقف أصحابها، تزايدت معارضة هذا التيار وخاصة

---

[7] ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى اللسان الحديث (03)، ص:15.

[1] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:187.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:186،187.

[3] ينظر فاردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:22.

[4] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:16.

من قبل علماء اللهجات، مما أدى إلى ظهور الدراسات اللهجية وتطورها، ومن جهة أخرى تطور علم الأصوات نتيجة للاهتمام بالجانب الصوتي في اللغات.

❖ علم الأصوات:

في هذه الفترة شهد علم الأصوات تطورا كبيرا نتيجة لاهتمام اللغويين التاريخيين بالجانب الصوتي للغات وسبب هذا الاهتمام يعود إلى عاملين:[5] – التفات علماء اللغة للموروث الهندي في تحليل الأصوات، واكتشافهم لمفاهيم كثيرة جديدة عنهم، وما نقل من كتب النحو والتجويد العربية. – أما العامل الثاني فتمثل في اهتمام بعض الفيلولوجيين بمخارج الحروف وكيفية حدوثها.

وبهذا وضعت أسس الصوتيات التجريبية(Expérimental phonetics)، ووضع أ.بروكه(Ernest Brücke)(1819م-1892م) أسس التحليل الصوتي.[1] وجاء بعده لبسيوس(Richard Lepsuis) الذي سجل أبجدية نموذجية من تأليفه.[2] مما شجع علماء اللغة على الاهتمام بعلم الأصوات.

وفي عام 1876م قدم إ.سيفرز(Eduard Sievers) كتابا بعنوان:"الأسس العامة في فيزيولوجية الصوت."[3] قدم فيه تحليلا مستفيضا حتى صار الكتاب مرجعا أساسيا حتى الربع الأول من القرن العشرين.[4] وفي هذه الفترة كان الجانب الصوتي يدرج ضمن الدراسات اللغوية كعلم متمم ومكمل لها. ونتيجة التطور التقني والتكنولوجي تطورت الدراسات الصوتية مستخدمة هذه التقنيات وخاصة في ألمانيا وفرنسا. ويعتبر الفرنسي القس روسلو واضع الصوتيات الآلية أو المخبرية[5]، بالإضافة إلى بول باسي(Paul Passy)، وفي ألمانيا اهتم بالدراسة الصوتية العالم فيتور(Vietor). أما في إنجلترا فظهر العالمان هنري سويت وجونز. أما في الدانمارك فظهر أوتو يسبرسن(Otto Jespersen).[6] و« يعد كتابا سويت: " التمهيد في الإنجليزية الملفوظة " و "

---

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:21.

[1] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:21.

[2] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:208.

[3] المرجع نفسه، ص:208.

[4] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:22.

[5] المرجع نفسه، ص:22.

[6] نظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:208.

الموجز في علم الأصوات اللغوية " على غاية من الأهمية في علم الأصوات اللغوية في القرن التاسع عشر.» [7]

❖ ظهور علم اللهجات:

لقد تناول العلماء دراسة اللهجات من خلال البحوث اللغوية الجغرافية والتي اهتمت بوصف اللهجات المكتوبة في البداية. ويقصد بعلم اللهجات: ذلك« الفرع من فروع علم اللغة يعنى بتحليل ووصف التنوعات المحلية أو الاجتماعية أو الزمانية للغة معينة مبينا كيف تختلف هذه التنوعات في النطق أو القواعد أو في المعاجم، وكيف تتوزع هذه التنوعات الجغرافية.» [8]

وفي إطار الدراسات اللهجية أشار النجاة الجدد إلى أهمية هذه الدراسات في إنشاء التطور اللساني، وألحوا على الفائدة المستقاة منها.[1] وقد أشرت إلى دور شوشارت في الدراسات اللغوية الجغرافية في أثناء الحديث عن معارضته للنحاة الجدد، بالإضافة إلى نظرية الأمواج لصاحبها جوهان شميدت.

أما الجديد في دراسة اللهجات – والذي ظهر في نهاية القرن التاسع عشر– فهو الاهتمام بالجانب المنطوق فيها و«الشخص الذي أحدث هذه البحوث ونظم أول تحقيق لهجي هو لغوي ألماني اسمه (J.wenker) من أتباع التاريخيين.» [2] لكن ضعف وسائله وتأخر نشر خرائطه لم يساعده على تحقيق هدفه. ثم وسع تحرياته في الأقاليم الألمانية ونشر نتائج أبحاثه سنة 1926م.[3] وكان في البداية قد اهتم بجمع الخصائص اللهجية في مساحة ضيقة وهي مدينة دوسلدورف وما حولها ثم وسع نشاطه الذي شمل كامل ألمانيا. وبهذا كان مبتكر هذه الطريقة ومنفذها.[4] ثم نقلت هذه الطريقة إلى فرنسا حيث طبقها العالم الفرنسي جول جلييرون حيث وضع«مستنطقا: مجموعة من الأسئلة تهيأ سلفا للحصول على كيفيات آداء اللغة(Questionnaire linguistique d'enquête)يتألف من 1500 سؤال وكلّف أحد أعوانه باستنطاق عدد من الأهالي يتوزعون على 630 مترلة أو منطقة جغرافية... ثم وضع الأجوبة في خرائط حتى تظهر مواقع تلك الكيفيات

---

[7] محمود السعران، علم اللغة، ص:275.

[8] صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد البحوث، ص:64.

[1] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:133.

[2] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى عالم اللسان الحديث (03)، ص:30.

[3] ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ينظر رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ-1997م ص:151.

وتداخلها. وتبين هو أيضا أن الاطراد المطلقة الذي كان يصف به النحاة المحدثون قوانينهم الصوتية وفيما يخص الفرنسية ولهجاتها غير حاصل ولا محقق.» [5] وقد أسس هذا العالم مع رائد من رواد الدراسات الديالكتولوجية وهو جان بيير روسلو (1864-1924م) مجلة اللهجات المحلية الغالية – الرومانسية منذ عام 1881م، وكان جيلييرون منذ عام 1883م قد شرع في تدريس علم اللهجات في مدرسة الدراسات العليا.[6]

وقد اعتمد اللهجيون على دراسة اللغات المنطوقة بالاعتماد على عاملين هما المكان حيث درسوها في صميم أراضيها، وعامل الزمن فقد كانت هذه الدراسات في فترات زمنية قصيرة فاطلعوا على اختلاف صيغ الكلمات من نفس اللهجة من مكان إلى آخر. وبذلك فقد شاهدوا ذلك التحول بالذات، و لم يعرفوا الحالة الماضية والحالة التي ستؤول إليها مستقبلا، وبهذا انتقدوا قوانين التاريخيين ورفضوا حتميتها. في حين أن النحاة الجدد انطلقوا في دراستهم من المقارنة بين النصوص التي تمثل أطوارا من تاريخ اللغة وفيها الماضي الذي انقضى. وبالتالي استطاعوا استنباط القوانين المطردة لأن المنطلق والمنتهى معروفان وبهذا فالسبب في التعارض بين الفريقين حسب الباحثة الدانماركية إيلي فيشر يوركنسن (E .Fisher.Jorgensen) النص الذي أورده د.عبد الرحمن حاج صالح يعود إلي الاختلاف في المادة والميدان موضوع الدراسة.[1] ولكن ظهور البنيوية سيضعف مقولة التيار التاريخي بألاَّ دراسة علمية للغة إلا بالمنهج التاريخي.

❖ بوادر اللسانيات الوصفية:

صحيح أن اللسانيات ظهرت بصفة علمية دقيقة وكطريقة منهجية للدراسة اللغوية على يد اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير لكن الإرهاصات الأولى لعلم اللغة الوصفي قديمة قدم الدراسات اللغوية نفسها، ففي« اهتمامه بطبيعة اللغة ومشكلاتها بوجه عام ربما قيل بوجود جذوره في تلك التأملات الفلسفية التي تهتم بطبيعة اللغة والتي أثارها الفلاسفة الإغريق. وفيما يخص الجانب الآخر من البحث وهو وصف لغات مستقلة، فإن علم اللغة الوصفي يرجع إلى الوراء في شكل تلك الجهود المبكرة التي تمت على أيدي النحويين الصينيين والهنود والإغريق.» [2]

---

[5] عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:30،31.

[6] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة اللسانيات التاريخية، ص:133.

[1] ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى عالم اللسان الحديث (03)، ص:34.

[2] ماريو باي، أسس علم اللغة، ص:163.

أما في القرن التاسع عشر فقد أدرك العلماء الطريقة الوصفية أو معنى الدراسة الوصفية للغات ويتجلى ذلك في تفكير بعض أقطاب هذا القرن، إذ يرى جورج مونان أنه بوسع الباحث أن يجد« لدى همبولدت ملاحظات تبرز ما يسمى قطبيات اللغة فهي بآن واحد إنتاج فردي واجتماعي، وهي شكل ومضمون، وهي آلة وموضوع وهي نظام ثابت وسيرورة متطورة، وهي ظاهرة موضوعية وحقيقة ذاتية.» [3] وهذه المفاهيم تمثل أسس الدراسة اللغوية للسانيات الوصفية، ولعل هذا ما جعل بعض الباحثين يقولون أن همبولدت عقل سبق زمنه.

وبالنسبة للعالم الأمريكي وايتني المتأثر بالأفكار الهمبولدية فيورد له جورج مونان تعريف للغة يحمل نظرة وصفية، فيقول:« اللغة، الحقيقة، نظام كبير من البنى المعقدة جدا والمتوازنة، وهي تقبل تماما المقارنة مع جسم منتظم.» [4] ولم يتوصل وايتني في تعريفه هذا إلى الدقة التي توصل إليها سوسير. ولقد ظل مترددا بين موقفه التاريخي الذي اكتسبه من تكوينه وبين الموقف الوصفي الذي يفضِّله. ويرى وايتني أن العلاقة بين الرموز المنطوقة وبين الفكر اعتباطية. وهي نفس فكرة دي سوسير حول اعتباطية العلامة اللغوية.

وظهرت أفكار تؤيد علم اللغة الوصفي لدى العالم البولوني يان إيناسي بودوان دوكورتيناي(1845م-1929م) إذ طرح بقوة فكرة وجود علم اللغة الوصفي أو الثباتي النقي من كل شائبة معيارية إلى جانب علم اللغة التاريخي أو الديناميكي.[1] وهو وإن كان لا يفصل بين المنهجين إلا أنه يلح على علم اللغة الثباتي (Statique) الذي يسبق علم اللغة التاريخي.

أما العالم اللغوي السويدي أدولف نورين(Adolff Noreen) فقد أولى الدراسة الوصفية مكانة هامة في أبحاثه وتعليمه، وقد قسم اللسانيات إلى قسمين: سانكروني-وصفي، والآخر اشتقاقي- دياكروني.[2]

وظهر الأسلوب الوصفي بشكل واضح منذ أن نادى به أنطوان مارتي(A.Marty ت 1914م)[3] ليأتي بعده دي سوسير الذي دعا إلى الانتقال من الدراسة الزمنية إلى التزامنية أي

---

[3] جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:199.

[4] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:191.

[1] ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:29، 30.

[2] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:141.

[3] ينظر أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص:16.

الوصفية المتواقتة من أجل دراسة اللغة دراسة علمية. وستشهد الدراسة الوصفية تطورا كبيرا، وتعميقا منهجيا خاصا بفضل جهود علماء اللغة في القرن العشرين بدء بفردينان دي سوسير، ومفاهيمه اللسانية والتي تعد أسسا ومرتكزات هامة قامت عليها اللسانيات في العصر الحديث، وما دار من جدل حول هذه التصورات السوسيرية وصولا إلى علماء اللغة في أوربا وأمريكا، وتأثرهم قليلا أو كثيرا بهذه المفاهيم.

الفصل الثاني

اللسانيات مع فردينان دي سوسير:

- فردينان دي سوسير: التعريف به.
- أهم المذاهب العلمية المؤثرة في فكر دي سوسير.
- دي سوسير والدرس اللساني.
- جدلية الثنائية عند دي سوسير.

مفاهيم دي سوسير اللسانية (الثنائيات).

يتطور العلم إما باتصال المعارف والعلوم أو بانفصالها وظهور الجديد الذي يحل محل القديم، غير إن تاريخ العلوم يؤكد وجهة النظر الاتصالية إذ إن حلقات تطور العلم مربوطة ببعضها البعض، وإن اختلفت في كثير من المنطلقات والتوجهات فيمكن أن تظهر رؤية علمية جديدة يتقبلها الناس والوسط العلمي في حين مازالت الرؤية القديمة مسيطرة على ميادين البحث والمعرفة، ثم تقوى النزعة الجديدة وتترسخ لتحل محلها المناسب، ذلك أن أي جديد يقوم على تراكمات معرفية سبقته لكنه يسعى لتحقيق الدقة والغاية العلمية التي وجد لأجلها.

وهذا ما حدث في حقل العلوم الإنسانية والدراسات اللغوية خاصة مع بداية القرن العشرين ونهاية القرن التاسع عشر. إذ ظهر علم اللغة الحديث أو اللسانيات في حلة جديدة فتميز بالدقة العلمية والوضوح المنهجي والتحديد المفهومي، والسعي لدراسة اللغة دراسة علمية لذاتها ومن أجل ذاتها. لكن هذا التحول لم يحدث فجأة بل كان نتيجة لجهود علمية متتابعة منذ القرن الثامن عشر على الأقل وتواصلت على يد علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين لتتأسس نظرية علمية لدراسة اللغة على يد العالم اللغوي السويسري. ولئن كان الفضل لدي سوسير في التأسيس المنهجي والتحديد المفهومي لهذه النظرية فقد سبقه في بعض وجهات النظر وبعض المفاهيم كبار علماء اللغة في القرن التاسع عشر.

ولئن كان دي سوسير أول لغوي تجرأ على القيام بدرس في علم اللغة العام فإن هذا ليس بجديد على حقل الدراسات اللغوية إذ سبقه إلى هذا النوع من الدراسة سلفستر دوساسي منذ القرن الثامن عشر.[1] لِيَلِيهِ بعد ذلك همبولدت.

ونجد أن بريال الفرنسي قد أعلن عام 1868م عند افتتاحه لدروسه في معهد كوليج دوفرانس(Collège de France) عن هذا النوع من الدراسات وسماه:"القواعد العامة أو الفلسفية" وتساءل عن تعارضها مع القواعد المقارنة مادامت تهدف إلى شرح العلاقة بين عمليات الفكر وأشكال اللغة. ويمكن استنتاج تأثير بريال في أعمال دي سوسير.[2]

وتميز دي سوسير عن الذين سبقوه بأنه أول من وضح وحدد ونظم تلك الأفكار اللسانية حتى صارت أسس علم اللغة الحديث أو اللسانيات، والتي وضح دي سوسير « اختصاصها

---

[1] ينظر جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص:224.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:224،225.

ومناهجها وحدودها، وأثرى الدراسات الإنسانية بالكثير من الأفكار اللغوية الرائدة حتى صارت اللسانيات باعثا لنهضة علمية تولد منها علوم ومناهج جديدة. ويكفي أن نشير هنا إلى ما امتاز به عمل دو سوسير من تنظير عميق سعى إلى وضع الأسس المنهجية للتحليل اللغوي، ومن تركيز على وصف اللغات الإنسانية للوصول إلى الكليات المشتركة بين اللغات،ومن بحث عن العوامل المؤثرة في النشاط اللغوي كالعوامل النفسية والاجتماعية والجغرافية ومن اقتصار المناهج اللغوية في درس اللغة ونبذ كل ما هو دخيل عليه.» [1] ولهذا اتفق الدارسون على أن دي سوسير الأب الحقيقي للسانيات.

فمن يكون هذا الرجل؟ وبمن تأثر؟ أو ما هي مرجعيته العلمية؟

فرديناند دي سوسير:

ولد دي سوسير في جنيف عام 1857م من عائلة عريقة« وهي من أصل هوغنوتي (بروتستاني فرنسي)، كانت دراسته في مبدئها في الفيزياء والكيمياء.» [2] ولعل هذا نتيجة لأن أكثر أفراد عائلته امتازوا بالعلوم الدقيقة والطبيعية. درس في جنيف وبعد أن أنهى دراسته الثانوية دخل الجامعة « وتابع فيها دروسا في مختلف العلوم لشدة تعطشه إلى العلم. وكان دائما يميل في نفس الوقت إلى الرياضيات وعلوم اللسان. في سنة 1876م قرر مصيره بذهابه على ليبتسيش والتحاقه بحلقة اللغويين الألمان ودرس أولا على كورتيوس، وكتب عليه أن يشاهد شهادة عيان الخلاف الذي قام بين هذا الأستاذ وشبان النحويين (النحاة المحدثين). وتعرَّف على بروكمان واستهوف وغيرهما وكان يحضر مناقشاتهم ويساهمهم فيها ندا للند وهو بن 19 سنة.» [3]

نشر دي سوسير سنة 1879م رسالة بعنوان:"مذكرة حول النظام البدائي لأحرف العلة في اللغات الهندية الأوربية." وهو في سن 21 سنة حققت له شهرة عالمية صحبته حتى وفاته. ثم قدم أطروحته للدكتوراه حول حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية.[4]

أقام دي سوسير في باريس في الفترة ما بين 1881-1891م، وكان يحضر الدروس التي يلقيها علماء كبار من أمثال: بريال. عمل كمدير للدراسات في المدرسة التطبيقية العليا، وكان

---

[1] أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص:54.

[2] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:54.

[3] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:39،40، (الهامش).

[4] ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:48.

يحاضر للطلبة في اللسانيات التاريخية والمقارنة، والذين سيشتهرون في اللسانيات في فرنسا. عاد إلى جنيف عام 1891 وشغل كرسي التاريخ المقارن للغات الهندوأوربية إلى 1896 ليتوارى عن الأنظار، وبطلب من تلاميذه عاد لتقديم دروس في اللسانيات العامة.[5]

قدَّم دي سوسير سلسلة محاضرات في اللسانيات العامة سنة 1906م - 1907م وسنة 1908م-1909م، وسنة 1910م-1911م، وقد كونت هذه المحاضرات مواد الكتاب الذي جمعه تلميذاه شارل بالي وألبار سيشاي.[1] ونشراه بعد تحريره سنة 1916 بعنوان: "دروس في الألسنية العامة." ويذكر أن دي سوسير عاش في عزلة وصمت علمي ويأس في الفترة الأخيرة من عمره، وهذا ما تعبر عنه رسالة دي سوسير إلى صديقه أنطوان ماييه سنة 1894م.[2]

ومن تلاميذ دي سوسير الذين أسهموا في تأسيس اللسانيات وفقا لمبادئ أستاذهم وكانوا رواد المدرسة السويسرية والفرنسية:

- **بول باسي(Paul Passy)**: « أحد المتخصصين في صوتيات اللغة الفرنسية.» [3] ومن مؤسسي الجمعية الدولية للعلوم الصوتية.
- **موريس جرامون (Maurice Grammont)**: متخصص في علم وظائف الأصوات النطق ومن الذين اقترحوا تحليل تغيرات الأنظمة الصوتية.[4]
- **أنطوان ماييه(Antoine Meillet)**: ولد سنة 1866م، درس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا منذ 1885م، درس لغات عدة منها: السلافية، الإيرانية والسنسكريتية والإرلندية واللغات الرومانية والنحو المقارن.[5]

درّس كأستاذ إضافي سنة 1891م خلفا لدي سوسير، بقي في هذا المنصب إلى سنة 1927م ثم تخلى عنه لصديقه بنفنيست (Benveniste). واعتبر(Giorgio Pasquali) أنطوان ماييه أكبر الفيلولوجيين، بل عبقري القرن العشرين. ويعد رائد المدرسة الفرنسية في

---

(5) ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص: 40، (الهامش).

(1) ينظر ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:224.

(2) ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:47.

(3) عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص: 22.

(4) ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:95.

(5) ينظر المرجع نفسه، ص:95.

اللسانيات التاريخية، وقد ربطها بعلم الاجتماع. أسهم في المعجم الإيتيمولوجي للغة اللاتينية في 1932م، وتوفي سنة 1936م.[6]

- **شارل بالي (Charles Bally)**: باحث لساني من تلامذة دي سوسير المباشرين ولد بجنيف عام 1865م وتوفي عام 1947م، نشر مع زميله سيشهاي كتاب دي سوسير. وكان مهتما باللغتين السنسكريتية واليونانية، يعد مؤسس قواعد الأسلوب (Stylistique) من مؤلفاته: مصنف الأسلوبية الفرنسية 1909م. اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية 1933م.
- **ألبير سيشهاي (Albert Sechehaye)**: أعاد رفقة زميله بالي صياغة أفكار دي سوسير، غير أنّه تخصص في دراسة العلاقة بين علم النفس واللسانيات.[1]

أهم المذاهب العلمية المؤثرة في فكر دي سوسير:

تأثردي سوسير بالمناخ العلمي السائد في عائلته إذ امتاز أفرادها بالعلوم الدقيقة والطبيعية،فنشأ ميالا للدراسات اللغوية والرياضيات.وعاش في الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى بدايات القرن العشرين التي تميزت بالدراسات التاريخية والمقارنة بالإضافة إلى مذاهب علمية أخرى. فاستفاد منها وتعلم على يد لغوييها وفلاسفتها أهم مبادئ علم اللغة،كما تشبع بنظرياتها،فكون بذلك رصيده العلمي والمعرفي والأسس الأولى لدراساته والتي نتج عنها لاحقا علم اللغة الحديث وخاصة اللسانيات السوسيرية.إذ أنه استوعب تلك التوجهات التي سادت في عصره فاخذ منها ما رآه صحيحا أو ما وافقه وحاول في المقابل تقديم منهج علمي لساني توخى فيه الدقة العلمية والمنهجية في الطرح والتحديد المفهومي،وهذا ما قامت عليه اللسانيات الحديثة وسعت إلى ضبطه في دراستها للغة دراسة علمية.

فظهر فكر دي سوسير نتيجة تلك التراكمات المعرفية التي ورثها عن أساتذته وعلماء عصره ومنها ما يرجع إلى القرن الثامن عشر أو قبله قليلا. ومن التيارات والمذاهب الفكرية التي بدا أثرها واضحا في فكر دي سوسير:

1. المذهب الاجتماعي:

---

[6] ينظر المرجع نفسه، ص:95.

[1] ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:95.

ويمثله العالم الفرنسي إيميل دوركايم (1858م-1917م) الذي بين أهمية العامل الاجتماعي. كما وضع مفهوم التصورات الجماعية(Représentations collectives) «وفسر هذا المفكر مفهوم التصور الجماعي بأنه شيء زائد على مجموع الأفراد بل شيء خارج عن صفات الفرد ومكتسباته الخاصة به. فهو إذا كل صفة غير فيزيولوجية ولا عضوية يشترك فيها جميع الأشخاص بسبب اجتماعهم وتعايشهم وكل ما يصدر عنه في داخل الجماعة ومن أجلها (كمجموع اعتقاداته وتصوراته وعواطفه ومنشآته وغير ذلك مما له علاقة بالجماعة التي يندرج فيها) فجوهره ليس طبعا من جنس الصفات الجسدية أو النفسانية التي تميزه عن الأفراد الآخرين.» [2]يبدو لي أن دوركايم يرجع اللغة إلى تصور جماعي فهي خارجة عن إرادة المتكلمين وسابقة لوجودهم، وبهذا تكون إجبارية إذ لا يمكن للفرد وحده أن يغيرها أو يعدل فيها دون اللجوء إلى المجتمع.

وهنا تبدو نقطة الاشتراك واضحة بين دوركايم ودي سوسير الذي يرى« أن اللغة مؤسسة اجتماعية».[1] وفي سياق آخر« هي الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد لأن الفرد الواحد غير قادر على أن يخلقها أو على أن يحورها. وهي لا توجد إلا بمقتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة » [2] أظن أن المقصود من الجملة الأخيرة تأثير الجماعة على الفرد في الجانب اللغوي وهي الفكرة التي سماها دوركايم ضغط الجماعة على الفرد (Contrainte Sociale)[3]

ويشير الدكتور محمود السعران إلى أن الفلسفة الدوركايمية تنظر إلى الـــLangue (اللغة) لاعتبارها متميزة أو مستقلة عن الـــ Parole (الكلام) وعن الـــLangauge [4] وعلى هذه النظرة التمييزية قام مبدأ من أهم مبادئ دي سوسير وهو التمييز بين اللغة كمؤسسة اجتماعية متمثلة في تلك المنظومة النحوية الموجودة بالقوة في كل دماغ ولا تكتمل إلا لدى الجماعة [5]،

---

[2] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:35.

[1] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:37.

[2] المرجع نفسه، ص:35

[3] نظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:35.

[4] ينظر محمود السعران، علم اللغة، ص:278.

[5] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:34.

والكلام كنشاط فردي إرادي يتمثل في الإنجاز الفعلي للغة في الواقع. ثم ذلك المصطلح الثالث وهو اللسان كنظام تواصلي بين المتكلم والمستمع وله جانبان: فردي واجتماعي.

وأشار جورج مونان إلى تأثر دي سوسير بعلم الاجتماع، ويرى أن دي سوسير مدين للنزعة السيسيولوجية والمتمثلة في دوركايم[6]. والذي تأثر هو بدوره بأوغست كونت وكارل ماركس في فكرة تقدم المجتمع على وجود الفرد[7].

2.المذهب الفلسفي اليوناني:

تأثر دي سوسير كباقي علماء اللغة بالفلسفة، ولاسيما الفلسفة الأرسطية القائمة على تقسيم كل محسوس إلى مادة وصورة، ويذهب أرسطو إلى أن« كل شيء هو تلك الصورة أو الحقيقة التي نشأت عن شيء كان مادة لها والذي قد يكون بدوره مادة لصورة أكبر تنشأ عنه.» [8]ويعتبر أن المادة بدون صورة لا تكوّن شيئا ذلك« أن الصورة ليست الشكل فقط ولكنها القوة المشكلة.» [1] ويبدو أن أرسطو يجمع بين الصورة والمادة فيجعل منهما شيئا واحدا فيذهب إلى القول:« وعلى ذلك فليس للمادة أو الصورة وجود مستقل لأن ما يوجد فعلا هو اتحاد المادة والصورة.»[1] فهما متلازمتان إذ لا وجود للواحدة دون الأخرى. وكان هيجل قد تأثر بهذه الفكرة في بناء منهجه الجدلي بالإضافة إلى عدة أفكار استخلصها من فكر أرسطو.

ويبدو أثر أرسطو واضحا في الفصل بين اللغة والكلام عند دي سوسير وفي اعتباره اللغة شكلا أو صورة وليست مادة.

ويختلف تأثر دي سوسير بالفكر الأرسطي عن غيره من اللغويين في جانبيين:[2]

– إنه لم يعتمد على مفاهيم أرسطو بشكل واضح ومباشر ماعدا مفهومي الصورة والمادة.

---

[6] ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:49.

[7] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:35.

[8] ول ديورانت، قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد مشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط4، 1979م، ص:112

[1] ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص: 112.

[2] إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، دار المعارف، مصر، 1969م، ص:74.

[3] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:61.

– إنه اختلف في تحديد محتوى هذه المفاهيم عن تلك التي وضعها أرسطو، وبذلك لم يبقى فيها إلا التقسيم، وذلك لأن دي سوسير بنى نظريته اللسانية على الطرح العلمي والموضوعي المعتمد على الحجة القوية والمفاهيم الدقيقة.

ولئن كان دي سوسير قد تأثر بالفلسفة الأرسطية إلا أنه صاغ مفاهيم نظريته اللسانية بدقة علمية ووفق منهجية جديدة تسعى لدراسة اللغة دراسة وصفية علمية لذاتها ومن أجل ذاتها.

3. المذهب الفلسفي الوضعي:

ويسعى صاحب هذا المذهب أوغست كونت (1798م-1857م) إلى الكشف عن العلاقات والقوانين التي تحكم الظاهرة اللسانية. ويقصد بالمذهب الإيجابي كل موقف نظري يعتمد في دراسته للسانيات على السلوكات المشاهدة مباشرة والتي تحددها القوانين المتحكمة فيها مباشرة.[3] وقد مثل هذا المذهب نهاية التفسيرات اللاهوتية والماورائية للغة وبداية التعامل مع الظواهر اللغوية كظواهر طبيعية من خلال وصفها بالاعتماد على قوانينها الداخلية. وهنا يظهر تأثر دي سوسير بهذه المفاهيم الوضعية إذ عمد « إلى تحديد موضوع اللسانيات في بنية اللغة من حيث هي مظهر محسوس يمكن ملاحظته وغرض جوهري في الدراسة مطلوب لذاته ومن أجل ذاته.» [4] وأظن أن هذا ما يفهم من آخر عبارة ختم بها دي سوسير كتابه« إن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنما هو اللغة في ذاتها ولذاتها.» [5] في إطار هذا المذهب قامت الدراسات التي تتناول اللغة باعتبارها نظاما مترابطا وقد وجدت هذه النظرية عند علماء المقارنات قبل دي سوسير أمثال: همبولدت، ووليام وايتني، وأنطوان ماييه ...[1] ولكن دي سوسير رسخ هذه النظرة وأرسى دعائمها وحدد لها مفاهيم وأسس قامت عليها.

4. المذهب النفسي:

يمكن استنتاج مدى تأثر دي سوسير بمفاهيم علم النفس من استخدامه لمفاهيمه الجوهرية في قالب نفسي كاعتباره« الصورة الأكوستيكية أو الدال ذلك الأثر النفسي لهذا الصوت.» [2]

ينظر المرجع نفسه، ص:35(الهامش).

[4] ينظرالمرجع نفسه نفسه ، ص:57.

[5] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:347.

[1] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:36.

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:110.

و« أن العنصرين اللذين ينطوي عليهما الدليل اللغوي إنما هما عنصران نفسيان معا.» [3] ويذكر جورج مونان أن دي سوسير مدين لعلم النفس عند طارد.[4]

وبالإضافة إلى تأثير هذه المذاهب والتيارات الفكرية في فكر دي سوسير فقد تأثر بمجموعة من العلماء استوحى منه دي سوسير أفكاره اللغوية ومفاهيمه اللسانية التي أصبحت أسس علم اللغة الحديث، ومن أهم هؤلاء العلماء:

❖ **بودوان دي كوريتناي(Jean Ignacy Baudouin de Courteney):**

ولد بودوان سنة 1845م قرب فرصوفيا ببولونيا أين بدأ دراسته، ثم استأنفها في براغ وإينا. درَّس في جامعات سان بيترسبورغ وقازان، ودوربانت وكراكوفيا في النمسا ثم في بيترسبورغ من سنة 1900م-1920م ليرجع إلى فرصوفيا. تميز بودوان بالوطنية والشجاعة والدفاع عن الأقليات المضطهدة. توفي عام 1929م.[5] تمثل الفكر اللغوي لهذا العالم – طيلة سنتين عاما أو أكثر – في تلك الأفكار والآراء المبعثرة في أكثر من 640 مقالا لغويا.[6] تخصص بودوان في علم وظائف الأصوات ويعد من أوائل علماء الأصوات الذين حاولوا تحديد مفهوم الفونام.

سوسير على أفكار وكتابات كروسزيوسكي (Kruszewski) تلميذ بودوان. [1] وعلى هذا فقد كان الأستاذ وتلميذه على صلة وثيقة بدي سوسير أكثر من غيرهما وإن لم يعرفا لدى الغرب.

وقد اشترك دي سوسير وبودوان في بعض القضايا الأساسية في علم اللغة الحديث منها: الإهتمام بالمنهج الوصفي أو الثباتي (Statique) في دراسة اللغة إلى جانب المنهج التاريخي.[2] وفي هذا السياق« يشير بودوان دي كورتيناي إلى أنه يجب على الألسنية الاهتمام بالمسار التاريخي وبواقعها الحالي على حد سواء. فهو لا يكتفي بدراسة اللغة من حيث تطورها التاريخي شأنه شأن

---

[3] المرجع نفسه، ص:110

[4] ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:49.

[5] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:25.

[6] ينظر ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:274.

[1] ينظر جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:28..

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:29، 30

معاصريه، بل يدعو إلى دراستها أيضا من حيث هي موضوع الألسنية الوصفية.»[3] غير إنه لا يفصل بين هذين المنهجين كما فعل دي سوسير.

كما اهتم بالعلاقة القائمة بين علم اللغة وعلم النفس فأشار إلى« علاقات علم اللغة بالعوامل النفسية والاجتماعية واعتبر هذه العلاقات نفسية، فهو يرى أن اللغة حدث نفسي بمعنى أن تطورها مشروط بالعوامل النفسية.»[4] فيلتقي مع دي سوسير في علاقة علم اللغة بعلم النفس إذ يعتبر هذا الخير أن« كل ما في اللغة في نهاية الأمر نفسي.» [5] ويرد بعض مفاهيمه اللسانية إلى مضامين نفسية كالصورة الأكوستيكية.

وبالإضافة إلى هذه الأفكار حاول بودوان تحديد مفهوم الفونام إذ ميز« بين مفهوم الصوت اللغوي وبين الفونام كوحدة لغوية أساسية... فاللغة في رأيه لا تتضمن أصواتا لغوية إنما تتضمن فونامات أو تمثيلات صوتية هي وحدات نفسية وليست بالتالي وحدات مادية.»[6] أظن أنه يفرق بين الصوت الناتج عن عملية النطق والصوت كوحدة لغوية أو ما يسمى الفونام كوحدة نفسية.

وبالنظر إلى ما قدمه بودوان دي كورتيناي من أفكار لسانية رائدة يعدُّ رائدا من رواد اللسانيات البنيوية وإن لم ينتبه إليه الناس.

❖ وايتني(William Dwingt Whiteny):

ولد وايتني في عائلة جامعية، درس العلوم الطبيعية ثم اتجه نحو الفيلولوجياحيث درسها بيال(Yale)

في 1847م. تابع دراسته في ألمانيا ثم توبنجن (Tubengen) بين 1850م-1853م أين حضر دروس فرانس بوب مؤسس القواعد المقارنة للغات الهندوأوربية. أصبح عام 1854م أستاذ اللغة السنسكريتية في يال ليحصل على كرسي القواعد المقارنة عام 1869م.[1]

---

[3] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:276.

[4] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:87.

[5] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:25.

[6] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:275.

[1] ينظر جورج مونان، علم اللغة، ص:13.

أسهم هذا العالم الأمريكي في البحث اللساني ببعض الأراء والتي دفعه إلى إظهارها شعوره بالمبالغة والانحراف في المذاهب اللغوية التي سادت حقل الدراسات اللغوية لفترة طويلة ولاسيما النزعة البيولوجية والداروينية لدى شلايشر، والتي جعلت اللغة ظاهرة طبيعية بيولوجية وعلم اللسان علم طبيعي بدون قيد ولا شرط.[2]

ومن أهم هذه الآراء التي ألهم بها وايتني دي سوسير وغيره من علماء علم اللغة الحديث:

- ❖ نظرته الاجتماعية للغة إذ يعتبرها واقعة اجتماعية.
- ❖ اعتباطية العلامة اللغوية أي الرموز اللغوية إذ يرى « أن في اتصاف العلامة اللغوية المقطعة بأنها علامة متفق عليها وأنها ليست مرتبطة بالمفهوم إلا ارتباط المصاحبة الذهنية سر إمكانية التحولات اللفظية والمعنوية، ولو كان هذا الارتباط طبيعيا وباطنيا ولازما لوجب أن يحدث كل تحول يصيب المفهوم تحولا مماثلا في دليله»[3] أي إن الأدلة اللغوية وضعية نتيجة اتفاق الناطقين بها عليها في مجتمع لغوي. وهذه السمة تميز الإنسان عن الحيوان وتضمن تحوُّل اللغة من حالة إلى أخرى عبر الزمان.
- ❖ يؤكد وايتني على نظامية اللغة فيقول:« اللغة، الحقيقة، نظام كبير من البنى المعقدة جدا والمتوازنة وهي تقبل تماما المقارنة مع جسم منتظم.» [4] فهو يشبه اللغة بجسم منتظم نتيجة لانتظامها وتناسقها. كما يشير إلى مفهوم البنية الذي قامت عليه اللسانيات البنوية.
- ❖ حاول وايتني تحديد موضوع علم اللغة فحصره« في المظهر اللغوي المحض وهو الوضع والبنية والصورة. أما غير هذا المظهر فليس عنده من اختصاص اللغوي.»[5] وهو بهذا ينفي عن علم اللغة أي مظهر آخر، ويحدد اختصاصات بعض العلوم الأخرى التي تتماس حدود عملها مع علم اللغة وتدخل في إطارها بعض العمليات أو النشاطات المساهمة في الإنجاز اللغوي كعلم الفيزياء والفيزيولوجيا وعلم النفس وغيرها. ثم يحصر مهمة عالم اللغة في تحويل الأصوات المنطوقة إلى نظام متجانس منسق على اعتبار أن الصوت المنطوق يشكل المادة الأولية للغة.

---

[2] ينظر عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:27

[3] المرجع نفسه ،ص: 27

[4] جورج مونان، علم اللغة، ص:19

[5] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:28.

من خلال هذه الأفكار يبدو دي سوسير مدينا لوايتني ببعض المفاهيم اللسانية التي بنى عليها نظريته اللسانية ويؤكد جورج مونان ذلك بقوله:« وسيتعرف كل قارئ درس كتاب سوسور "المحاضرات" على عشرين مقطعا تؤكد الدين الذي اعترف به سوسير علنا اتجاه وايتني.» [1] بالإضافة إلى علماء آخرين تأثروا بوايتني كبلومفيلد ومارتينيه.

اشتهر وايتني بمؤلفين هامين هما:«"اللغة ودراسة اللغة" Language and the study of language " حياة ونمو اللغة "The life and growth of Language" »[2]

وبهذه الأفكار التي أحيا بعضها وايتني وأبدع في بعضها يكون قد أسهم إسهاما عظيما في التأسيس لعلم اللغة في القرن العشرين إذ بنى العلماء على هذه الأفكار نظريات لسانية رائدة.

❖ شارل سندرس بيرس(Charles Sandres Peirce):

ولد هذا الفيلسوف والمنطقي الأمريكي سنة 1839م. وتزامن ظهور بيرس مع إطلاق دي سوسير على علم الإشارات والرموز مصطلح "سيميولوجيا" في حين أطلق عليه بيرس مصطلح "السيميوطيقا".[3] فحاول كل منهما إنشاء علم يدرس حياة العلامات المختلفة. ساهم بيرس في تطوير منطق الرياضيات، كما تحدث عن الدليل اللغوي.[4] حيث وضع ثلاثة تصنيفات للعلامة تقابل اثنين عند دي سوسير.

يمكن القول أن اهتمام سوسير كان« أول الأمر باللغات الهندوأوربية وخاصة السنسكريتية إلى جانب اللغة والأدب الألمانيين متأثرا بثلاثة علماء: وايتني(1827م-1894م) العالم السنسكريتي الأمريكي ومطالعة سوسير لكتابه كان لاستجلاء تلك المفاهيم الصارخة في علم اللغة الحديث، كالوظيفة اللغوية للإشارة (العلامة)، التمييز بين اللغة الشفهية والأشكال الأخرى للتفاهم، التحليل اللغوي ونوعيته... أما إبراز وايتني لمفهوم القانون اللغوي والنظام اللغوي والبنية اللغوية أدى بسوسير إلى تفكير في وضع اللسانيات السانكرونية (الآنية)(...). يتأثر ببودوان دي كورتناي(B.Decortney 1845م-1929م) ليستخلص الوحدات اللسانية، ويتصور اللغة

---

[1] جورج مونان، علم اللغة، ص:22.

[2] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:88.

[3] ينظر عبد الجليل مرتاض، دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث، منشورات ثالة، الجزائر، 2005، ص:14 ، 15.

[4] ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:88.

كنظام من الاختلافات ثم ينشئ علم العلامات أو الرموز (Sémiologie) بأخذه عن بيرس (Peirce) نظريته في الدليل اللغوي.» [1]

ودي سوسير وإن تأثر بهؤلاء العلماء فهو قد نال فضل السبق إلى المعالجة العلمية والتحديد المنهجي والدقة والوضوح في دراسة اللغة بذاتها ولذاتها وبهذا يظل الأب الروحي لعلم اللغة الحديث.

وقبل الحديث عن الثنائيات السوسيرية لابد من الإشارة ولو سريعا إلى ذلك المؤلف الذي ضم خلاصة أفكار دي سوسير وهو كتابه "دروس في الألسنية العامة" (Cors de linguistique générale) حيث قام تلميذان من تلاميذ دي سوسير بجمعه من خلال المحاضرات التي قدمها الأستاذ. كما اعتمدا على جمع المخطوطات التي تركها دي سوسير لكنها لم تكن كافية وشاملة لكل المحاضرات فعمدا إلى جمع الكراريس الكاملة التي كتبها الطلاب الثمانية« كاي وغوتييه وروغا وريد لينجر فيما يتعلق بأول محاضرتين، وديغالييه والسيدة سيشيهي وجوزيف بالنسبة للمحاضرة الثالثة وبروشت بالنسبة لمسألة خاصة بالإضافة إلى الأمليات القديمة.» [2] ولقي هذا المؤلف الذي نشر عام 1916م اهتماما كبيرا، فتحدث عنه عدد من اللغويين كميي وغرامون وجسبرسن وبلومفيلد وبنفنيست...[3] وإن انتقدوه أكثر مما وافقوه ذلك أنهم اعتمدوا في تقييم هذا الكتاب على أفكار ذلك العصر كالدراسة المقارنة والدراسة التاريخية للغة، هذه النظرة التي كانت تسيطر على حقل الدراسات اللغوية. غير إن هذا الكتاب الذي لم يلق قبولا في بداية ظهوره قد صار مرجعا أساسيا لعلم اللغة الحديث فيما بعد.« وكان من حظ هذه النظرية أخيرا بل من حظ العلم أن انتبه عالمان من كبار العلماء في اللسانيات إلى ذلك الجانب الإيجابي بإدراكهما لمفاهيمها في داخل نظامها (كما يجب) كما تفطن إلى أبعادها الحقيقية ومستتبعاتها في ترقية العلوم الإنسانية وذانك العالمان هما الروسيان: الأمير نيكولا تروبتسكوي (Trubetzkoy 1890-1938) ورومان ياكبسون (Jakobson 1896). وكان قد وصل إلى موسكو في عام 1917م أحد طلبة سوسور يسمى كارسفسكي (S.Kaceviski) واطلع

---

[1] ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2005، ص:47

[2] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:56

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:51.

اللغويون الشبان الروسيين على نظرية أستاذه فتحمسوا لها لأنها جاءت في الوقت المناسب أي في الوقت الذي

وبهذا فالفضل يعود إلى هؤلاء العلماء في انتشار أفكار سوسير إذ لفتوا أنظار اللغويين إليه.

وضم هذا الكتاب ملاحظات وأفكار سجلها بعض طلبته، فهو يحتوي على كثير من أفكار أستاذهم التي صاغها تلاميذه وربما أضاف إليها بالي وسيشهاي استنتاجاتهما الخاصة وهذا ما جعل هذا الكتاب محل نقاش في أوربا إلى اليوم.[1]

ويضم كتاب دي سوسير مقدمة وخمس أقسام، تناول في المقدمة لمحة عن تاريخ الألسنية، وحدد موضوع الألسنية وصلتها بعلم النفس وعلم الاجتماع والفيزيولوجيا والإثنوغرافيا. وحدد منزلة اللغة بين الظواهر البشرية.

وفرق بين المنطوق والمكتوب، كما تحدث عن الفونولوجيا وحدد الصوتم وعمل جهاز التصويت. وحاول ضبط حدود المقطع.

تضمن القسم الأول من الكتاب المبادئ العامة للسانيات كطبيعة الدليل اللغوي واعتباطيته وصفته الخطية وعالج مسألة التحول واللاتحول في الدليل اللغوي في إطار المجتمع، وانتهى إلى دراسة اللغة وفقا لثنائية الآنية والزمانية والفرق بينهما.

وعنون القسم الثاني بالألسنية الآنية، فحاول ضبط الكيان اللغوي ومفهوم اللغة والقيمة اللغوية وميز في حديثه عن الوحدات اللغوية بين العلاقات السياقية التي يفرضها توالي الكلمات في سياق معين. والعلاقات الترابطية التي تنتج عن الربط بين عناصرها ذهنيا وانتهى في هذا القسم إلى دراسة النحو الذي يهتم« بدراسة اللغة من حيث هي نظام متكون من وسائل التعبير.» [2] كما أسس تقسيما منطقيا يعتمد على العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية.

أما القسم الثالث فتناول فيه الألسنية الزمانية بالاعتماد على علم الصوتيات وقواعده المنهجية والتغيرات الصوتية وربطها بالإيتيمولوجيا العامة التي تتعلق بالكلمات النادرة أو الفنية أو

---

[1] ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:93.

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:201.

الأجنبية والتي يعرفها بأنها « مجرد تطبيق خاص للمبادئ المتعلقة بالظواهر الآنية والزمانية. فهي تتمثل في الرجوع إلى ماضي الكلمات قصد العثور على ما يفسرها.» [3]

وعنون القسم الرابع بالألسنية الجغرافية، فتحدث عن تنوع اللغات وتعايشها في أرض واحدة وأثر الزمان في هذا التنوع وتطرق إلى اللهجات وتحولها والأسباب الفاعلة فيها.

وفي القسم الأخير يتحدث دي سوسير عن الألسنية الاستردادية ويقصد بها « التاريخية المتجهة نحو الأقدم».[1]حيث بين إتجاهات الألسنية الزمانية وعالج قضية النموذج الأصلي لأقدم اللغات وكيفيات إعادة البناء اللغوي والغاية المرجوة منه وخلص إلى الحديث عن فصائل اللغات والأنماط اللغوية.

دي سوسير والدرس اللساني:

تعتبر محاضرات دي سوسير التي جمعها ونشرها بالي وسيشهاي منعطفا حاسما وفاتحة عهد جديد في الدرس اللساني الحديث خاصة والعلوم الإنسانية عامة ذلك أنه أرسى الأسس المنهجية التي قامت عليها الاتجاهات اللسانية بعده. وقد افتتح هذه الدروس بلمحة عن تاريخ هذا العلم ثم حدد بدقة موضوع الألسنية ومهمتها قبل أن يشرح مفاهيمه الثنائية.

1.مراحل الدراسة اللغوية:

مرت الدراسة اللغوية بثلاثة أطوار قبل أن تصبح علما قائما بذاته محدد المعالم من الموضوع إلى المنهج إلى المفاهيم الأساسية. وهذه الأطوار هي:

- **الطور الأول:**

واهتم أهل اللغة في هذا الطور بدراسة النحو أي (Grammaire) « وقد كان هذا النوع من الدراسة قد شرع فيه اليونانيون وتواصل على يد الدارسين الفرنسيين قائما على المنطق.» [2] إذ اهتم اليونانيون بدراسة نحو لغتهم في محاولة التقريب بين اللغة والمنطق و« الصفة الغالبة على النحو اليوناني في الكشف عن قواعد تميز صواب الكلام من خطئه ثم فرض هذه القواعد، فالنحو

---

[3] المرجع نفسه، ص:283.

[1] أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص:18.

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:17.

اليوناني بهذا الاعتبار نحو تقعيدي تعليمي.» [3] وبالتركيز على معرفة صحيح الكلام من خطئه خلت هذه الدراسات من نظرة علمية تدرس اللغة في ذاتها.

♦ **الطور الثاني:**

وظهرت فيه الفيلولوجيا أو فقه اللغة(Philology) والتي تقترن بظهور تلك الحركة العلمية التي أنشأها فريديريك أوجست ولف سنة 1777م و« موضوع فقه اللغة Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط، ولكن يجمع إلى ذلك دراسات تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الأدبي للغات موضوع الدراسة.» [4] وبهذا فقد اهتم أصحابها بتوثيق النصوص وضبطها وتأويلها والتعليق عليها مما أدى بالعلماء المشتغلين بها إلى الاهتمام بتاريخ الأدب والأخلاق والمؤسسات.[1] واعتمدت هذه الدراسات على منهج نقدي إذ درست المسائل اللغوية للمقارنة بين النصوص من عهود مختلفة أو لإزالة الإبهام عن المخطوطات والنصوص القديمة. وبهذا مهدت الدراسات الفيلولوجية – والتي اهتمت باللغة المكتوبة ولاسيما في العصور اليونانية واللاتينية القديمة– السبيل لظهور علم اللغة التاريخي.[2]

♦ **الطور الثالث:**

وبدأ هذا التطور باكتشاف العلماء لإمكانية مقارنة اللغات فيما بينها وهذا ما مثل منطلقا للفيلولوجيا المقارنة« ففي سنة 1816م أصدر فرانتز بوب Franz Bopp كتابا أسماه "نظام التصريف في اللغة السنسكريتية" درس فيه العلاقات التي تربط هذه اللغة بالجرمانية واليونانية واللاتينية. » [3] وإن كان قد سبقه إلى هذا الاكتشاف علماء آخرون ومنهم وليام جونس الذي أعلن سنة 1786م أن السنسكريتية واليونانية واللاتينية تنسب إلى لغة أو أسرة واحدة[4] ،وبهذا وجه اهتمام علماء اللغة إلى الدراسة المقارنة للغات. وازدهرت بذلك الدراسات المقارنة بفضل جهود كثير من علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فأصبحت باريس مركز هذه الدراسات

---

[3] محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص:260.

[4] ماريو باي، أسس علم اللغة، ص:35.

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:17، 18.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:18.

[3] المرجع نفسه، ص:18.

[4] ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:81.

ووفد عليها علماء من ألمانيا وإنجلترا. فشهدت هذه الدراسة تطورا هائلا على مدى أكثر من قرن بفضل جهود علماء كبار من أمثال: بوب الذي يعد من مؤسسي علم اللغة المقارن وغريم وراسك وشلايشر وفريدريك فون شليجل وماكس مولر وجورج كورتيوس وغيرهم. بالإضافة إلى علم اللغة التاريخي الذي ظل مسيطرا على حقل الدراسات اللغوية حتى مطلع القرن العشرين والذي قدم لعلماء اللغة مناهج علمية ساهمت في إعادة بناء بعض اللغات إلى أن ظهرت الإرهاصات الأولى للدراسة الوصفية للغة ثم تأسست هذه الدراسة وترسخت مع ظهور محاضرات دي سوسير لتشهد تطورا كبيرا مع ظهور المدارس اللسانية وبفضل جهود علماء القرن العشرين.

2. موضوع اللسانيات:

لقد تساءل دي سوسير في كتابه عن موضوع اللسانيات وهذا في إطار ضبطه المنهجي للدراسة العلمية للغة ليصل بعد بحث وتحليل إلى تحديد موضوع هذا العلم « إن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنما هو اللغة في ذاتها ولذاتها» [1] هذا يعني أنه يحدد موضوع اللسانيات بدراسة اللغة كنظام نحوي موجود بالقوة في كل دماغ بالإضافة إلى الكلام كأداء فعلي لهذا النظام وبهذا توصل دي سوسير إلى وضع ثنائية قابل فيها بين اللغة والكلام. واعتبر« اللغة موضوعا كليا للسانيات ينطلق منه منهج الدراسة من الوهلة الأولى ويتخذه معيارا للظواهر اللغوية جميعها، وأبعد الكلام من جوهر الدرس اللساني واعتبره تابعا للغة ليس غاية لعلم اللسان في ذاته، لكنه ظل يعتقد أن دراسة ظواهره ضرورية لدراسة اللغة بوصفه أداة هذه الدراسة ووسيلتها التي تتحقق بها شروط المنهج العلمي.» [2] يبدو لي أن دي سوسير قد حصر موضوع هذا العلم في دراسة اللغة أما دراسة الكلام بظواهره الفيزيولوجية والصوتية والنفسية والاجتماعية والجغرافية فهي – وإن كانت ضرورية– عبارة عن وسيلة مساعدة لدراسة اللغة ولاحقة بها.

3. مادة الألسنية ومهمتها:

قبل أن يفصّل دي سوسير مفاهيمه الثنائية التي قامت عليها نظريته اللسانية حدد سلفا مادة الألسنية إذ جعلها تضم جميع« مظاهر الكلام البشري سواء تعلق الأمر بكلام الشعوب المتوحشة أو الأمم المتحضرة، في العصور العتيقة أو الكلاسيكية أو في عصور الانحطاط، والمعتبر في كل عصر

---

[1] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:347.

[2] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:30،31.

من هذه العصور ليس الكلام الصحيح و"الكلام الأدبي" فقط، ولكن جميع أشكال التعبير.» [3] ويضيف أنه لابد للألسني من التركيز على النصوص المكتوبة لأنها تفتح المجال أمامه لمعرفة الألسن القديمة.[4] وهذا يعني أن مادة علم اللسان تحوي كل ما يتعلق باللسان البشري وعبر مختلف المراحل الزمنية مع الاعتماد على النصوص المكتوبة.

كما أنه ضبط مهمة الألسنية وعمل الألسني في ثلاث نقاط:[5]

* تقديم وصف لجميع اللغات وتاريخها مع وضع الفصائل اللغوية وإعادة بناء اللغات الأم لكل فصيلة منها.

* البحث عن القوى الكامنة في جميع اللغات، والعاملة فيها باستمرار واستخلاص القوانين العامة التي تتحكم في كل ظواهر تاريخ اللغات.

* تحديد موضوع الألسنية والتعريف بماهيتها.

جدلية الثنائية عند دي سوسير:

لقد تجلت آراء دي سوسير اللغوية في تلك المفاهيم الثنائية التي شكلت تأسيسا منهجيا جديدا لعلم اللغة الحديث. حتى غدا هذا التصنيف الثنائي للمفاهيم السوسيرية مرجعا لكثير من الإتجاهات والمدارس اللسانية التي تأسست بعد دي سوسير وعليها قامت اللسانيات البنيوية. وأعطى هذا التقسيم الدراسات اللغوية في هذه الفترة نوعا من التنظيم والدراسة العلمية والضبط المنهجي والدقة العلمية في تناول الظواهر اللغوية.

ويظهر أن دي سوسير قد استمد تقسيمه الثنائي من تأثره بالفلسفة اليونانية وينسب جورج مونان المفاهيم الثنائية السوسيرية إلى هوس التقسيم لدى سوسير فيقول: « وإذا كان سوسير مهووسا حقا فقد وعى تماما هذا الهوس. إذ كتب يقول: "تقسم اللغة إلى خمس وست ثنائيات أو أزواج من القضايا". » [1]

---

[3] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:24.

[4] المرجع نفسه، ص:24.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:24.

[1] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:49.

وتحدث دي سوسير نفسه عن تقسيم الظواهر اللغوية إلى ثنائيات فقال:« إن الظاهرة اللغوية تمثل على الدوام وجهين يتطابقان، وليس لأحدهما قيمة إلا يالآخر.» [2] وهذا يدل على أن الرجل توصل إلى هذا التقسيم الثنائي بعد دراسة وتأمل عميق في الظواهر اللغوية وتصور شامل لها. و« أشار ياكبسون إلى أن سوسير هو أهم من كشف القناع عن التناقضات اللغوية » [3] وفي الواقع فإن أطراف هذه الثنائية لا توجد مستقلة عن بعضها البعض وإنما هي من قبيل التجريد العلمي وهي ليست من طبيعة الأشياء. وجاءت وفقا لنظرة دي سوسير للغة.[4] ولعله يقصد بها التلازم التام بين طرفي ثنائية.

وتبدو هذه الثنائية مترابطة متماسكة ذلك أنها نابعة من صلب الظاهرة اللسانية وتجمع بينها علاقة عضوية متينة. فاللغة هي نظام تام من الوحدات يقوم على مبدأ التواضع وهو آني، متحول وذو بعد تاريخي، وهذه الوحدات اللغوية لها وجهين دال ومدلول ونظرا لهذا الارتباط بينهما فإنه لا قيمة لأحد هذه المفاهيم إلا بالآخر.[5]

أما عن العلاقة بين طرفي هذه الثنائيات فتبدو علاقة تقابل بين الدال والمدلول والشكل والمادة والعلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية إذ يقابل كل وجه الوجه الثاني كوجهي الورقة ولابد لكل واحد منهما من الآخر إذا لا تكتمل الصورة إلا بالطرفين معا. في حين أن العلاقة بين الآني والزماني علاقة تتابع وتكامل إذ يتقدم الآني على الزماني كما لابد من الدراسة الوصفية قبل أي دراسة تاريخية للظاهرة اللغوية، فدراسة أي تطور للغة عبر مراحل زمنية لابد أن تسبقها دراسة وصفية لكل مراحل من مراحل هذا التطور.

مفاهيم دي سوسير اللسانية (الثنائية):

لقد تميز دي سوسير كعالم لغوي عن سابقيه من علماء اللغة بنظرته الجديدة للغة كعلم قائم بذاته إذ حرص على وضع منهج علمي ومفاهيم أساسية مميزة لهذا الحقل من الدراسة. فبعد أن حدد موضوعه بدقة ومهمة العالم المشتغل به وعلاقة هذا العلم بالعلوم الأخرى التي تشترك معه في

---

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:28.

[3] عبد القادر مهيري وآخرون ،أهم المدارس اللسانية ،منشورات المعهد القومي لعلوم التربية ،تونس ،ط2، 1990م ،ص:24 .

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:25.

[5] ينظر المرجع نفسه، ص:26.

دراسة بعض الظواهر الإنسانية، بدأ بتأسيس وإرساء الدعائم المنهجية التي قام عليها فيما بعد علم اللغة الحديث، فافترض دي سوسير « في المنطلق استبعاد الأشياء الخارجية عن بنيتها أو نظامها (اللغة) أي ما يدعى بعلم اللغة الخارجي أو خارج اللغة. إذ ما هو داخل غير ما هو خارج عنها. يمكننا بهذه الخاصية دراسة العوامل التي أنشأت لغة الأدب مثلا دون العناية بدراسة بنية هذه اللغة وقواعدها، كما يستدل "سوسير" بلعبة الشطرنج، إذ يعتبر انتقالها من بلاد لأخرى والمادة المصنوعة منها أمورا خارجية غير وحدات اللغة وقواعدها أو نظامها التي تعتبر حقائق داخلية، إذ كل ما يغير النظام بأي طريقة شيء داخلي.» [1] يفهم من هذا أن دي سوسير يفصل بين العناصر الداخلية للغة وبين العوامل الخارجية أو ما يسميه اللسانيات الخارجية وهي كل ما هو خارج عن بنية اللغة وقواعدها غير إنه لا ينكر تأثير هذه العوامل على اللغة كالاستعمار مثلا.

وبعد هذا الفصل بين ما هو داخلي في اللغة وما هو خارج عنها يفصِّل دي سوسير القول في تلك المفاهيم الثنائية التي شكلت محاور نظريته اللسانية والتي جعلها محور اهتمام عالم اللغة إذ عليه البحث عنها ومعرفة حقيقتها والكشف عن العلاقات التي تحدد طبيعتها وتركيبها، ثم تفسيرها للوصول إلى دراسة علمية للغة في ذاتها ولذاتها.

1) اللغة والكلام:

توصل دي سوسير إلى استخلاص هذه الثنائية انطلاقا من محاولته للإجابة عن السؤال ما موضوع البحث اللغوي؟ إذ فرق بين ثلاث مصطلحات أساسية قام عليها الدرس اللساني الحديث وهي: اللسان،اللغة،الكلام. و« يعد هذا التحديد إنجازا جديدا وعملاقا في البحث اللساني الحديث.» [1]

*** اللسان:**

وهو ذلك« النظام التواصلي الذي يمتلكه كل فرد متكلم. مستمع مثالي ينتمي إلى مجتمع لغوي له خصوصيات ثقافية وحضارية معينة.» [2] فهو عبارة عن لغة معينة كاللسان العربي مثلا إذ يمتلكه كل فرد ينتمي إلى المجتمع العربي بقيمه الثقافية والحضارية وبهذا المعنى فاللسان« جزء معين متحقق من اللغة بمعناها الإنساني الواسع وهو اجتماعي وعرفي ومكتسب ويشكل نظاما متعارفا

---

[1] ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص:43.

[1] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:97.

[2] أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص:37.

عليه داخل جماعة إنسانية محددة.» [3] فيكون بهذا واقعة اجتماعية تجمع اللغة والعادات اللغوية أو ما يعرف بالكلام والتي يمارسها أفراد المجتمع. وللسان عدة جوانب: فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية مما يجعله صعب التصنيف ضمن الوقائع البشرية على عكس اللغة التي يمكن تصنيفها ضمن هذه الوقائع باعتبارها جزء من السيميولوجيا. ويمكن القول بأن اللسان ظاهرة طبيعية عامة تضم اللغة والكلام.

* **اللغة:**

يقول دي سوسير:« إن اللغة والكلام ليسا بشيء واحد.» [4] وهذا يعني أنه يفصل بينهما ويجعلهما طرفين لإحدى ثنائياته اللسانية. واللغة عنده« كتر مودع عن طريق ممارسة اللفظ لدى جماعة من الأشخاص المنتمين إلى مجموعة واحدة وهو نظام نحوي يوجد بالقوة في كل دماغ أو على نحو أدق في أدمغة مجموعة من الأفراد. وذلك لأن اللغة ليست تامة في دماغ واحد منها بمفرده ولا يوجد لها على الوجه الأكمل إلا عند الجمهور.» [5] وهذا ما يدل على أن اللغة ظاهرة أو مؤسسة اجتماعية خارجة عن وعي الفرد، تتكون من وحدات وقواعد تتناسق في نظام وتخص مجموعة من المتكلمين.

واللغة بوصفها ظاهرة إنسانية اجتماعية ترتبط بالمتكلمين فلابد من دراسة علاقتها بالجانب النفسي في الإنسان ذلك أنها« نظام أو مجموعة من القواعد والمعايير المستقرة بصورة تجريدية في ذهن الجماعة أو في المعاجم وكتب اللغة والنحو.» [6] وبهذا فاللغة هي النسق المشترك بين مجموع المتكلمين والذي يستخدمونه لاشعوريا في عملية التواصل، فيمكن القول إنها ملكة إنسانية تتجلى في القدرة على التخاطب باستخدام ذلك الرصيد من العلامات والقواعد التي تنتقل من جيل لآخر.

وينظر دي سوسير إلى اللغة من جهة أخرى على أنها شكل وليست مادة.[1] فتتمثل في ذلك الشكل الذي تنتظم وفقه الأصوات والأفكار أو المتصورات وليست تلك الأصوات والأفكار في

---

[3] أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص:18.

[4] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:29.

[5] المرجع نفسه، ص:34

[6] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:55.

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:185.

حد ذاتها و« اللغة تنطوي بالضرورة على مجموعة من العناصر ولكن هذه العناصر نفسها تفترض "نظاما" أو "نسقا" يجعل منها صورة (Forme)، لا جوهرا (Substence).» [2]

ويخلص سوسير في حديثه عن اللغة إلى تصنيفها بين مختلف الوقائع البشرية فيقول:« إن اللغة نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار، وهي في هذه شبيهة بالكتابة وبألفبائية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالإشارات الحربية وغيرها. إلا أن اللغة أهم هذه الأنظمة جميعها.» [3]وأدى به هذا إلى اعتبار اللغة موضوع اللسانيات كجزء من علم السيميولوجيا. من خلال هذا التعريف يمكن أن أستنتج أن دي سوسير يؤكد على ثلاثة مفاهيم:

- ❖ نظامية اللغة إذ إنها نظام له قواعده الخاصة،وتدرس وحداته في علاقاتها مع بعضها داخل هذا النظام نفسه.وبهذا يكون دي سوسير أول من تفطن إلى أن اللغة نظام مغلق له قواعده الخاصة به.
- ❖ الدليل يتألف من دال ومدلول ويستمد قيمته الدلالية من النظام وعلاقاته بالدلائل الأخرى.
- ❖ يميز دي سوسير اللغة عن باقي الأنظمة الأخرى إذ إنها وسيلة التواصل الأساسية بين أفراد المجتمع.

أظن أن دي سوسير في سعيه لدراسة اللغة بذاتها ولذاتها حاول فصلها عن تاريخها ليدرسها بمنهج وصفي آني وإن كان لا ينكر أهمية الدراسة التاريخية، لكنه يقدم الدراسة الوصفية ويفضلها على الدراسة الزمانية.

*** الكلام:**

.ويقصد به ذلك النشاط الفردي الخاضع لإرادة الأشخاص ،والمتمثل في « التحقيق العيني لهذه القواعد والمعايير بصورة مادية.» [4] فهو الإنجاز الفعلي للغة في الواقع من خلال عبارات ينطقها الأفراد و لذا يمكن مراقبته مباشرة.

وهذا التحقيق العيني للغة عمل فردي يتنوع بتنوع الأفراد، فهو سلوك فردي ينجزه كل متكلم بطريقته الخاصة، وعلى حد تعبير جورج مونان فالكلام يعني« تلك الحادثة الفردية وذلك

---

[2] نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، ص:78.

[3] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:37.

[4] كريم زكي حسام الدين ،اصول تراتية في علم اللغة ،ص:55

الإنجاز الذي يتغير لدى كل متحدث دون تجاوز لحدود الفهم المتبادل» [1] فالكلام إذن سلوك فردي ملموس خاضع لإرادة المتكلمين ولملابسات الزمان والمكان قابل لمراقبته، متغير من فرد لآخر.

ويعتبر سوسير أن الكلام عرضي وثانوي وإن كان لابد من دراسته والمرور عبره للوصول إلى دراسة اللغة، فهو وسيلة ضرورية للكشف عن جانب من المظهر الطبيعي للغة والتي هي جوهر الدراسة اللغوية.

أما الفرق بين اللغة والكلام فيقول عنه دي سوسير: « فإننا إذ نفصل اللغة عن اللفظ نفصل في الآن نفسه: أولا ما هو اجتماعي عما هو فردي، ثانيا، وما هو جوهري عما هو ثانوي وعرضي بدرجة من الدرجات.» [2] فاللغة هي الجوهر الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية،« واللغة بالنسبة إلى المجتمع هي الأداة التي تربط أفراده بعضهم ببعض فيقضون مطالبهم ويوجهون نشاطهم ويدور بها التعامل بينهم ولا يقف الأمر باللغة عند حد التفاهم والإتصال بأفراد المجتمع في الوقت الحاضر بل إنها وسيلة لنقل التراث من الماضي إلى الحاضر ومن الحاضر إلى المستقبل. فهي الجسر الذي تعبر عليه الثقافة عبر الأجيال بالإضافة إلى أنها تحتفظ بالتراث والتقاليد الاجتماعية جيلا بعد جيل إذ أن كل كلمة تحمل في طياتها خبرات بشرية. ولولا لغات الأقدمين لما عرفنا شيئا عن خبراتهم، فاللغة تحفظ التراث، وتنقل الحضارة ولهذا كانت لغات الأمم الحيَّة حيَّة مثلها، ولغات الأمم الميتة ميتة مثلها.» [3] ولماكانت للغة هذه الأدوار الهامة والفاعلة في حياة البشرية حق لها أن تكون جوهر الدراسة العلمية في علم قائم بذاته وهو اللسانيات.

في حين أن الكلام (اللفظ) شيء ثانوي وعرضي لأنه يمثل الجانب الذاتي والاستعمال الشخصي لقواعد اللغة. وهو وإن كان أشمل من اللغة وهي جزء معين منه فيبقى ثانويا لأنه ذلك الإبداع الفردي الخاص والذي يطلعنا على جانب من المظهر الطبيعي للغة.

أما أهم الفروق بين اللغة والكلام فأجملها في النقاط التالية:

- اللغة ظاهرة اجتماعية مقارنة بالكلام كعمل فردي مختلف من شخص لآخر.
- اللغة نظام يضبط الكلام وينظمه ويوجهه، والكلام وسيلة هامة لاكتشاف اللغة.

---

[1] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:50.

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:34.

[3] عبد السلام مسدي، اللسانيات من خلال النصوص، عن محمود أحمد السيد، الدار التونسية للنشر، ط2، د.ت.ن ص:18.

– الكلام مرتبط باللغة إذ إنه الإنجاز الفعلي لها واللغة نسق مشترك يتحقق بالكلام.

– اللغة موجودة في أدمغة الأفراد بالقوة وبالفعل والكلام موجود بالفعل والإنجاز.

– « اللغة تخضع لقدرة تنسيقية تواضعية يكتسبها الدماغ من المجتمع.» [1] أي أن النظام اللغوي والتنسيق بين الوحدات اللغوية يكتسبه الفرد من مجتمعه. أما الكلام فهو « يخضع للآلية النفسية الفيزيائية.» [2] فكل فرد يتكلم حسب جهازه النطقي ودوافعه النفسية لذا فهو يختلف من فرد لآخر.

– « اللغة هي نتاج ينطبع به الفرد، بينما الكلام في المقابل هو عمل إرادي يقوم به الفرد.» [3] وهذا يدل على أن اللغة نتيجة اجتماعية لملكة اللسان فتقتضي وجوده ويتميز بها أفراد مجتمع معين في حين أن الكلام وإن كان نتيجة لملكة اللسان إلا أنه فردي.

– اللغة شكل وليست مادة حسب قول دي سوسير، أما الكلام فيعتمد على المادة الصوتية والصرفية. والكلام يمكن مراقبته مباشرة، أما اللغة فلابد من دراستها بالاعتماد على الكلام كوسيلة مساعدة.

– المقابلة بين اللغة والكلام تعني المقابلة« بين قانون عالمي داخل المجموعة اللسانية مستقل عن المتكلمين به وبين العمل الحر في توخي هذا القانون لدى المتخاطبين.» [4] فاللغة كظاهرة إنسانية مشتركة بين جميع البشر وإن كانت مستقلة عن الفرد الواحد؛ أما الكلام فهو عمل فردي حر يقوم به كل فرد بطريقته الخاصة.

– اللغة« شيء محدد بوضوح يستخلص من مجموعة وقائع الكلام المتناثرة، ويمكن أن نحدد موقعها ضمن دائرة الكلام التي تشمل اللفظ المنطوق وقناة التوصيل الطبيعية والصورة السمعية والتصور الذهني للملتقي فتقع اللغة في الجزء الذي تستدعي فيه صورة سمعية ما تصورا ذهنيا خاصا. وهي لذلك العنصر الاجتماعي للكلام، الخارج عن حدود الفرد. إذ أنه وحده لا يستطيع

---

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:72.

[2] المرجع نفسه، ص:72.

[3] زواوي بغوره، المنهج البنيوي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001م، ص:36.

[4] كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، تعريب: المنصف عاشور، إشراف ومراجعة رابح إسطنبولي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1984م، ص:19.

خلق لغة ولا تعديلها.» [5] فاللغة تواضعية بين أفراد المجتمع، تقوم على نوع من الاتفاق. فلا يمكن لفرد واحد أن يغيرها أو يعدلها بمشيئته. وإن كانت جزء من الكلام، فهي الجزء الذي يخص المجتمع.

– اللغة شفرة أو دليل (code) أو نظام، أما الكلام فهو رسالة(Message). يقول رومان جاكبسون:« إنَّ ثنائية سوسير الداخلية للغة والكلام أو لنستخدم مصطلحات حديثة وأقل غموضا "الشفرة" (شفرة اللغة عند سوسير)، والرسالة.» [1] فالكلام هو تلك الرسائل التي يتبادلها الأفراد لإقامة عملية التواصل. أما اللغة فهي الشفرة أو تلك اللغة التي عادة ما يتعارف عليها المرسل والمرسل إليه لتتم عملية الإتصال. ويرى جاكبسون أنه« من دون مقابلة الشفرة بالرسائل لا يمكن استكناه القوة الإبداعية للغة.» [2] وهذا يدلني على أن الكلام يمثل الجانب الإبداعي والذكي في تحقيق القواعد اللغوية والإنجاز العيني لها.

– اللغة باعتبارها شيئا ذو طبيعة محددة تعدّ الموضوع الوحيد للسانيات، في حين أن الكلام بتعدد جوانبه من طبيعية وعضوية ونفسية فيزيائية تصعب دراسته بدقة وإخضاعه للدراسة العلمية أو اعتباره موضوعا لعلم قائم بذاته. فدراسة اللغة غاية اللسانيات ودراسة الكلام وسيلة للوصول إلى هذه الغاية.

ويبدو أن« هذه الخصائص هي التي جعلت اللغة تمتاز بالطابع اللاشعوري أو اللاواعي، هذا الطابع أو الميزة سيركز عليها التيار البنيوي، بحيث يجعل من اللغة قانونا للتفكير.» [3] ذلك أن مهمة البحث اللساني تتمثل في استخراج عناصر النظام اللغوي وتلك العلاقات والروابط التي تجمع بينها.

وعند علماء العرب نجد تعريف ابن جني للغة الذي يلتقي في عدة نقاط مع تعاريف دي سوسير للغة. فيقول: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم." فابن جني يشير في تعريفه إلى

---

[5] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.ن، ص:26.

[1] رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002م، ص:31.

[2] المرجع نفسه، ص:32.

[3] زواوي بغورة، المنهج البنيوي، ص:36.

فكرة اجتماعية اللغة، ووظيفتها التعبيرية أو التواصلية بين أفراد المجتمع ثم اللغة كمجموعة أصوات. وهي نفس الأفكار التي نجدها عند دي سوسير وعلماء اللغة المحدثين.

ويمكن تلخيص الحدود بين اللغة والكلام في ذلك القول الجامع للدكتور تمام حسان إذ يقول:« الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة، والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام فالذي نقوله أو نكتبه كلام، والذي نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة.» [4]

ويمكنني أن نقول: إن اللغة منظومة اجتماعية فكرية تتجسد في شكل إنتاجات فردية ذاتية متنوعة وإبداعية تسمى بالكلام. ولا شك في ارتباطهما الوثيق فكل واحد منهما يفترض الأخر. والكلام حتى يصبح ملموسا لابد له من اللغة. واللغة لكي تظهر وتتجسد تحتاج إلى الكلام وإن كان أسبق منها فهو دليل على وجودها.

2) الدال والمدلول (العلامة اللسانية):

تعتبر هذه الثنائية من أهم المبادئ التي بنى عليها دي سوسير نظريته اللسانية إذ حاول أن يقدم تعريفا بديلا للعلامة اللسانية بدل التعريف القديم« الذي مفاده أن حد الكلمة هو ذلك الرابط الذي يجمع بين اسم وشيء.» [1] إذ رأى فيه تعريفا بسيطا وسطحيا بعيدا عن الحقيقة. أما التعريف الذي قدمه للعلامة اللسانية فانطلق فيه من فكرة نظامية اللغة حيث يرى أنها نظام من الدلائل أو العلامات أي إنها« نسق عضوي منظم من العلامات.» [2] (Signes) وكل علامة تمثل وحدة أساسية في هذا النظام وبالتالي في عملية التواصل بين أفراد المجتمع.

والعلامة اللغوية – عند دي سوسير – هي إتحاد صورة سمعية (Image acoustique) ومفهوم (Concept) فهي مزدوجة أو ذات وجهين لا ينفصلان. أما الصورة السمعية فهي« الأثر النفسي لهذا الصوت أي الصورة التي تصورها لنا حواسنا، وهي صورة حسية.» [3]

---

[4] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1418هـ- 1998م، ص:32.

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:77.

[2] زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.ن، ص:44.

[3] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:110.

أي ذلك الإدراك النفسي لتتابع الأصوات المكونة للفظ ما. وأما المفهوم فهو الفكرة المقترنة بتلك الصورة.

فالعلامة« هي وحدة النظام، فهي العنصر اللساني الذي يتكون من صورة سمعية (Image acoustique) ومفهوم (Concept) أي الفكرة التي تقترن بالصورة السمعية. فمثلا كلمة: رجل هي علامة لسانية مكونة من صورة سمعية، وهو الإدراك النفسي لتتابع الأصوات(ر-ج-ل)، ومفهوم وهو مجموع السمات الدلالية (حي، ناطق، عاقل، إنسان ذكر، راشد ...)» [4] وهذا يعني أن العلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم بل تصورا بصورة سمعية.

ويشبه تعريف دي سوسير للعلامة اللسانية تصور ابن سينا لدلالة اللفظ« فالعلامة في نظر ابن سينا هي ثنائية المبنى تتكون من مسموع اسم ومعنى، وبهذا التصور يلغي ابن سينا من مفهوم العلامة الواقع الخارجي أو المرجع الذي تحيل إليه.» [5] فمسموع الاسم يقابله مصطلح صورة سمعية عند دي سوسير والمعنى يقابله المفهوم.

ويقترح دي سوسير إستبدال المتصور الذهني بـــ (Signifié) أي مدلول والصورة السمعية أو الأكوستيكية (Signifiant) أي الدال، فيكون مجموعهما الدليل (Signe). وبهذا تكون« العلامة اللغوية ذات طبيعة مركبة، وهي توليفة من الشكل الصوتي الذي يشار به إلى المعنى (وهو الدال Signifiant) والمعنى نفسه (وهو المدلول Signifié).» [1] أي إنها النسق الحاصل من مجموع الدال والمدلول وأما« الدلالة هي مجرد علامة تتحقق من تألف هذين العنصرين، ولهذا يشبه دي سوسير اللغة بورقة ذات وجهين، الوجه الأول فيها هو الدال والظهر هو المدلول، ولا يمكن تمزيق وجه هذه الورقة دون تمزيق ظهرها.» [2] وفي هذا دليل على التحامهما وتلازمهما إذ إن الواحد منهما لا يشكل علامة لغوية وحده.

وقد فضل دي سوسير هذين المصطلحين لأنهما يدلان على المواجهة التي تفصل بينهما أو بينهما وبين مجموعهما.[3] وفي حين« أن "الدال" يندرج تحت "النظام المادي" (لأنه عبارة عن

---

[4] أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص:40.

[5] المرجع نفسه، ص:143.

[1] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:227.

[2] زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص:45.

[3] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:111.

أصوات أو إيماءات أو حركات، أو صور محسوسة...إلخ)، نجد أن "المدلول" يندرج تحت "النظام الذهني" (لأنه يتحدد على مستوى المحتوى أو المضمون كفكرة أو معنى، لا كشيء أو موضوع).» [4]

ففي تصور دي سوسير لمفهوم العلامة بهذا الشكل الثنائي إقصاء واضح للمرجع أو الشيء الذي تحيل إليه في الواقع ويبدو لي أن« إقصاء المرجع من تحليل معني الكلمة هو إقصاء للفكرة أو المدلول لأن الشيء الخارجي هو أساس الفكرة، فهل يمكن أن تنطبع صورة الطاولة في الذهن دون أن توجد في الواقع الخارجي.»[5] إذ لا بد من وجود شيء أو مرجع تحيل إليه العلامة في الواقع.

وقد لقي تصور دي سوسير هذا معارضة شديدة من العالمين أوجدن و ريشارد حيث أشارا إلى ضرورة دراسة العلامة اللغوية من جانبيها، العلاقة بين الكلمات والأفكار من جهة والأشياء المشار إليها أو المرجع من جهة أخرى. وتعرف هذه النظرية بالنظرية الإحالية.[6]

وفي حين أن تصور دي سوسير للعلامة يقوم على مبدأ الثنائية، يبني الفيلسوف الأمريكي شارل سندريس بيرس (Peirce)(1839-1914م) تعريفه للعلامة على«علاقة ثلاثية متراسلة فيما بينها بحيث كل شق منها يغذى الشق الآخر. » [1] تتمثل العلاقة الثلاثية في[2]:- علامة أو إشارة (signe).- موضوعه(Son Objet). – مفسره أو مؤوله(Son interprétant). وهذا يعني أن العلامة أو الإشارة أو الممثل تصبح إحدى العلاقات الثلاثة بالإضافة إلى الموضوع والمؤول، على أن الدليل هو تمثيل شيء ما بالنسبة إلى الشخص الشارح بطريقة توجد نسبة بين الدليل وبين موضوعه.[3]

وفي هذا السياق ميز بيرس بين ثلاثة أنماط من العلامة:

- **الأيقونة(Icône)**:« حيث تشبه العلامة مرجعها.مثل صورة السفينة.» [4] ويدعى هذا النمط التصويري.

---

[4] زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص:44.

[5] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص: 101

[6]ينظر أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص: 45..

[1]عبد الجليل مرتاض، دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث، ص:16.

[2]ينظر المرجع نفسه، ص:16.

[3]ينظر المرجع نفسه، ص:15.

[4]رامان سلدن، النظرية أدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م ص:91.

- **المؤشر** (**Indice**):« حيث تترابط العلامة مع مرجعها برباط يمكن أن يكون رباط السببية،كالدخان من حيث هو علامة على النار.» [5] أي أن العلاقة بين العلامة وموضوعها حقيقي.
- **الرمز** (**Symbole**):« حيث تغدو علاقة العلامة بمرجعها اعتباطية، كما يحدث في اللغة» [6] كالعرض المرضي الذي يشير إلى الإصابة بمرض ما. والكلمة التي تدل على معنى معين بحسب قانون التواضع.

وحدد دي سوسير للعلامة اللسانية خاصيتين أساسيتين تتمثلان في: اعتباطية الدليل وصفة الدال الخطية.

أ) **اعتباطية الدليل اللغوي:**

تبدو العلامة الغوية – في نظر دي سوسير – عبارة عن مركب« مؤلف من الدال المدرك حسيا والمدلول المدرك عقليا. ولقد أدرك سوسير بوضوح أن هذين العنصرين متحدان اتحادا صميميا ويقتضي أحدهما الآخر، بيد أنه بيَّن أن الرباط بين الدال والمدلول هو ربط اعتباطي.» [7] أي أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية. وقد أقر دي سوسير هذه الحقيقة في محاضراته، رغم تصوره للعلاقة الوثيقة بين الدال والمدلول حتى إنه يشبههما بوجهي الورقة، أحدهما الوجه والآخر الظهر، فلا يمكن فصلهما ولا تمزيق أحدهما دون تمزيق الآخر.

ويقصد دي سوسير بفكرة اعتباطية العلامة اللغوية« أن الدال لا توجد بينه وبين مدلوله علاقة معللة و إنما يمثل الدال اختيارا صوتيا جزافيا تواضع عليه أهـــل اللغـــة الواحدة للدلالـــة به على مدلول معين» [1] هذا يعني أن هذه العلاقة ناتجة عن اتفاق وتواضع أفراد المجتمع عليها، ولذا لا يمكن للفرد تعديلها أو تغييرها بمشيئته. ويقدم مثالا كدليل على هذه العلاقة، لفظة أخت، إذ المتصور الذهني لها لا تربطه أية علاقة داخلية طبيعية بتتابع الأصوات التالية: أ–خ–ت (أي الدال) ويمكن استبداله بأي دال آخر.[2] ثم إن اختلاف الدال من لغة إلى أخرى بالنسبة للمتصور الذهني

---

[5] المرجع نفسه، ص:91.

[6] المرجع نفسه، ص:91.

[7] رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص:29.

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 79.

[2] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:112.

الواحد يدل على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، فكلمة أخت في العربية تقابلها في الفرنسية(Sœur) وفي الإنجليزية (Sister)، وفي هذا دليل على أن الرابط بين طرفي العلامة اللسانية عرفي واصطلاحي قائم على الإتفاق بين أهل اللغة. ويؤكد من جهة أخرى أن العلامة تربط بين مفهوم وصورة سمعية وليس بين اسم وشيء.

ويستثني دي سوسير من مبدأ الاعتباطية بعض الرموز التي لا تخلو من رابط طبيعي بين دالها ومدلولها، فالميزان الذي تتخذه المحاكم رمزا للعدالة لا يمكن تعويضه بما اتفق من الأشياء كالعربة.[3]

كما يقر بوجود حالات استثنائية تنتفي فيها اعتباطية الدليل اللغوي ومنها الكلمات المحاكية للصوت مثل: tic-tac/glou-glou والتي يرى أنها قليلة جدا ومحدودة وهي تعبر عن محاكاة تقريبية وبالتالي فهي شبه تواضعية لبعض الأصوات.[4] أما صيغ التعجب ذات الأصل الرمزي فهي قابلة للنقاش جزئيا.[5]

ويشير دي سوسير في موضع آخر من كتابه إلى نوعين من الاعتباطية: اعتباطية مطلقة وأخرى نسبية، فيقول: « إن المبدأ الأساسي المتمثل في اعتباطية الدليل لا يمنعنا من أن نميز في كل لغة من اللغات بين ما هو اعتباطي إطلاقا أي غير مبرر وبين ما اعتباطيته نسبية فقط... فالذي اعتباطيته مطلقة لا يمثل سوى قسم من الدلائل وفي بعض الدلائل الأخرى تتدخل ظاهرة تمكننا من الوقوف على درجات من الاعتباطية متفاوتة، ولكن بدون أن تنتفي بذلك الاعتباطية تماما،فقد يكون الدليل مبررا نسبيا.» [6] ولتوضيح هذا المفهوم يسوق بعض الأمثلة فكلمة "تسعة" غير معللة فهي اعتباطية مطلقا أما كلمة "تسعة عشر" فهي معللة نسبيا إذ توحي لنا بالعنصرين اللذين تتكون منهما « وكذلك الشأن بالنسبة إلى الكلمة الفرنسيةPoirier أي"شجرة الإجاص" التي تذكرنا بالكلمة البسيطةpoire أي إجاصة ... » [1] ويتكرر نفس المعنى بالنسبة لكلمات مثل (Portier) بواب، (Deuxième) الثاني.

---

[3] ينظر المرجع نفسه ، ص:113.

[4] ينظر المرجع نفسه ، ص: 113

[5] ينظر المرجع نفسه ، ص: 114

[6] المرجع نفسه، ص:197.

[1] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:197.

وبالنسبة لكلمة تسعة عشر أو (dix-neuf) فإن مبدأ التعليل فيها لا يظهر إلا من خلال علاقة شقي هذه الكلمة في النظام على المستوى الأفقي أي العلاقة التركيبية بينهما في هذا النظام، إذ لو أخذ كل جزء من هذه الكلمة لوحده لأصبح غير معلل. وهذا يدل على أن كل لغة تشتمل على عناصر اعتباطية مطلقا وأخرى معللة نسبيا.

وقد اعترض اللساني الفرنسي إميل بنفنيست على مبدأ الاعتباطية عند دي سوسير إذ يرى أن العلاقة بين الدال والمدلول تلازمية وضرورية « وبين بانفنيست أنه يحسن أن نقول بأن هذه العلاقة إنما هي ضرورية، إذ هي التي تؤسس العلامة وتؤلفها فمفهوم (المدلول) لفظ Bœuf يماثل حتما في فكرنا المجموعة الصوتية (الدال) Bœuf » [2] وهذا يدل على أن الدال والمدلول منطبعان في الذهن معا. لكن بنفنيست يرى من جهة أخرى أن مفهوم الاعتباطية يظهر في مطابقة علامة معينة وليس غيرها لشيء معين من الواقع.[3] فهو يحتفظ بمبدأ الاعتباطية ولكن يطبقه في الواقع فيجعل العلاقة بين العلامة اللغوية والمرجع الذي تحيل إليه في الواقع اعتباطية تواضعية.

ب) **الصفة الخطية للدال:**

يبدو الدال ذو طبيعة سمعية إذ الكلمة عبارة عن تتابع فونيمات ممتدة في الزمن بحيث يشغل كل فونيم حيزا زمنيا أو مدة زمنية ولو قصيرة جدا، ولذا كان من خصائص الدال – الامتداد في الزمن. – وإمكانية قياس هذا الإمتداد حيث يمثل البعد الواحد خطا.[4] وهذا يعني أن الدوال السمعية لا تتصرف إلا في خط الزمن، إذ « إن الفونيمات عند تكوين الشكل الصوتي للدليل اللغوي تتتالى عبر عنصر الزمن، الواحدة بعد الأخرى ويسمى هذا مبدأ الخطية.» [5] (L'inéarité) فعناصر الدال الواحد تتتابع في خط واحد مشكلة بذلك سلسلة« أي أنه لا يمكن أن نضع في نفس الموقع صوتين مثل: أكل،فلا يمكن أن نضع أ و ك في نفس الموقع وكذلك تتسلسل الحروف خطيا.» [6] فصفة الخطية في الدال يمكن
أن تظهر بصورة أوضح عند ترجمتها بعملية الكتابة.

---

[2] كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادىء في قضايا اللسانيات المعاصرة ، ص: 22 .

[3] ينظر المرجع نفسه ، ص: 22.

[4] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:114.

[5] مصطفى حركات، اللسانيات العامة، دار الأفاق، د.ت.ن، ص:18.

[6] نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، ص:74.

أما بالنسبة لظاهرة النبر في اللغة فإن« النبر على مقطع صوتي في كلمة لا يوحي بعناصر دلالية مختلفة، بل المقطع المنبور ونبرته فوقه لا يشكلان إلا فعلا نطقيا واحدا.» [1] فالنبر في الكلمة لا يمثل عنصرا دلاليا جديدا، ولعل هذا سبب تسمية النبر والتنغيم والمد فونيمات فوق مقطعية لأنها ليست مقطعا مستقلا داخل السلسلة الصوتية وإنما تأتي مرافقة للمقطع المنبور.

ثبوت العلامة وتغيرها:

يبدو وصف دي سوسير للعلامة بالثبوت والتغير في آن واحد ضربا من التناقض لكنه أراد بهذا أن يوضح ذلك الإرتباط القائم بين هذين الوجهين للعلامة اللغوية« فالدليل قابل للتحول لأنه متواصل [في الزمن]. وما يسود في كل عملية تغير هو بقاء المادة القديمة ودوامها. فعدم مطابقة اللغة لصورتها الماضية لا يكون إلا أمرا نسبيا. وهذا ما يفسر لنا كيف أن مبدأ التغير يقوم على مبدأ الاستمرارية.» [2] وهذا يعني أن اللغة تتغير تدريجيا مع الزمن ومع هذا فإن العلامات اللغوية تترع إلى الثبوت.

ويحدد دي سوسير عوامل عديدة تعمل على منع التغير اللغوي، فاللغة – كما هو معروف – تمثل إرثا تتناقله الأجيال وترثه عن الأجداد فهي ضاربة في أعماق التاريخ لذا يستبعد حصول تغيير سريع ومفاجئ فيها، لأن الأجيال تتقبلها كموروث من الأسلاف وهي لهذا محط اهتمام أفراد المجتمع لأنهم يتواصلون بها يوميا وتعتبر جزء مهما وأساسيا في الحياة الاجتماعية. وبما أن حياة الأفراد تتميز بنوع من الجمود فبالضرورة تتميز اللغة بنوع من الجمود فهي ليست حرة في تطورها، كما أن تعلم اللغة الأم بالنسبة للطفل وتناقلها عبر الأجيال سبب آخر لثبوت اللغة. وارتباط اللغة بعوامل تاريخية عامل آخر يفسر مقاومة اللغة للتبدل. وإضافة إلى هذا فإن اللغة كنظام تبدو معقدة ولا يمكن إدراكه إلا بإعمال الفكر، والتغيير أيضا يتطلب إعمال الفكر، وهذا ما لا يتمكن منه أغلب الجمهور، ولا بد له من جهود النحاة والمناطقة، ولذا فإن عملية التغيير تبدو صعبةإن لم تكن فاشلة.[3] وارتباط اللغة بالماضي يجعل من تغييرها أو حرية الاختيار فيها أمرا فاشلا وعلى الأقل حتى الآن.

---

[1] عبد الجليل مرتاض، مفاهيم لسانية دي سوسورية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص:20.

[2] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:120.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:118.

ويصر دي سوسير على مبدأ الاعتباطية انطلاقا من تقديمه للبراهين المانعة للتغير اللغوي، ليصل إلى أن اتباع أهل اللغة للموروث دليل على اعتباطية الدليل اللغوي ويؤكد على الارتباط الوثيق والمتبادل بين
الإرث اللغوي واعتباطية الدليل.[1]

أما بالنسبة للوجه الثاني لهذه الظاهرة وهو تبدل العلامة أو تغيرها فيمس المفردات ومعانيها وغالبا ما يؤدي إلى نوع من التغير في العلاقة بين الدال والمدلول. ويقدم أمثلة على هذا ببعض الكلمات، ومن ذلك الكلمة اللاتينية (necāre) ومعناها "قتل" تغيرت إلى(noyer)في اللغة الفرنسية بمعنى "أغرق"[2] فمس التغيير في هذه الحالة الدال والمدلول وبالتالي العلاقة بينهما.

ويقول دي سوسير« واللغة عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من العوامل التي تزحزح حينا فحينا علاقة الدال بالمدلول. وهذه إحدى نتائج اعتباطية الدليل.» [3] ومهما كانت العوامل المسببة للتغير اللغوي فإنها دائما تؤدي إلى تغير وتزحزح في علاقة الدال بمدلوله. ولما كان الدليل اللغوي اعتباطيا أدى ذلك إلى التغير في العلاقة بين طرفيه.

وتتعدد عوامل التغير اللغوي بين الزمانية والمكانية (الجغرافية) والنفسية والحضارية لكن دي سوسير يعرض عن التفصيل فيها لأنه لم يتمكن من تمييزها عن بعضها بعد.[4] ويخلص في نهاية هذه المسألة إلى التأكيد على دور كل من عامل الزمن ودور الجماعة اللغوية في عملية استمرارية اللغة وتغيرها، على أن الاستمرارية تقتضي تزحزحا في العلاقة بين الدال والمدلول في العلامة اللسانية.

القيمة اللغوية:

اللغة في نظر دي سوسير ليست سوى نظام من القيم المجردة لها عنصرين: الأفكار والأصوات، إذ يرى أن اللغة« هي فكر منتظم في صلب المادة الصوتية.» [5] لكن كلا العنصرين غامض وغير

---

[1] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:120.

[2] المرجع نفسه، ص:121.

[3] المرجع نفسه، ص:122.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:123.

[5] المرجع نفسه، ص:172.

محدد والناتج عن اتحاد هذين العنصرين المبهمين هو العلامات اللغوية وهذا ما جعل دي سوسير يستنتج أن اللغة شكل وليس مادة.[6]

وترتبط قيمة كلمة ما بمدى قدرتها على تمثيل فكر ما وهي بهذا المعنى عنصر من عناصر الدلالة إذ« الدلالة الناجمة عن علاقة أحد الجانبين بصاحبه ليست إلا الجانب المعاكس للصورة السمعية.»[7] بمعنى أن الدلالة هي العلاقة الرابطة بين الدال ومدلوله.

والقيمة اللسانية للكلمة تظهر من تواجد عناصر أخرى في علاقة أفقية معها أي من محيطها، إذ لا بد من وجود عناصر أخرى تدخل معها في علاقات لتحدد قيمة الكلمة. وهذا ناتج عن كون اللغة نظام من « العلاقات يرتبط بعضها ببعض على نحو تكون فيه قيم كل علامة مشروطة على جهة التبادل بقيم العلامات الأخرى، فاللغة مؤسسة على التعارضات Oppositions.» [1] وفي هذا دليل على ارتباط قيم العلامات اللسانية ببعضها البعض.

يقوم مفهوم القيمة على وجود عنصرين، وحتى خارج مجال اللغة:[2]

- شيء مختلف يمكن تعويضه مقابل الشيء الذي يراد تحديد قيمته.
- مجموعة أشياء متماثلة يمكن مقارنتها بالشيء المراد تحديد قيمته.

ولعل دي سوسير استمد مفهوم القيمة من علم الاقتصاد، إذ نجده يبرهن على مفهومها بدليل اقتصادي متعلق بالنقد. فلتحديد قيمة قطعة نقدية ذات خمس فرنكات لابد من وجود عنصرين:

– **الأول**: شيء مختلف يمكن استبدال هذه القطعة به كالخبز مثلا.

– **أما الثاني**: فيتمثل في إمكانية مقارنة هذه القطعة بقطعة نقدية أخرى (أي من نفس نظامها) من الدولار أو الدينار أو الريال.[3] ونفس الشيء ينطبق على كلمات اللغة إذ يمكن استبدال كلمة ما بشيء مختلف عنها كالفكرة مثلا، ويمكن مقارنتها بشيء مماثل لها أي كلمة أخرى مقابلة لها، وبهذا تكتسب الكلمة دلالة وقيمة.

---

[6] ينظر المرجع نفسه، ص:185.

[7] عبد الجليل مرتاض، مفاهيم لسانية دي سوسورية، ص:29

[1] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:226.

[2] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:176.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:177.

ويقدم دي سوسير أمثلة على هذا المفهوم منها« كلمة (Mouton)(خروف) في اللغة الفرنسية لها مدلول الكلمة الإنجليزية (sheep) إلا أنها ليست لها القيمة نفسها ذلك أن العربية مثلا تفرق بين لحم الخروف والخروف نفسه أي الحيوان فيقال اللحم والخروف وهو ما تستعمله الإنجليزية، فلحم الخروف المقدم للأكل تسميه (Mutton) والحيوان داخل الحقل هو(Sheep) في حين أن الفرنسية لا تستعمل سوى(Mouton).» [4] فتقابل كلمتين في لغة واحدة أو لغتين مختلفتين يحدد قيمة إحداهما بالنسبة إلى الأخرى.كما أن كلمات مثل:(Redouter)(هاب) و(Craindre)(خشي) و(avoir peur) (خاف) لا تكتسب قيمة إلا بتقابلها ولو زالت إحداها انتقل مضمونها إلى منافستيها.[5]

وما ينطبق على الكلمات ينطبق على الكيانات النحوية، وفي هذا السياق قدم دي سوسير مثالا مقارنا إذ إن قيمة الجمع تختلف بين اللغات كالسنسكريتية والفرنسية ففي السنسكريتية ثلاثة أصناف من العدد (المفرد والمثنى والجمع) في حين أن الفرنسية لها المفرد والجمع فقط. وتعتبر كلمات مثل (Mes yeux) عيناي و(Mes bras) يداي جمعا وهما في السنسكريتية تعبران عن المثنى. وفي الفرنسية يستخدم الجمع في حالتي المثنى والجمع. وهذا ما يجعل قيمة الجمع تتحدد بحسب محيطه ونظامه، وبحسب ما هو خارج عنه.[1] هذا بالنسبة للجانب الدلالي في القيمة اللسانية.

أما في الجانب المادي لها، فما يهم في الكلمة هو تلك الفوارق الصوتية التي تميزها عن غيرها من الكلمات الفرنسية(pomme)تفاح،(paume)راحة اليد، (Goutte) قطرة و(Je goutte) بمعنى أتذوق[2] ، فهذه الكلمات وإن كانت مشابهة صوتيا فهي مختلفة من حيث الدلالة. وهذا الاختلاف هو الذي يكسبها قيمتها اللسانية. ولعل هذا ما جعل دي سوسير يخلص في نهاية هذه المسألة إلى القول: « ليس في اللغة إلا الاختلافات.» [3] ذلك أن العلامة اللسانية تستمد قيمتها من اختلافها مع غيرها من العلامات داخل النظام اللغوي.

---

[4] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص: 103.

[5] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:177.

[1] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة ، ص: 178.

[2] ينظر المرجع نفسه،168.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:183.

غير أن مبدأ الاختلاف لا يكفي وحده أو لا يمكن أن يؤدي وظيفته الإيجابية في الدلالة إلا بالتفاعل مع مبدأ التقابل (opposition) الذي كان دي سوسير أول من اهتم به في النظام اللساني.[4] فكل علامة لغوية تستمد قيمتها من تقابلها مع وحدات أخرى داخل النظام اللغوي، وهذا في إطار دراسة وصفية لبنية اللغة وتحديد العلاقات القائمة بين عناصرها.

3)التزامنية: (Synchronique) والزمنية(Diachronique) أو التعاقبية:

كان المنهج السائد في الدراسات اللغوية في القرن 19م هو المنهج التاريخي المقارن إذ شهد هذا القرن ازدهارا كبيرا وتطورا واضحا لهذا النوع من الدراسات ذلك أن علماء اللغة« افتتنوا بمفهوم التطور كمفهوم إجرائي في تحليل الظواهر وقابلوا به المعيارية النحوية أو المنطقية العقيمة. فأدَّاهم ذلك أن ينفوا صفة العلم عن كل تحليل يختص بوضع اللغة في زمان معين ويعدون ذلك مجرد وصف وإحصاء.»[5] أفهم من هذا أن لغويي القرن التاسع عشر ربطوا اللغة بالدراسة التاريخية،أفهم من هذا أن لغويي القرن عشروا فيها المنهج الوحيد والعلمي القادر على دراسة اللغة بدل المعيارية النحوية والاعتماد على المنطق كما أقر ذلك النحاة الجدد.

وإن اهتم علماء اللغة – قبل ظهور دي سوسير – بالجانب السكوني أو الآني (الوصفي) في اللغة فذلك باعتبارها مرآة تعكس البنى المنطقية الموروثة كما فعل أصحاب مدرسة بورروايال الفرنسية. هذا يعني أن الدراسات اللغوية قد تراوحت بين الوصفية لاستخراج البنى المنطقية للغة وبين التاريخية التي اعتقد أصحابها أن المنهج التاريخي القائم على دراسة التغيرات هو المنهج العلمي الوحيد لدراسة اللغة. «ثم في إطار القطيعة مع التوجه المقتصر على الجانب التاريخي، اعترف بعض اللغويين وأكدوا على إمكانية إحالة عرض حالة لغة ما على دراسة مقتصرة على الجانب السكوني، غير مراعين التطور الذي نتجت عنه هذه الحالة.» [1] فكان أنطوان مارتي أول من دعا إلى ضرورة اعتماد المنهج الوصفي في دراسة اللغة وذلك سنة 1914م.

ومع ظهور مؤلف دي سوسير "محاضرات في الألسنية العامة" بدا التمييز واضحا بين الدراسة الوصفية والدراسة التاريخية إذ حدد بدقة المنهج الوصفي، وفصل بين هذين النوعين من الدراسة. وهذا في إطار محاولته لإصلاح تلك الآراء والأفكار الخاطئة التي سادت حقل الدراسات اللغوية

---

[4] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 85.

[5] عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (03)، ص:44.

[1] جان بيرو، اللسانيات، ص:108

طوال القرن التاسع عشر. وفي ظل نقده للمنهج التاريخي الذي رآه قاصرا عن دراسة اللغة دراسة علمية دقيقة وحده.

« وقلة هم الدارسون الذين كانوا يفصلون – في عصر دي سوسير أو المتقدمون عليه- بين الدراسة الوصفية القارة والدراسة التاريخية التطورية، وأقل منهم أولئك الذين تساءلوا عن جدوى القيام بهذا التفريق» [2] فالعالم البولوني بودوان دوكورتناي كان قد توصل إلى وجود علم اللغة الوصفي لكنه لم يفصل بين المنهجين الوصفي والتاريخي.

وتعد ثنائية الدراسة التزامنية(Synchronique)والدراسة التعاقبية(Diachronique) إحدى أهم الركائز المنهجية التي أسس عليها دي سوسير نظريته اللسانية. وقد فرق بين الدراسة السكونية (الآنية) للغة أي تلك التي تدرس اللغة في لحظة زمنية معينة وفي حالة معينة، والدراسة التطورية التي تهتم بدراسة التغيرات اللغوية عبر الزمن. وكلمة(Synchronique)فيها(Sun) التي تعني في اليونانية "مع" و(Kronos) "الزمن". أما في كلمة(Diachronique) فتعني(Dia) من خلال، أي دراسة من خلال الزمن. وعلى هذا فهما متقابلتان ولذا جعل منهما دي سوسير ثنائية.

الألسنية الآنية (القارة) والألسنية التطورية (الزمنية):

بما أن اللغة ظاهرة اجتماعية فهي خاضعة بالضرورة للتغير والتحول عبر الزمن وفي نفس الوقت تحاول الحفاظ على استمراريتها وفي هذا دلالة واضحة على الدور الهام والأساسي والفعال الذي يقوم به الزمن في حياة اللغة وتطورها، ذلك أنه يضع الدراسة اللغوية أمام منهجين أو طريقتين مختلفتين، فإما أن تكون الدراسة آنية تختص بمرحلة معينة وبحالة من حالات اللغة فتقوم بوصفها وتحليل بنيتها أو تكون دراسة ممتدة عبر الزمن ترصد التغيرات الطارئة على اللغة عبر حقب زمنية. ونتجت عن هذا الدور الهام للزمن ثنائية جذرية تتمثل في التزامن والتعاقب.

ويرى دي سوسير أن هذه الثنائية تظهر في كل العلوم التي تخضع لمفهوم القيمة كعلم الإقتصاد والألسنية. في حين أن علوما أخرى كعلم الفلك وعلم الجيولوجيا وإن وجد فيها أثر للتغيرات عبر الزمن إلا أنها لا تنقسم إلى مادتين اثنتين وفقا لثنائية التزامن والتعاقب. وهناك علوم أخرى وإن وجد فيها هذين النوعين من الدراسة كعلم وصفي للحقوق وتاريخ الحقوق إلا أنها لا تفصل

---

[2] عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:126

بينهما ولا تجعلهما متقابلتين.[1] كما يصل إلى نتيجة أن هذه الثنائية والفصل بين شقيها ضرورة داخلية في العلوم التي يعتمد نظامها على المقابلة أو الموافقة بين أطراف مختلفة كالدال والمدلول في الألسنية، والعمل والأجر في علم الإقتصاد. ويصر دي سوسير على أن يحاول العلماء في مختلف الميادين العلمية البحث في مواضيعها عن ثنائية التعاقب والتزامن وتنظيمها على أساس هذه الثنائية.[2]

أما في ميدان اللسانيات فيعتبر هذا التقسيم الثنائي ضرورة داخلية يفرضها تشعب النظام اللغوي ودقته وضبطه المنهجي فيقول:« كلما ازداد نظام من أنظمة القيم تشعبا ودقة وصرامة في الانتظام ازدادت الحاجة –بسبب تشعبه ذاته- إلى دراسته على التوالي حسب هذين المحورين. ونحن نعلم أن لا وجود لنظام يختص بهذه الخاصية- أي التشعب والدقة- بقدر ما يختص به ميدان اللغة.» [3] أعتقد أن دي سوسير يربط دراسة اللغة وفقا لهذين المنهجين بنظامها، ذلك أن ارتباط قيمة العلامة اللغوية بما يقابلها من علامات أخرى في النظام يتطلب دراستها بمنهج وصفي آني في حالة معينة، وتغير دلالة كلمة من زمن إلى آخر سبب لدراسة اللغة وفق منهج زمني تعاقبي. يتابع هذه التغيرات ويفسرها، على أن تسبق الدراسة الأولى الثانية.

يقول دي سوسير « أما كلمة Evolution أي "تطور" وعبارة Linguistique Evolutive أي "ألسنية تطورية" فإنهما أكثر دقة ولهذا فإننا سنستعملها في أغلب الأحيان وفي مقابل ذلك يمكن أن ننعت النوع الثاني من الدراسة اللغوية بـــ: Sciences des états de langue أي "علم حالات اللغة" أو Linguistique statique أي "الألسنية القارة". ولكي يزداد هذا التقابل وهذا التقاطع بين هذين الضربين من الظواهر المتعلقة بنفس الموضوع وضوحا وجلاء فقد فضلنا استعمال عبارتي: Linguistique synchronique أي "ألسنية آنية"، وLinguistique Diachronique أي "ألسنية زمانية". ويعتبر آنيا كل ما يتعلق بالمظهر القار من علمنا هذا، ويعتبر زمانيا كل ما له مساس بالتطورات. وسنطلق كذلك اسم Synchronie أي "آنية" وDiachronie أي "زمانية" – على الترتيب – على أية حالة من حالات اللغة وأية

---

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:126.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:127.

[3] المرجع نفسه، ص:128.

مرحلة من مراحل التطور.» [1] أستنتج من هذا أن دي سوسير يفضل استعمال لسانيات سانكرونية ولسانيات دياكرونية للفصل بين الدراستين الآنية والزمانية ولإظهار التقابل التام بينهما بدل الدراسة التاريخية التي سادت حقل الدراسات اللغوية لمدة طويلة.

❖ المقاربة الآنية أو التزامنية:

ويقصد بها تلك الدراسة التي« تقوم على رصد العلاقات بين الأشياء المتواجدة أو المتوافقة على أساس ثابت، ليس للزمان فيه أي دخل، وهذا يؤدي إلى دراسة الظاهرة في آنيتها أو في صورتها البنيوية.» [2] هذا يعني أن الدراسة الآنية للغة تتخذ من العلاقات بين عناصر النظام الواحد موضوعا لها في فترة زمنية معينة، أي تهتم بوصف اللغة في حالة معينة فتبحث في بنيتها وتحلل عناصرها الداخلية لتصل إلى تحديد العلاقات الموجودة بينها، وهذا ما يسميه دي سوسير "محور المتواجدات"، أي المحور الأفقي وذلك لأنه يدرس ما هو موجود دون الرجوع إلى الزمن. والدراسة التزامنية« تعالج الموقف اللساني في لحظة بعينها من الزمان، أي أنها تعنى بوصف الحالة القائمة للغة ما، وتتجلى اللغة في هذه الحالة في هيئة نظام منسوق يعيش في الوعي اللغوي لمجتمع بعينه.» [3] أفهم من هذا أن هذا النوع من الدراسة يهتم بالبحث في اللغة في زمن معين وحالة معينة لتحديد العلاقات النفسية والمنطقية بين عناصرها الداخلية ولذا تظهر اللغة كنظام مترابط العناصر متناسق في أذهان أفراد المجتمع الواحد. وبهذا تعطي الأولوية للسانيات الداخلية في اللغة. ويشير دي سوير في حديثه عن الدراسة الآنية (التزامنية) للغة إلى ظاهرة هامة ملفتة للانتباه تتمثل في المظهر السانكروني للغة بالنسبة إلى الجماهير المتكلمة-هو الذي يمثل وحده-

الحقيقة الواقعية لكل نشاط لغوي» [1] فمن هذا القول يمكن أن أستنتج من جهة عدم وجود تعاقب زمني في اللغة بالنسبة للفرد المتكلم إذ إنه يجد نفسه أمام حالة لغوية معينة على دارس اللغة أن يهتم بدراسة هذه الحالة مستبعدا عامل الزمن أو التعاقب، ملغيا الماضي ليتوصل إلى إدراك الظاهرة اللغوية على حقيقتها. ومن جهة أخرى هذا يدعو إلى دراسة اللغة في صميم نشاطها

---

[1] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:129.

[2] زواوي بغورة، المنهج البنيوي، ص:37.

[3] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:227.

[1] زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص:50.

الوظيفي أي في حالتها الآنية بين المتكلمين. وبهذا كان دي سوسير « أول من نظر إلى اللغة في صميم نشاطها الوظيفي الحقيقي».[2]

قدم دي سوسير مجموعة تشبيهات تثبت أهمية وصحة الدراسة الآنية للغة وجدواها فشبه العالم اللغوي الذي يدرس اللغة دون أن يستبعد الزمن أي الذي يتتبع تطورها بذلك الملاحظ الذي يشاهد منظرا وهو يتحرك متنقلا من مكان إلى آخر فلن يدرك حقيقة المنظر لأنه يشاهد ما يحدثه تغير موضعه من تحول في عمق المنظر، فكذلك اللغة لا يمكن ضبط قواعدها ولا معرفة العلاقات القائمة بين عناصرها إلا إذا اقتصر الدارس على حالة معينة وأهمل التعاقب الزمني.[3] يظهر أن دي سوسير يولي هذا النوع من الدراسة أهمية بالغة ويفضلها على الدراسة التعاقبية، ويصر على ضرورة دراسة اللغة دراسة آنية في نظامها الداخلي للوصول إلى الدقة العلمية والدراسة الموضوعية.

ولعل أبرز تشبيه تكرر في كتاب دي سوسير ذلك الذي جمع فيه بين اللغة ولعبة الشطرنج إذ قابل بينهما مقابلة تامة إلا أنه استثنى عنصر القصد، فالتغيرات التي يحدثها اللاعب في اللعبة يقصدها في حين أن التغيرات التي تصيب اللغة لا قصد فيها للمتكلم. وما عدا هذا فما يحدث في هذه اللعبة يشبه إلى حد كبير ما يحدث في اللغة « فقيمة كل حجر من الأحجار (أي القطع التي يحركها اللاعبان في رقعة الشطرنج) مرتبطة بموقعه على الرقعة ضمن وضعياته التقابلية مع الأحجار الأخرى.» [4] أما في اللغة فإن قيمة اللفظة تتحدد بتقابلها مع باقي وحدات النظام اللغوي. كما أن كل مرحلة من مراح هذه اللعبة تكون قد تخلصت من الماضي أو المراحل السابقة تقابل تماما حالة آنية من حالات اللغة ؛ فاللفظ يتعلق بالحالة الراهنة في النظام اللغوي أما التغيرات التي سبقته فلا مجال لها في هذه الحالة. يقودنا هذا التشبيه بين اللغة ولعبة الشطرنج إلى نتيجة هامة تتمثل في إمكانية دراسة اللغة في كل حالة كنظام تام ومتناسق. كما يبين أهمية وصف اللغة وصفا دقيقا باعتبارها جهازا معقدا قبل دراسة تطورها عبر الزمن.

❖ المقاربة التعاقبية أو الزمانية:

---

[2] المرجع نفسه،ص:50.

[3] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:129.

[4] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 68.

ويقصد بها تلك الدراسة التي« تعنى بتاريخ اللغة أي أنها تعنى بالظواهر اللغوية غير المختزنة في الوعي اللساني لهؤلاء المتكلمين أنفسهم، وهي التي يحتل بعضها مكان بعض دون أن تتجاور بالضرورة في نظام واحد» [1] هذا يعني أن الدراسة التعاقبية تهتم بتاريخ الظاهرة اللغوية وما يطرأ عليها من تحولات وتغيرات خلال حقب متتابعة من الزمن أي أنها تقع على المحور العمودي الذي يسميه دي سوسير محور المتعاقبات إذ« تكون الدراسة فيه حسب العلاقات بين الأشياء المتتابعة على أساس التغير الزمني والتاريخي.» [2] فتهدف إلى البحث في العلاقات الزمنية والتاريخية المتتابعة في النظام اللغوي، وترصد التحولات التي تطرأ على عناصره محاولة تفسيرها والوصول إلى الأسباب المؤدية لها ذلك « أن كل لغة هي وليدة تطور تاريخي تدخل فيه مؤثرات عديدة ومتباينة، وتذهب إلى أبعد من ذلك إذ تؤكد أن اللغة لا يمكن تفسيرها كظاهرة اجتماعية إلا بالعودة إلى تاريخها.» [3] هذا يعني أن الدراسة الزمنية للغة تأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية المحيطة باللغة والمؤثرة فيها كما قد تتناول ظاهرة قديمة بالبحث منذ نشأتها متتبعة تطورها الزمني لتقدمها في شكل دراسة تعاقبية.

والمنهج التاريخي « لا يكتفي بوصف الظاهرة آنيا من الداخل حسب وجودها في التركيب في لحظة معطاة، بل يتصدى لتفسيرها وتتبع تطورها وذكر المراحل التي عملت وأثرت فيها.» [4] هذا يعني أن هذه الدراسة تبحث في الظاهرة اللغوية بوصفها وصفا آنيا من الداخل ثم تواصل تتبع تطورها عبر مراحل زمنية معتمدة على العوامل الخارجية الفاعلة في اللغة كالعامل السياسي أو الجغرافي أو التاريخي أو ثقافي.

واللغة في تطورها تخضع لقوانين تبدو في كثير من الأحيان ثابتة، إلا أن القانون الزماني يجعل من عنصر يختفي ليحل محله عنصر جديد بصفة لازمة فتنتج عنه تغيرات على مستوى الكلام ثم تشيع لتدخل عالم اللغة، فالكلام يمثل النشاط الوظيفي للغة والتحول إنما يصيب اللفظ نتيجة الاستعمال. ولعل هذا ما جعل دي سوسير يقول: « إن كلما هو زماني في اللغة ليس كذلك إلا

---

[1] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:227.

[2] زواوي بغورة، المنهج البنيوي، ص:37.

[3] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:106.

[4] عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، ص:56.

بواسطة اللفظ.» [5] فالتغير في اللغة يبدأ باستخدام مجموعة المتكلمين شكلا جديدا للفظة في الكلام قبل أن يشيع في الاستعمال العام.

الفرق بين الدراسة التزامنية (السانكرونية) والدراسة الزمانية(الدياكرونية):

لقد فصل دي سوسير بين الدراستين ووضح اختصاص كل واحدة منهما وخاصة عند مقارنته للغة بلعبة الشطرنج حيث توصل إلى تحديد الفروق الأساسية بين ما هو آني وما هو زماني، أحاول تلخيصها في النقاط التالية:

➢يتمثل الموضوع الأساسي للدراسة التزامنية في الحالة الراهنة للغة أو في واقعها في زمن معين، إذ تدرس نظامها الداخلي وعناصره المتزامنة وفق محور أفقي آني في حين أن الموضوع الأساسي للدراسة الزمانية هو البحث في تاريخ اللغة تطورها. ولعل المثال الذي قدمه دي سوسير عن النبات خير دليل على هذا الفرق. فالدراسة الآنية تمثل ذلك المقطع العرضي في النبات والذي يبدو كرسم معقد تظهر فيه الألياف الطولية متجمعة على سطح معين، كما يمكنه أن يظهر لنا بعض العلاقات الموجودة بين الألياف والتي لا يمكن إدراكها إلا على مستوى المقطع الأفقي. في حين أن الدراسة الزمانية تمثل ذلك المقطع العمودي الذي تبدو فيه الألياف المكونة للنبات.[1] فكما أن المقطع العمودي قد لا يظهر بعض الألياف التي تتفرع مرة وتختفي أخرى، كذلك الدراسة الزمانية لا تطلعنا على كل عناصر النظام اللغوي والعلاقات القائمة بينها. وكما يمكِّننا المقطع العرضي من معرفة بنية النبات في مرحلة من مراحل نموه بمقارنة العناصر ببعضها فإن الدراسة الآنية تمكننا من تحليل بنية اللغة والتركيز على الترابط بين عناصرها.

➢الدراسة الآنية « عبارة عن علاقة بين عناصر متزامنة أما الثانية فهي عبارة عن تعويض عنصر بعنصر آخر عبر الزمان أي أنها حدث» [2]تقوم الدراسة السانكرونية على دراسة العلاقات القائمة بين عناصر النظام اللغوي في حين أن الدياكرونية تهتم بالتغير الذي بموجبه يحل عنصر مكان آخر مع تعاقب الزمن ولذا فهي دراسة حركية عكس الأولى السكونية.

---

[5] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:150.

[1] فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة،ص:137 .

[2] المرجع نفسه، ص:141.

➢تقوم الدراسة التزامنية على وجهة نظر واحدة تتعلق بجمهور المتكلمين إذ تعتمدعلى نشاطهم الفعلي الوظيفي للغة. أما الدراسة الزمانية « فيتحتم على أصحابها بخلاف ذلك أن يميزوا بين وجهتي نظر اثنتين: إحداهما إستقبالية (Prospective) تتبع مجرى الزمن وأخرى استدبارية (Rétrospective) تعود فيه إلى الماضي» [3]أستنتج من هذا أن الدراسة الآنية تنظر إلى اللغة من زاوية المتكلمين ولذا فإن منهجها واحد يهتم بوصف اللغة في حالة معينة، في حين أن الدراسة التعاقبية تنظر إلى اللغة بمنظارين أحدهما الاستقبالي يساير الزمن الذي تتم فيه الدراسة، والثاني استردادي يرجع إلى الماضي للبحث عن أصل الظاهرة اللغوية أو أقدم صيغة لها، كما قد يعتمد على المقارنة لإعادة بناء وقائع هذه الظاهرة.

➢يخصص دي سوسير موضوع الدراسة الآنية بمجموع الظواهر المتعلقة بكل لغة من اللغات أو لهجة من اللهجات، لذا فهو يرىأنه ينبغي تعويض كلمة (Synchronique) آني بكلمة (Idiosynchronique) أي آني خاص، في حين أن الدراسة الزمنية ترفض مثل هذا التخصيص، إذ تجمع في إطار المقارنة بين الظواهر اللغوية بين عدة لغات لتحاول إقامة دليل على وجود قرابة بينها لوجود رابط تاريخي يجمعها.[1]

➢تختلف الدراستان من حيث الأهمية، ويظهر لي جليا ميل دي سوسير إلى الدراسة التزامنية إذ يقول:« فمن البديهي في هذه النقطة أن المظهر الآني يطغى على المظهر الزماني إذ يمثل عند جمهور المتكلمين الواقع اللغوي الحقيقي الوحيد وهو كذلك بالنسبة للألسني. فإذا نظر في اللغة من الوجهة الزمانية فإن ما يلوح له ليس اللغة وإنما سلسلة من الأحداث التي تسببت في تغييرها.» [2]يرد دي سوسير أهمية الدراسة الآنية إلى اهتمامه باللغة كموضوع للدراسة في حد ذاتها، في حين أن الدراسة التعاقبية تهتم بالبحث في العوامل المؤدية إلى هذا التغيير لتصل إلى تفسيره. ولكن دي سوسير لا ينكر دور الدراسة الزمانية في الدراسات اللغوية وفضلها عليها وما توصلت إليه من نتائج مهمة.

➢يبقى أن أشير إلى نقطة توصل إليها دي سوسير في إطار رصده للفروق بين الدراستين وتتمثل في اختلاف الظواهر المعالجة بالطريقتين، وعدم تساويها. كمالا يمكن رد الظواهر الآنية إلى

---

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:140.

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:141.

[2] المرجع نفسه، ص:140.

الظواهر الزمانية والعكس.[3] ولكن رغم الاختلاف والتباين بينهما إلا أنهما ترجعان إلى مصدر واحد إذ تنبع هذه الثنائية من« ظاهرة دلائلية عامة هي قيام جميع الأنظمة الدلائلية على مبدأ اللاتحول والتواصل عبر الزمان مقترنا بالتحول والتغيير عبر الزمان».[4] فاللغة كنظام متماسك تمثل في وقت واحد نظاما له قواعده الخاصة، ومؤسسة اجتماعية قائمة على التواضع بين مجموعة المتكلمين وهذا ما يعطيها نوعا من الثبات ويدعو إلى دراستها دراسة آنية وصفية في كل مرحلة من مراحلها ولكنها تتغير عبر الزمن وهذا يوجب دراستها دراسة زمانية تعاقبية.

أسبقية الآنية على الزمانية:

يتجلى موقف دي سوسير واضحا حول التقابل الجذري بين طرفي هذه الثنائية إذ يقر باستقلالية كل فرع منها عن الآخر مع أنهما مترابطتان في الواقع.[1] لكنه في نفس الوقت يولي أهمية بالغة للدراسة الآنية وربما كان ذلك رد فعل على طغيان الدراسة التاريخية على حقل اللغويات مدة طويلة بالإضافة إلى جملة أسباب يجملها الدكتور ميشال زكريا في قوله:« نستطيع القول الآن أن دي سوسير في تمييزه هذا يحدد طريقة نهج لم يكن اللغويون السابقون ينتهجونها، يمكن تلخيصها في أن التنظيم اللغوي بالغ التعقيد وبالتالي لابد من دراسته قبل دراسة تطور اللغة، بكلام آخر لابد من معرفة اللغة كواقع قائم بذاته قبل تتبع تطورها عبر الزمن.» [2]بعبارة أخرى إن الارتباط والتفاعل الداخلي بين عناصر النظام اللغوي من جهة واستقلال اللغة عن العوامل الخارجية من جهة أخرى أمر تتطلب دراسته وصفا آنيا، ثم معرفة ما يطرأ على هذا النظام من تغير تتطلب دراسة زمانية.

ويتوصل دي سوسير في ختام معالجته لهذه الثنائية إلى تحديد موضع كل دراسة وضرورة تصنيف الظواهر اللغوية بحسب مجال دراستها، ويصر على عدم الخلط بينهما إذ لكل واحدة منهما دور في دراسة اللغة لا يمكن إنكاره ولا الإستغناء عنه، وبهذا يقسم الألسنية إلى قسمين:[3]

---

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:141.

[4] عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:28.

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:136.

[2] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:227.

[3] ينظر فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:152.

– **ألسنية آنية:** وتهتم بدراسة العلاقات المنطقية والنفسية بين العناصر المشكلة للنظام اللغوي المستقل والقائم بذاته والمدرك بوعي أفراد المجتمع.

– **ألسنية زمانية:**وتدرس العلاقات القائمة بين العناصر المتعاقبة في الظاهرة اللغوية بحيث يعوّض أحدهما الآخر دون أن تشكل نظاما مستقلا عن العوامل الخارجية وبالتالي لا يدركها وعي أفراد المجتمع.

وقد ظهرت بعض التوجهات اللسانية بعد دي سوسير رفضت فكرة التقابل بين الدراستين والفصل الصارم بين التزامن والتعاقب، والثابت مقابل الحركي « فبداية أية عملية تحول ونهايتها تترافقان في التزامن(...) ولذلك فإنه ما من تغيرات يمكن فهمها وتأويلها من دون الإحالة على النظام الذي يخضعها وعلى وظيفتها ضمن هذا النظام والعكس بالعكس. فما من لغة يمكن وصفها وصفا تاما وملائما دون مراعاة تغيراتها الحادثة.» [4] والحقيقة أنني أوافق هذا الرأي إذ لابد من التكامل بين الدراستين خدمة للدراسة العلمية للغة، ثم إن الفصل بين الدراستين قد يكون من باب التجريد النظري العلمي في حين أن التطبيق يثبت التكامل والتداخل الشديد بينهما حتى لا يمكن معه الحديث عن التقابل. فالدراسة الزمانية هي مجموع الدراسات الآنية، والآنية نفسها لا تخلو من عناصر زمانية.

4)العلاقات التركيبية والاستبدالية (علاقات الحضور والغياب):

إن اللغة عبارة عن نظام يتكون من تتابع علامات لسانية تربط بينها علاقات تتحدد في إطار هذا النظام بحيث تدخل كل علامة في جملة علاقات مع الوحدات الأخرى ضمن السلسلة الكلامية. وتنقسم هذه العلاقات إلى نوعين:

♦ **علاقات تركيبية أفقية (علاقات الحضور):**

والمقصود بها تلك العلاقات الأفقية الرابطة بين الوحدات اللغوية في السلسلة الكلامية الواحدة فهي « قائمة على صفة الخطية للغة. وهي صفة تنتفي معها إمكان النطق بعنصرين معا بنفس الوقت وتنتظم هذه العناصر الواحد تلو الآخر في سلسلة اللفظ. ويمكن أن نسمي هذه التوليفات التي تتخذ لها من الامتداد حاملا: سياقات.» [1] تعتمد هذه العلاقات الأفقية على التتابع الخطي

---

[4] رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص:37.

[1] فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص:186.

على مستقيم بحيث لا يمكن نطق عنصرين في وقت واحد، ولذا فقيمة العلامة تتحدد في السياق بحسب علاقاتها مع ما يسبقها وما يليها إذ تضيف كل علامة شيئا إلى المعنى الكلي.

والعلاقات السياقية أو الحضورية« تحدد الوحدات المتواجدة داخل ملفوظ معين وهي تتعلق إذا بتركيب الوحدات اللسانية التي اختارها المتكلم فعلا ورصفها حسب نظام معين.»[2] أحسب أن هذه العلاقات تقوم على ما اختاره المتكلم من كلمات أي على الإنجاز الفعلي وكيفية توزيعه للوحدات داخل السلسلة الكلامية، ولذا فهي تظهر عند تجاورهذه الوحدات على محور أفقي وهذا ما يدعى بالسياق. والذي يرى دي سوسير أنه« لا ينطبق على الكلمات الفرادى فحسب بل وكذلك على مجموعات الكلمات والوحدات المركبة مهما بلغت من الطول والتنوع(الكلمات المركبة والمشتقات وأجزاء الجمل والجمل الكاملة).» [3] يبدو أن دي سوسير يدخل في السياق كل أنواع الكلمات وحتى الجمل التي تمثل –حسبه- أحسن نموذج للسياق، وإن عدها من أجزاء الكلام.[4]

وتظهر العلاقات التركيبية بين أصوات الكلمة الواحدة كما تظهر بين كلمات الجملة الواحدة. مثل: قدَّم الطالب المذكرة. فتجاور الكلمات قدّم + الطالب + المذكرة تحدده علاقات تركيبية قائمة بينها تظهر من خلال الوظيفة النحوية بين الفعل والفاعل والمفعول به. وكذلك تتجاور حروف كلمة ط، ا، ل، ب إذ بينها علاقة تركيبية. وتظهر هذه العلاقات بوضوح في اللغة العربية إذ لا يمكن للفعل أن يؤدي وظيفته الدلالية التامة إلا بتجاوره مع عناصر الجملة من فاعل ومفعول به حيث تظهر الوظيفة النحوية.

ويشير دي سوسير في حديثه عن العلاقات السياقية إلى مسألة التضامنات السياقية والتي تدخل في باب النحو، ويقصد بها « توليفة من عنصرين متضامنين لا قيمة لهما إلا بفضل تفاعلهما في صلب وحدة أكبر.» [1] فكلمة (بحري) تتألف من بحر+ي(ياء النسبة) وهما عنصران متضامنان لا

---

[2] نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية، الأزريطة، الإسكندرية، 2002 ص:313.

[3] فرديناند دي سوسير، دروس، ص:188.

[4] ينظر المرجع نفسه، ص:188

[1] فرديناند دي سوسير، دروس، ص:192

يستقل أحدهما عن الآخر. وتحدد قيمتهما باتحادهما وتفاعلهما ضمن الوحدة الكلية.[2] ومثل هذه الكلمة لا مكان لها في اللغة إلا بوجود طائفة من الكلمات تشترك معها في نفس صفاتها.

♦ **علاقات استبدالية (علاقات الغياب):**

والمقصود بها« تلك العلاقات التي تتحقق وظيفتها ضمن إدراك الترابط الذهني الحاصل بين العلامة اللغوية والعلامات التي يمكن أن تحل محلها مما يمكن أن تتسم معه –خارج الخطاب- بشيء مشترك، وتترابط معه في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة.» [3] هذا يعني أن العلاقات القائمة بين الكلمات يدركها ذهن المتكلم خارج السلسلة الكلامية بحيث يمكنه أن يختار منها ما يشاء ولذا تسمى علاقات الغياب، إذ تربط كلمة حاضرة بأخرى غائبة علاقة إيحائية أو علاقة التداعي « ومن هنا تتكون مجموعة من الكلمات تقوم بينها علاقات متعددة، فكلمة تعليم مثلا تتوارد معها على الذهن كلمات أخرى مثل: تربية ومعلم وعلم ومدرسة وامتحانات مما يشترك معها من وجه ما.» [4] وبعبارة أخرى فإن علاقات الغياب تربط بين كلمة موجودة في السلسلة الكلامية وأخرى غائبة في ذهن المتكلم لاشتراكها معها في صفة معينة ولذا تسمى هذه العلاقات بالعلاقات الاستدعائية فالمتكلم يحتفظ في ذهنه بمجموعة كلمات يمكن أن تتخذ الموقع نفسه في التركيب فيختار منها ما يناسبه. إذن فالعلاقات الاستدعائية تعتمد على محور الاختيار. وفي حين تقوم العلاقات التركيبية على مبدأ الخطية والامتداد الأفقي تعتمد العلاقات الاستبدالية على ذلك الكتر الداخلي الذي يكوّن اللغة والمخزّن في ذهن المتكلم. ففي جملة صام الولد. يمكن استبدال كلمة صام بمجموعة كلمات تستدعيها لاشتراكهما في الصيغة من جهة والوظيفة النحوية من جهة أخرى مثل: نام، قام، هام. كما يمكن استبدال فونيمات الكلمة الواحدة بعدة فونيمات تحل محلها في سياقات مختلفة. في كلمة صام يمكن استبدال الصاد، بالنون أو الدال، أو القاف، أو الهاء.

ويمكن أن تعمل العلاقات التركيبية والاستبدالية في نفس الوقت، فلو قال المتكلم تقدموا فإن هذه الكلمة تظهر في سياق علاقتها بكلمات (تقدم، تقدما، تقدمن...) ضمن علاقة حضورية، كما تظهر في سلسلة أخرى من الكلمات(تجمعوا، توحدوا، تأخروا...) ضمن علاقة الغياب.

---

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:192.

[3] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 89.

[4] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص:36.

ويطلق اللغويون المعاصرون على علاقات الحضور مصطلح "Syntagmes" (سانتجمات) ومصطلح "Paradigmes" (برادجمات) على علاقات الغياب.[1]

5) الفونولوجيا والفونتيك:

يبدأ دي سوسير حديثه عن الأصوات بالإشارة إلى الفرق بين الفونولوجيا والفونتيك ويذكر أن العلماء الذين سبقوه اهتموا بعملية التصويت وأهملوا الجانب الأكوستيكي.[2] في حين يفرق هو بين الجانب الفيزيولوجي في عملية التصويت والجانب السمعي فيها. فيسمى فونولوجيا ذلك العلم الذي يختص بدراسة عملية التصويت أو إحداث الأصوات بواسطة أعضاء النطق في حين يسمي العلم الذي يختص بدراسة تطور الأصوات بالفونتيك و«هو علم تاريخي، يحلل الأحداث والتطورات عبر الزمن بينما الفونولوجيا تقع خارج الزمن لأن طريقة النطق تبقى دائما هي نفسها، ولكن هاتين الدراستين لا تختلطان بل ولا تتقابلان. تعد الأولى منهما من الأقسام المهمة لعلم اللغة.أما الفونولوجيا فليست إلا نظاما مساعدا يستخرج من الكلام.» [3] على أن تكون الفونولوجيا جزء من علم الصوتية التاريخي.

ويشير إلى الجانب الأكوستيكي أو السمعي الذي يوجد ضمنيا عند دراسة الوحدات الفونولوجية ويلعب دورا كبيرا في تمييز الأصوات وتحديد الوحدات في الكلمة الواحدة. ويربط دي سوسير بين الجانب الفونولوجي والجانب السمعي فيقول:«فالسلسلة الأكوستيكية لا تنقسم إلى وحدات زمنية متساوية بل إلى وحدات زمنية منسجمة تتميز بوحدة الانطباع (الحاصل في السمع) وهنا يكمن المنطلق الطبيعي للدراسة الفنولوجية.» [4] أتصور أن دي سوسير يقصد بالانطباع ذلك التصور الذهني الذي يحصل في ذهن المستمع نتيجة سماعه لنطق الأصوات. فعن طريق هذا الانطباع السمعي الذي يصل إلى ذهن المستمع يستطيع أن يفرق بين الأصوات فيحدد صفاتها وهذا ما تقوم عليه الدراسة الفونولوجية. وفي هذا السياق يشيد دي سوسير بالأبجدية الإغريقية لأنها تمثل كل صوت بسيط بعلامة واحدة في الخط. أي أنها تمثل بخط أفقي السلسلة

---

[1] ينظر زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص:55.

[2] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس، ص:70.

[3] Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, publié par : Charles Bally, Albert Sechehaye, avec la collaboration de Albert Riedlinger, Payot, Paris, 1972, P :53.

[4] فرديناند دي سوسير، دروس، ص:71.

الصوتية بينها خطوط عمودية تعبر عن الإنتقال من صوت إلى آخر حسب الشكل التالي B A R B A R O S في حين أن شعوبا أخرى لم تعرف هذا المبدأ.[1]

والأصوات تتحدد بالاعتماد على الجانب السمعي، أما وصفها فلا يكون إلا بالاعتماد على عملية التقطيع أي عملية التصويت فيكون الناتج هو الصوتم ويقصد به« جملة الانطباعات الأكوستيكية والحركات التقطيعية للوحدة(الصوتية) المسموعة والوحدة (الصوتية) المنطوقة.» [2] يقصد بهذا التمثلات النطقية والسمعية إذ يتصور الصوتم من جانبين سمعي وعضوي لا وجود لأحدهما دون الآخر. كما لا يمكن الحديث عن الصوتم خارج الزمن إذ إنه يستغرق مدة زمنية فهو غير قابل للتجزئة.

6)لسانيات اللغة و لسانيات الكلام:

يبدو الكلام أسبق من اللغة في الحياة الاجتماعية ذلك أن الإنسان يربط بين الفكرة والكلمة بالكلام والذي عن طريقه يتم التفاهم بين الأفراد. والطفل الصغير يتعلم لغته بتقليد الكبار في طريقة كلامه. ثم إن اللغة تتطور عبر الزمن بواسطة الكلام، فما يطرأ عليها من تحول يكون نتيجة استعمال الألفاظ عن طريق الكلام لتشيع فتصبح لغة، ولذا فالكلام ضروري لأداء اللغة التي تمثل ذلك الكتر المودع في دماغ كل فرد والذي لا يكتمل إلا في أحضان الجماعة اللغوية. واللغة تكسب الكلام قدرته على التعبير. فاللغة والكلام مرتبطان ارتباطا وثيقا ومتبادلا غير أنهما عنصران متميزان.

ففي حين توجد اللغة كمخزون في دماغ كل فرد من أفراد المجتمع وتشترك بينهم ولا تكتمل إلا في أدمغتهم جميعا دون إرادة منهم فإن الكلام يتركب من « -توليفات لفظية فردية هي رهينة إرادة المتكلمين. – عمليات تصويت إرادية هي الأخرى وضرورية لإنجاز تلك التوليفات.» [3] فالكلام – حسب تقديري- يتكون من تراكيب خاصة ينشئها الفرد برغبته واختياره الحر وباستخدام جهازه الصوتي ولذا يختلف الكلام عن اللغة. كما أنه مختلف الأبعاد والمكونات، تمتد أبعاده إلى عدة جوانب: نفسية، فيزيائية، فيزيولوجية. في حين أن اللغة دراسة نفسية صرفة. ولذا فإن دي سوسير يطلق اسم ألسنية الكلام بشيء من التحفظ على أن لا يتم الخلط بينها وبين

---

[1] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس، ص:71.

[2] المرجع نفسه، ص:72

[3] المرجع نفسه، ص:42.

ألسنية اللغة التي تعتبر اللغة موضوعها الوحيد.[4] وليؤكد على استقلالية اللغة عن ظواهر الكلام يشبهها بالسمفونية إذ إنها مستقلة عن طريق العزف وأخطاء العازفين[1]. فكذلك اللغة مستقلة عن أخطاء المتكلمين الصرفية والنحوية والصوتية. ولذا لا يمكن الجمع بين اللغة والكلام إلا في بعض التوضيحات والاستدلالات.

7) المكتوب والمنطوق:

كثيرا ما نلجأ إلى الكتابة للتعرف إلى لغة قديمة فنعتمد على الوثائق المكتوبة وحتى للتعرف على لغة شعب بعيد عنا نضطر إلى الاعتماد على ما هو مكتوبوفي أحيان أخرى نرجع إلى الكتب القديمة لمعرفة لغتنا الأم. ذلك أن الكتابة هي الممثلة للغة بواسطة الخط كما تعتبر« الشهادة الخطية التي تتمثل بها لغة محكية على بعد زمني ما بشكل دائم.» [2] فهي تحفظ اللغة لمدة زمنية طويلة، وتمتزج بها حتى يظن الناس أن الصورة المكتوبة هي نفسها الصورة المنطوقة. ولهذا يكتسب المكتوب أهمية أكبر من المنطوق بالإضافة إلى عدة أسباب أجملها فيما يلي:

– الاعتقاد السائد بأن الكتابة أبعد عن التحريف والاختلال عكس المنطوق الذي يتغير بسرعة ويصيبه التحريف.

– الشكل الكتابي يشد الانتباه باعتباره ثابتا، وتأثير الانطباعات المرئية على الناس أكثر من السمعية.[3]

– بالإضافة إلى دور الكتابات الأدبية وما تعطيه من قيمة للمكتوب على حساب المنطوق« وحتى لا نكون جاحدين بحق اللغة الخطية إنه لابد من الاعتراف بأن إحدى حسناتها التي لا ترد أنها سجلت لنا مدونات شفوية ثابتة ولاسيما ما كان شعرا موزونا.» [4]

هذا يعني أن الأجناس الأدبية سواء كانت شعرا أو رواية تكسب اللغة المكتوبة قيمة مستمدة من تدوينها لهذه النصوص المعتمدة على البنية اللسانية، والتي قد تكون موروثة من الماضي، مما يجعلها تطغى على اللغة المنطوقة لكن هذا لا ينقص من قيمة المنطوق إذ إنه دائما الأسبق والأقرب إلى

---

[4] المرجع نفسه، ص:42.

[1] ينظر فردينان دي سوسير، دروس،ص:40.

[2] عبد الجليل مرتاض، مفاهيم لسانية دي سوسيرية، ص:10.

[3] ينظر فردينان دي سوسير، دروس، ص:49،50.

[4] عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل (إقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، دار هومة، الجزائر، ص:113.

الطبيعة، فالطفل يتعلم الكلام(بواسطة النطق) قبل الكتابة. كما أن اللغة أسبق من الكتابة فالتدوين يأتي في المرتبة الثانية إذ وجدت لغات في العالم لم تتمكن الكتابة من نقلها إلينا.

ويستبعد دي سوسير المكتوب من مجال الدراسة الألسنية ويحصرها في المنطوق وذلك لأن الكتابـــة « تقيم بيننا وبين اللغة حجابا يمنعنا من رؤيتها كما هي (...) وذلك لأن الكتابة ليست ثوبا عاديا

تلبسه اللغة بل هي قناع خداع تتنكر فيه.» [1] ويتجلى هذا في صورة رسمهم للكلمة الفرنسية (Oiseaux) حيث لم يرسموا أي صوت من أصوات الكلمة المنطوقة(Wazo) فالكتابة –حسب دي سوسير– تبدو مضللة وغير أمينة ولا تنقل المنطوق حقيقة، ولذا فهو يعتمد على الجانب الصوتي في الدراسة الألسنية لتحقيق الدراسة العلمية للغة.

وللمنطوق محاسن منها أن « اللغة الشفوية تتميز بذكاء اجتماعي أكثر سموا من نظيرتها المخطوطة.» [2] فهي تستمد هذا الذكاء من التراكيب الناتجة عن تجارب إنسانية، كما تغلب عليها الوظيفة التواصلية المباشرة. ويمكن تلخيص الفروق بينهما في النقاط التالية:[3]

المنطوق	المكتوب
طبيعي	اصطناعي
علامة أصلية	علامة رمزية
غاية في درس اللغة	وسيلة لدراسة اللغة
شهادة طبيعية صادقة	شهادته خادعة

يبدو لي في نهاية هذه المسألة أن الدراسة العلمية للغة في ذاتها ولذاتها تقتضي بالدرجة الأولى الاعتماد على الصوت اللغوي (الجانب المنطوق) وخاصة إذا كانت الدراسة مباشرة ثم الإستعانة بالمكتوب كوسيلة مساعدة.

8)اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية:

---

[1] فردينان دي سوسير، دروس ، ص: 56 .

[2] عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، ص:120.

[3] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 76.

لقد ميز دي سوسير بين طرفي هذه الثنائية أثناء محاولته تحديد موضوع اللسانياتإذ إن الدراسة العلمية للغة تقتضي« دراسة اللغة من حيث هي نظام مستقل قائم بذاته وهي دراسة توجب الخضوع والامتثال إلى ما تمليه اللغة من تقسيمات وإلى ما يمليه منطق نظامها الداخلي من مقتضيات.» [4] أتصور أن اللسانيات الداخلية تقوم على دراسة اللغة كنظام داخلي باعتبار أن المهم هو التنظيم الباطني للغة، فتدرسه دراسة محايثة (Immanente) تقوم على وصف عناصر اللغة بالنظر إلى علاقة كل عنصر ببقية العناصر ذلك أن« اللغة نظام من القيم التي يتقابل بعضها مع البعض الآخر.» [5] فاللسانيات الداخلية.

تعمل على دراسة نسق اللغة وقواعده الخاصة.

في حين أن اللسانيات الخارجية تتمثل في كل ما هو غريب عن نظام اللغة العضوي فهي تتصل بعدة علوم وعوامل يكون لها أثرها على اللغة. ومن هذه العلوم علم الأجناس البشرية (الإثنولوجيا) ذلك أنه قد يرتبط تاريخ لغة ما بحياة شعب من الشعوب وثقافته وعاداته وتقاليده وحضارته. كما أن لتاريخ أمة من الأمم أثر كبير على لغتنا فترقى برقيها وتنحط بانحطاطها. كما يؤثر التاريخ السياسي على اللغة، فالاستعمار قد يحدث تغييرات عديدة في ظواهر لغة البلد المستعمَر. ولا يخفى على الباحثين أثر المكان أو الانتشار الجغرافي للغة ما على هذه اللغة نفسها فقد تتشعب إلى لهجات وتنفصل كل واحدةعن الأخرى نتيجة التوسع الجغرافي. ثم إن للغة علاقة وثيقة بالمؤسسات كالمجامع اللغوية والمدارس والمساجد، فاللغة المتداولة فيها لغة أدبية تخضع لعدة عوامل دينية وسياسية وتربوية مما يدخل تحت إطار الدراسة الخارجية للغة « وإذا كانت اللغويات الخارجية وثيقة الصلة بدراسات أخرى مازالت في دور التكوين، كاللغويات الإثنولوجية واللغويات السيكولوجية واللغويات السوسيولوجية، فإن الدراسة الداخلية للغة قد قامت خارج نطاق الافتراضات الفلسفية المسبقة، سواء أكانت نفسانية أم معيارية لأنها اتخذت منذ البداية طابعا علميا مستقلا.» [1] هذا يعني أن اللسانيات الداخلية نشأت مستقلة منذ البداية فارتبطت بالنظام

---

[4] عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:16.

[5] إبراهيم زكريا، مشكلة البنية، ص:47.

[1] إبراهيم زكريا، مشكلة البنية، ص:47.

الداخلي للغة، في حين أن اللسانيات الخارجية مرتبطة بكل ما هو محيط باللغة ويؤثر فيها بشكل من الأشكال.

ويرى دي سوسير أنه يجب الفصل بين الدراستين ذلك أن لكل واحدة منهما منهجها ففي حين يمكن للدراسة الخارجية أن تجمع كل التفاصيل الخاصة باللغة دون أن تتقيد بالنظام الخاص، فإن الدراسة الداخلية ترتبط ارتباطا تاما بالنظام الداخلي دون أن تخالفه[2]. وخير ما يوضح الحدود بين الدراستين تشبيه اللغة بلعبة الشطرنج فانتقال هذه اللعبة من بلد إلى آخر أمر خارجي لا يزيد أو ينقص من معرفة شروطها ونظامها الداخلي[3]. أتصور أن كلتا الدراستين ضرورية لمعرفة اللغة، فإن كانت دراسة الجهاز العضوي للغة مهمة فإن الدراسة الخارجية لها ذات نفع كبير، فالتغيير

[2] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس، ص:46.

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:47.

الفصل الثالث

الثنائيات السوسيرية والمدارس اللسانية:

- مدرسة جونيف.
- مدرسة براغ.
- مدرسة كوبنهاجن.
- المدرسة التوليدية التحويلية.

الأسس المنهجية للمدارس اللسانية:

يطلق مفهوم البنيوية على ذلك التيار اللساني الذي يؤرخ له انطلاقا من فردينان دي سوسير وخاصة تلك الدراسات التي تولدت عن التأثر بدروسه والمفاهيم التي انبثقت عنها. وتندرج تحت البنيوية مجموعة المدارس اللسانية التي قامت على الأسس المنهجية التي أرسى دعائمها دي سوسير في كتابه. « والبنيوية مفهوم يطلق حسب الأشخاص والأحوال على مدارس لسانية مختلفة، وهو يستعمل أحيانا لتعيين واحدة أو أكثر من المدارس أو لتعيّنها جميعا، لأن لها مجموعة من التصورات والمناهج التي يشملها مفهوم البنية في اللسانيات.» [1] ذلك أن رواد هذه المدارس فهموا توجه الدرس اللساني السوسيري ومرتكزاته الأساسية، فقاموا على شرحها ثم استثمارها في تقديم نظريات لسانية أسست علم اللغة الحديث على اختلاف توجهاتها ومناهجها في دراسة اللغة.

وتشترك هذه المدارس في نظرتها إلى اللغة على أنها نظام لا يمكن فصل عنصر من عناصره عن الآخر ولا عزله عنه إذ إن قيمة كل عنصر تتحدد بعلاقاته مع بقية العناصر والتقابل بينها وهي فكرة أساسية و« قضية محورية في التيار البنيوي عنها تولدت مجموعة من المفاهيم الأساسية كالتمييز بين الدراسة التاريخية والدراسة الآنية إذ لا يعقل أن ندرك العلاقة بين عناصر النظام الواحد إلا باعتبارها في زمن معين أو بعبارة أخرى باعتبارها متعاصرة في الاستعمال، وكذلك التمييز بين اللغة (langue) والقول (parole) إذ إنه من العسير البحث عن العلاقات بين عناصر النظام في القول نظرا إلى صعوبة تجريده من كل ما يحف به من معطيات غير لغوية منها ما يرجع إلى الفرد ومنها ما يرجع إلى ظروف الكلام و ملابساته» [2] وتمثل فكرة نظامية اللغة نقطة جوهرية في نظرية دي سوسير إذ كان أول من تفطن إلى أن اللغة نظام مغلق له قواعده الخاصة. ولعل هذا ما جعل مجموعة من كبار علماء اللغة تعترف بفضل دي سوسير على علم اللغة وعلى البنيوية وإن لم يستخدم كلمة (بنية) إلا أنه كان رائدا للبنيوية من خلال ما قدمه من مفاهيم ومبادئ لسانية، ولذا يعد« أول من ألهم معاصريه بأفكار جديدة سواء اقتدوا بها أو لم يقتدوا المهم أنهم بدأوا من نفس الأسس النظرية التي بدأ بها لذلك يرجع الفضل إليه في إرسائه لمعالم البنيوية (structuralism) حسب المصطلح الحديث. وكتاب"دروس في الألسنية العامة" كان مدعاة إلى

---

[1] محمد الصغير بناني،المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة،الجزائر،2001 ص:59،60.

[2] عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:40.

عدَّة اتجاهات ظهرت من خلال مدارس لغوية مختلفة تمحورت بتحفظ بعض الدارسين تحت عدسة "البنيوية"» [3] هذا يعني أن المدارس اللسانية التي ظهرت بعد دي سوسير وخاصة الأوروبية منها قد تبنت مفاهيمه وطوّرتها، وحتى تلك التي خالفت دي سوسير فإنها انطلقت من نفس الأسس وبنت نظرياتها بطابعها الخاص. ذلك أن الأفكار السوسيرية – وإن مثّلت المنطلقات الأساسية لتأسيس علم اللغة الحديث – قد تعرضت للنقد والتعديل في سبيل بلوغ الدراسات اللغوية مرتبة الدراسة العلمية الدقيقة.

وقد انصّب اهتمام المدارس اللسانية ولاسيما الأوروبية منها على دراسة العبارات المنجزة بالفعل« فاللسانيات تسعى هكذا إلى وضع نظرية لدراسة النص المنجز بعد إنهائه وغلق باب تراكيبه باستعمال منهج تحليلي (شكلي) يقوم على شكل النّص(من صورته الخارجية)... » [1] أتصور أن اللسانيات تقف عند العبارة المنجزة لتبحث في بنيتها الداخلية وعلاقة عناصرها ببعضها لتشكل نظاما لغويا، وهذا دون البحث في علاقة اللغة بما يحيط بها أي كيفية إنجاز العبارة وصاحبها. على أن المدارس اللسانية كلها اهتمت بدراسة اللغة كنظام تواصلي في ذاتها ولذاتها، وإن اختلفت طريقة الدراسة والتحليل فلأنها نابعة من المنهج المعتمد والتوجه العلمي الذي تبنته كل مدرسة.

وقد ارتبط اسم كل مدرسة من المدارس اللسانية التي ظهرت بعد دي سوسير بالبلد الذي نشأت فيه أو المنهج الذي تبنته في الدراسة أو باسم مؤسسها لذا اختلفت تسميتها ومن أشهرها: مدرسة جونيف أو السوسيرية، مدرسة براغ أو الوظيفية، مدرسة كوبنهاجن أو الغلوسيمية ثم المدارس الأمريكية.

وسأقتصر على تلك المدارس التي كان لأصحابها موقف واضح اتجاه مفاهيم دي سوسير الثنائية.

1) مدرسة جونيف أو المدرسة السوسيرية:

لقد ارتبط اسم هذه المدرسة باسم المدينة التي أنجبت دي سوسير واحتضنت أفكاره اللسانية وشهدت بلورتها واكتمالها لتنتشر منها في أوساط اللغويين. ولعله يبدوا واضحا من

---

[3] ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص:47.

[1] محمد الصغير بناني،المدارس اللسانية،ص:60.

تسميتها أنّها تمثل امتدادا مباشرا لأفكار دي سوسير إذ تعتمد مرجعيتها النظريةعلى المبادئ الأولية السوسيرية ثم انطلقت منها إلى حقول معرفية أخرى. وقد « انبثقت من تعاليم دي سوسير واكتسبت صورتها النهائية من عمل تلامذته شارل بالي (Charles Bally)(1865م-1947م)، وألبرت سيشهاي (Albert Sechehaye)(1870م-1946م) وهنري فراي(Henri Frei).» [2] والفرنسي روبرت كوديل(R.Godel). فأعلام هذه المدرسة هم من تلاميذ دي سوسير المباشرين الذين تشبعوا بأفكاره واقتنعوا بفائدتها العلمية والمنهجية فعملوا على جمعها في الكتاب المشهور ونشرها. وقد أخذت هذه المدرسة طابعها الخاص من دراسات أولئك الرواد ونزعاتهم الخاصة، ومن أبرزها أعمال شارل باليي وهنري فراي.

فقد «تبنى بالي مبدأ سوسير في التمييز بين اللغة(Langage) واللسان(Langue) وظاهرة الكلام الفردي (Parole) وطوّر من خلال هذا المبدأ نظريته الخاصة بالتحقيق (Actualization) ذلك أنّ مفردات اللغة نفسها تعين مفاهيم افتراضية(Virtuel) تتصف بالتعميم المطلق، أما (الكلام) الاستخدام الفعلي للمفردات فمعني بالظواهر الملموسة. وتحوّل اللغة إلى الكلام يؤدي إلى تحويل المفاهيم المجرّدة إلى مفاهيم تتصل بالواقع.»[1] هذا يعني أن بالي قد انطلق من فكرة التمييز بين اللغة والكلام ولكنّه ركّز اهتمامه على دراسة الكلام فتوصل إلى مبدأ التحقيق أو الإنجاز والذي يعني تحويل اللغة إلى كلام وبهذا يهدف إلى تحويل المفاهيم المجردة إلى مفاهيم واقعية أو منجز فعلي.

واللغة في تصور بالي«ظاهرة اجتماعية تتيح التواصل بين أفراد البيئة الواحدة في حين أن الكلام يرتد إلى سيكولوجيا الفرد من حيث هو وسيلة تعبيرية تبرز عواطفه وانفعالاته وحياته الوجدانية.»[2] يبدو لي أن بالي يدرس الكلام في جانبه النفسي المعبّر عن انفعالات المتكلم، وتعدّ دراسة الجانب الانفعالي في الكلام الموضوع الرئيسي للأسلوبية ذلك أن دراسته للأسلوب الكلامي أو التعبيري تعد تأسيسا لعلم الأسلوبية. وكان بالي« يريد توجيه عنايته إلى غير اللغة المشتركة لـــ"مجموعة اجتماعية محددة" لهذا وضع اللغة المنطوقة وهيّ مادة دراسته مقابل الاستخدام "الطوعي والواعي" والموّجه نحو علم الجمال، وهذا ما يكوّن برأيه أسلوب الكاتب لكن بما أنه

---

[2] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:232.

[1] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:232.

[2] ميشال زكريا، الألسنية(علم اللغة الحديث)، ص:289.

يستبدل التحليل الآلي والتاريخي للغة بفحص العلاقة التزامنية (Synchronique) بين التعبير والوعي النفسي وبما أنّه إضافة لذلك يركز اهتمامه على المضمون "المضمون الشعوري" (Affectif) لأفعال التعبير فإنّ هذه المرونة البارعة للعلاقة بين الشكل والمعنى هيّ التي تستشف من مشروعه.»[3] لعل بالي يقصد مقابلة اللغة كقدرة عقلية يستعملها المتكلم أو الكاتب بإرادته ووعيه بالكلام كتعبير عن مضمون شعوري انفعالي هذا ما يمثل أسلوب الكاتب. ثم إنه يرّكز في دراسته على البحث في العلاقة الآنية بين الكلام كتعبير فردي والشعور النفسي والحالات الانفعالية ليصل إلى العلاقة بين الشكل والمعنى. ولعل تركيزه على الجانب الوجداني الانفعالي هو ما جعل العلماء يصفون لسانيات بالي بالانفعالية. فكل عملية نطق يصاحبها انفعال شخصي تقوم الأسلوبية على تحليله ودراسته دون اللجوء إلى خصوصيات المتكلم لأنها خارج مجال اهتمام هذا العلم اللساني.

كما وضع بالي« مفهوم نقل الموضع (Transposition) عند تحليله لوظائف الكلمات تبعا لمواضعها المختلفة في الجمل، وما يقصده بالي من هذا المفهوم هو العلاقة الموجودة بين كلمتين أو بين مجموعة من الكلمات المختلفة لكنّها تتفق في امتلاكها نفس الوظيفة النحوية.»[1] أفهم من هذا أن بالي اهتم بدارسة وظيفة العلامة اللغوية أو الكلمة على مستوى النظم أي درس وظيفتها النحوية في التركيب، فقد تؤدي كلمات مختلفة نفس الوظيفة النحوية، كالضمائر التي تعرب مبتدأ.

وترى الدكتورة وفاء كامل أن نظرية نقل الموضع أو كما تسميها المناقلة السانتجمية والوظيفية تبحث في المبادئ المتحكمة في تغيير العلامة اللغوية لوظيفتها النحوية مع الحفاظ على معناها المعجمي الأصلي.[2] مثلا: الفعل اخضّر بمعنى صار أخضر من كلمة أخضر.

أما العالم هنري فراي فقد انطلق من نفس مبدأ دي سوسير في التفريق بين اللغة والكلام، واهتم هو الآخر بالدراسة في مجال لسانيات الكلام غير أنه ركز على البحث في أنواع الإنحرافات التي تصيب اللغة في سعي المتكلم إلى التعبير عن حاجاته اللغوية. وفي هذا السياق حصر هذه الإنحرافات في مجموعة من الوظائف هيّ: التماثل (Assimilation)، التفرقة

---

[3] وائل بركات، مفهومات في بنية النص، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص:67 ،68.

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص 96.

[2] ينظر وفاء محمد كامل، النبوية في اللسانيات، ص 232.

(Différenciation)، الاختصار (Brièveté)، ظاهر البناء (Invariabilité) والوظيفة التعبيرية(Expressivité)[3] ولعله في هذا انطلق من مبدأ دي سوسيرالقاضي بأن العلاقات بين عناصر النظام اللغوي تقوم على التشابه والاختلاف ليصل إلى تحديد هذه الوظائف لكن على مستوى الكلام.

أما **وظيفة التماثل**: فتعني تحقيق التماثل والتسوية بين نظام العلامات اللغوية وبين الوحدات المتتابعة في العبارة وبصيغة أخرى فإن القيمة الدلالية للعلامة اللغوية تتحدد بحسب نتيجة التماثل بين العلاقات الاستبدالية والعلاقات التركيبية على المحورين العمودي والأفقي ويظهر هذا المعنى بوضوح في اللغة العربية. مثلا: جاءت العيون بالأخبار، فكلمة: "العين" لها مجموعة مدلولات تترابط في الذهن منها: الجاسوس، عين الماء، عين الشمس وحاسّة البصر. ولكن المتكلم اختار معنى الجواسيس لأنه متماثل تركيبيا مع باقي عناصر العبارة.

وظيفة التفرقة: ويقصد بها التمييز من حيث الجانب الصوتي بين العلامات اللغوية المختلفة في المعنى وبالتالي التمييز الدلالي بينها[1]. ومثال ذلك: هزّ وأزّ حيث يظهر مبدأ التفرقة في استبدال الفونيمين الهاء والألف، وهذا ما نتج عنه اختلاف المعنى. فالهز هو الإزعاج والإقلاق أمّا الأز فهو شدة الإزعاج. ويبدو هذا المبدأ واضحا على المستوى الدلالي في النصوص الأدبية التي يغلب عليها المعنى الإيحائي للعلامات اللغوية.

وظيفة الاختصار: وتسمح هذه الوظيفة بالجمع بين عنصرين لإنتاج كلمات مركبة ذلك باستعمال عمليتي الحذف والتضمين.

وظيفة البناء: «وهي ما يسمح بإعطاء علامة ما نفس الصورة(الشكل) كيفما كانت وظيفتها النحوية.»[2] كالضمائر في اللغة العربية التي تلزم شكلا واحدا فتكون دائما مبنية. وتقابل هذه الوظيفة الإعراب الذي يلزم عنه تغيير أواخر الكلم.

الوظيفة التعبيرية: وتبدو هذه الوظيفة في أسلوب تعبير المتكلم وإبداعاته الخاصة التي يتميز بها خطابه الذي تظهر فيه سماته الفردية. وباستعمال المتكلم لهذه الوظيفة يخرج عن إلزامية اللغة

---

[3] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:97.

[1] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص98.

[2] المرجع نفسه، ص:99.

كظاهرة اجتماعية، ذلك أنه قد يحرّف العلامات اللغوية والعبارات باستعمال المجاز أو التشبيه أو غيره من الأساليب التعبيرية، فينطبع أسلوبه بطابع شخصي خاص به.

وفراي بحصره لهذه الوظائف يفرق بين اللغة كمنظومة موجودة في أدمعة أفراد المجتمع وبين الكلام كإنجاز فعلي فردي يتميز بالإبداع والذكاء. « وفي اعتماد فراي على هاتين الوظيفتين (المماثلة والتفريق) يكون قد أدى عملا إجرائيا هاما أثرى به ذلك المبدأ السوسيري الهام الذي يبدو من خلاله كل شيء في اللغات يعمل بآلية التشابه والاختلاف.»[3] يبدو لي أن فراي قد وسَّع مفهوم دي سوسير الخاص بالتشابه والاختلاف بين العناصر اللغوية إلى مفهومي المماثلة والتفريق وبهذا نقل المفهوم السوسيري من المستوى النظري التجريدي المرتبط باللغة إلى المستوى العملي التطبيقي المرتبط بالكلام وهذا في مجال لسانيات الكلام.

ولئن كانت مدرسة جونيف أولى المدارس التي قامت على مبادئ دي سوسير إلا أنّ روادها خالفوه في أهم نقطة قامت عليها نظريته اللسانية وهي دراسة اللغة كموضوع للسانيات، إذا ركزوا دراستهم على لسانيات الكلام.

2) مدرسة براغ (المدرسة الوظيفية):

نشأت هذه المدرسة كحلقة لسانية في براغ تحت اسم "حلقة براغ اللسانية" سنة 1926، والتي أسسها العالم التشيكي فيلم ماثسيوس(Vilem Mathesius)(1882م-1945م) الذي درس ودَّرس في براغ فكان أستاذ اللغة الإنجليزية بها. ويعد من رواد الدراسة الوصفية التزامنية. وقد« التف حول "ماثسيوس" مجموعة من الباحثين المتفقين فكريا الذين بدأوا يعقدون اجتماعات للبحث المنظم منذ1926م وما بعدها وقد عرفوا بجماعة مدرسة براغ(حتى تفرقوا عند قيام الحرب العالمية الثانية).»[1] لقد ضمت هذه المدرسة علماء من مختلف البلدان اشتركوا في نفس الأفكار واتبعوا المنهج ذاته في معالجة القضايا اللسانية منهم لغويين تشيك: ماتيسيوس(V.Mathesius) ، وترنكا (B.Trinka) وهافرنك(B.Havrank)، وفاشيك(J.Vachek)، وثلاثة من الروس المهاجرين: رومان

---

[3] المرجع نفسه، ص:99.

[1] جيفري سامبسون، المدارس اللغوية-التطور والصراع-، تر:أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1416هـ-1993م، ص:106.

جاكبسون(R.Jakobson)،تروبتسكوي(N.Troubertzhoy)وكارسفسكي(Karisvesky)

.

وبهذا تكون هذه المدرسة قد ظهرت بعد عشر سنوات من نشر كتاب دي سوسير سنة 1916م ولا ريب أنها استفادت من أفكاره الأساسية فانطلقت منها وكونت لنفسها نظرية لسانية متميزة تبلورت في أعمال رومان جاكبسون وتروبتسكوي وكارسفسكي الذين عرضوا مجموعة من المبادئ « أمام المؤتمر الأوّل للسانيين الذي انعقد بمدينة لاهاي بهولندا سنة 1928م تحت عنوان "النصوص الأساسية لحلقة براغ".»[2] وتمثلت هذه النصوص في مجموعة من المبادئ التي قامت عليها الدراسات اللسانية في هذه المدرسة. كما صاغ هؤلاء العلماء منهج دراستهم سنة 1929م لتتواصل أعمال هذه المدرسة مرّكزة على الدراسات الصوتية المعروفة بالفونولوجيا (علم الأصوات الوظيفي أو علم وظائف الأصوات) حتى عرفت بالمدرسة الفونيمية لأنّ روادها اهتموا بدراسة الفونام.

واصلت هذه المدرسة نشاطها وخاصة في الدراسات الصوتية من خلال المؤتمرات المنعقدة في مختلف البلدان، واستمر هذا النشاط وخاصة في سنوات الثلاثينات والأربعينات. وتمثل بعد ذلك في بعض الأعمال الوظيفية.

منهجها:

تعد أعمال هذه المدرسة أوّل تعميق منهجي لنظرية دي سوسير إذ انطلقت من فكرة أن اللغة نظام من العلامات المرتبطة فيما بينها بعلاقات فبنوا على أساسها نظرتهم الوظيفية للغة. فكان أهم مبدأ قامت عليه هذه المدرسة هو أنه« يجب تصور اللغة كنظام وظيفي. ويصّر البراغيون- بدرجة متساوية- على المصطلحين: نظام ووظيفة. فيؤكدون من جهة على عدم فهم أي حدث لغوي دون الرجوع إلى النظام الذي ينتمي إليه. ومن جهة أخرى فإن هذا النظام هو قبل كل شيء نظام من الوسائل الخاصة بتحقيق هدف.»[1] أتصور أن علماء براغ يعتبرون اللغة نظام من الوظائف ذلك أن كل علامة لغوية في هذا النظام تقوم بوظيفة معينة، لذا يصبح النظام اللغوي عبارة عن مجموعة وسائل تقوم بوظائفها للوصول إلى تحقيق هدف معين. وبهذا التصوّر للغة اعتمد

---

(2) أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:110-111.

(1) J.P Bronckart, Théories du langage –une introduction critique- pierre Mardaga, Lièg 4ème édition, 1977, P139 – 140

الوظيفيون على منهج خاص في دراساتهم وهو المنهج الوظيفي الذي يقوم على دراسة وظائف العلامات اللغوية داخل النظام اللغوي.

وأما مصطلح الوظيفة فيطلق على« الدور التعبيري الذي يقوم به العنصر اللغوي في البنية النحوية سواء أكان فونيما أم مورفيما أم كلمة أم جملة، فهو كل عنصر لغوي يسهم في صنع المعنى وبناء الدلالة.»[2] يبدو لي أن هذا التعريف يحصر معنى الوظيفة في الدور النحوي للعنصر اللغوي سواء كان صوتيا أو صرفيا أو تركيبيا. ولكن مدرسة براغ بحثت في الجانب الوظيفي للغة دون حصرها في الوظيفة النحوية وإنّما سعت للبحث عن الوظائف في اللغة مهما كان نوعها ولذا اتبعت المنهج الوظيفي.

وتأسست النظرة الوظيفية على« التأكيد على الوظيفة (Function) سواء في جانب اللغة أو اللغوي، فوظيفة اللغوي في الحياة الثقافية، ووظيفة العناصر وعلاقاتها التركيبية ووظيفة اللغة في المجتمع، والوظيفة الجمالية للغة، ودورها في الأدب والفن الكلامي ومشكلة الجوانب المختلفة ومستويات اللغة من وجهة النظر الوظيفية كل أولئك كان موطن اهتمامهم. وهم حتى في دراستهم الصوتية قد نظروا إلى الجانب الوظيفي للنموذج الصوري داخل النظام العام للغة.»[3] هذا يعني أنهم درسوا وظائف اللغة في مختلف جوانبها وحتى تلك المتعلقة بما هو خارج عن اللغة، ووظيفة الباحث اللغوي بمحيطه ومجتمعه، وبهذا يكون البراغيون قد درسوا اللغة كأداة تواصل دراسة كلية بمستوياتها الصوتية و الصرفية و التركيبية و الدلالية.

ويشبه الوظيفيون اللغة بالآلة فيبحث اللغوي عن وظيفة كل جزء من أجزائها وكيف تؤثر طبيعة كل جزء على طبيعة الأجزاء الأخرى[4] و لم تكتفي هذه المدرسة بوصف الظاهرة اللغوية بل سعت إلى تفسير وظائفها. ومن أمثلة التفسير الوظيفي في مدرسة براغ: التقسيم الوظيفي للجملة إلى موضوع الكلام ومحموله عند ماتيسيوس حيث« دعا إلى تمييز تقسيم الجملة البنوي الشكلي عن تقسيم الجملة الوظيفي إلى موضوع الكلام ومحموله حسب السياق أو الموقف الكلامي الراهن

---

[2] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:109.

[3] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1995م، ص:177.

[4] ينظر جيفري سامبسون، المدارس اللغوية، ص:107.

الذي ترتبط به.»[1] هذا يعني أن ماتيسيوس يقسم الجملة من الناحية الوظيفية إلى موضوع الكلام (Thème) والذي يكون معلوما من قبل السامع إذ يتعلق بشيء يعلمه. ومحمول الكلام (Rhème) ويمثل معلومات جديدة حول الموضوع المعلوم أي أنه يحمل خبرا جديدا للسامع. فينطلق المتكلم من الموضوع كأساس للكلام ليصل إلى المحمول الذي يحمل جديدا. مثلا: الطالب مجتهد. يمثل الطالب موضوع الكلام وهو معمول لدى السامع، ويمثل مجتهد المحمول أو الخبر الذي يريد المتكلم إيصاله للسامع وعلى المستوى النحوي الطالب هو المسند إليه والمجتهد هو المسند.

ولهذا يبدو أن ماتيسيوس انطلق من فكرة الإسناد في المستوى النحوي ليقسم الجملة تقسيما وظيفيا بالإضافة إلى الخبر الجديد الذي يفيده المحمول ليكون الكلام تاما وهذا على المستوى الإخباري المتغير ويتم توصيل هذا الخبر بواسطة عملية الإسناد عن طريق ربط المستند بالمستند إليه.

وقد درس عبد القاهر الجرجاني اللغة في بيانها الوظيفي وربطها بالنحو فهو« حين بدأ مرحلة الدراسة الوظيفية أكد على ضرورة التنفيذ بقواعد النحو العربي التي بلورها سيبويه في "الكتاب"، وسار الجرجاني على منهج وصفي وظيفي يبين ارتباط البنية الأساسية، وأن بنيتها النحوية تقوم على توافر الإسناد فيها وتقوم البنية الإبلاغية على توافر الفائدة فيها» [2]أفهم من هذا أن الجرجاني درس اللغة دراسة وظيفية مراعيا قواعد النحو العربي ذلك أن الكلام هو رصف الكلمات حسب ما يقتضيه النحو، وهذا ما يؤدي إلى ارتباط بنية العبارة والتي لا بد فيها من عملية الإستناد أما من الناحية الإبلاغية فاللغة كنظام تواصلي تقتضي إفادة المتواصلين. وهنا يظهر وجه الاتفاق بين الجرجاني وماتيسيوس فالوظيفة التواصلية تقتضي مراعاة عملية الإسناد وإفادة السامع. يبقى أن أشير إلى أن التقسيم الوظيفي للجملة عند ماتيسيوس قد يتجاوز حدود القواعد في حين أن التقسيم في اللغة العربية لا بد له من مراعاة قواعد النحو.

مبادئ المدرسة الوظيفية:

---

[1] صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1994م، ص:234.

[2] المرجع نفسه، ص:236.

حدد رواد هذه المدرسة مجموعة من المبادئ التي قامت عليها الدراسات اللسانية الوظيفية. ويبدو لي أن هذه الأسس مستمدة من تلك المفاهيم السوسيرية التي مثلت محور الدراسات اللغوية بعد ظهور

كتاب دي سويسر، ومن مبادئ هذه المدرسة العناصر التالية:[1]

– اللغة نظام تواصلي يتكون من وسائل تعبيرية تتمثل وظيفتها الأساسية في إقامة التفاهم المتبادل ولذا لابد من دراسة هذه الوظيفة الفعلية، فتصبح اللغة نظاما من الوظائف المترابطة.

– اللغة حقيقة واقعية للعوامل الخارجية أثر كبير عليها كالمحيط الاجتماعي والسامع الذي يتلقى الرسالة وموضوع الرسالة أو التواصل ولذا لابد من التميز بين اللغة الأدبية ولغة الثقافة ولغة الصحافة ولغة المدرسة...

– يرى رواد هذه المدرسة أن اللغة تظهر جانبين: جانب ذهني أو عقلي وجانب عاطفي وجداني، ولهذا لابد للبحث اللغوي من دراسة تلك العلاقات بين الأشكال اللغوية التي تنقل أفكار وعواطف وانفعالات المتكلم.

– عدم تطابق اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة، ذلك أن لكل واحدة خصائصها المميزة لذا ينبغي البحث في العلاقة بينهما بطريقة علمية دقيقة.

– الاهتمام بالدراسة الآنية الوصفية لما لها من تأثير مهم على الدراسات اللسانية دون استبعاد تاريخ اللغة من الدراسة.

– اعتماد المنهج المقارن في دراسة اللغة على أن يتم تطويره ليدرس بالإضافة إلى الظاهرة موضوع البحث كل الحقائق اللسانية المرتبطة بها.[2]

– اهتمام البحث الفونولوجي « بتحديد أنماط التقابلات الفونيمية في اللغات المعنية ولا ينبغي فصل الظاهرة المورفولوجية عن الظاهرة الفونولوجية» [3]أي أن الدراسة الفونولوجية تهتم بالبحث في الفونيمات المتقابلة والتي تلعب دورا مهما في الدراسة المورفولوجية ولذا لا يمكن الفصل بين الدراستين.

---

[1] ينظر أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:168.

[2] ينظر وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:233.

[3] المرجع نفسه،ص:233.

إنّ هذه المبادئ التي عمل البراغيون على تحقيقها وتوسيعها بالبحث فيها تلتقي في كثير من الأحيان مع تلك المفاهيم الثنائية السوسيرية فبالنسبة لاعتبارهم اللغة نظاما تواصليا فإن هذه النظرة تمثل أساسا من أسس نظرية دي سوسير اللسانية. أما عن علاقة العوامل الخارجية باللغة فهم يولونها أهمية كبيرة في حين أنّ دي سوسير يدخلها تحت ما سماه باللسانيات الخارجية وإن كان يفصل اللغة كموضوع اللسانيات عن العوامل الخارجية ويرى أن التغيير في نظام اللغة ينبع من داخلها.

وتتفق مدرسة براغ مع دي سوسير في عدم تطابق اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة. لكن دي سوسير يجعل من اللغة المنطوقة موضوعا للدراسة اللسانية[1]. وفي مسألة الفصل بين الدراسة الآنية والدراسة التعاقبية فإنّ رواد هذه المدرسة وإن أعطوا الدراسة الآنية الأولوية في البحث اللساني إلاّ أنهم يتعاملون مع الظاهرة اللغوية بالمنهجين حسب ما تقتضيه الدراسة. « فلو كان علم اللغة الوصفي يدرس عناصر النظام من وجهة النظر الوظيفية فلا يمكن تقدير التغييرات التي تطرأ عليه دون دراسة النظم المؤثرة الأخرى وليس من المنطقي أن نتصور هذه التغيرات اللغوية كضربات هدّامة تتم بالصدفة وتتسم بالتنافر من وجهة نظر النظام. إذ أنها في حقيقة الأمر تعديلات تهدف لإعادة توازنه البنائي.» [2]حسب هذا القول أتصور أن الدراسة الوظيفية للغة مرتبطة بالمنهجين معا، ذلك أن البحث عن الوظائف في النظام اللغوي يقوم في حالة معيّنة، وهذا النظام نفسه تطرأ عليه تغيرات نتيجة لعدّة أسباب تهدف إلى الحفاظ على توازن هذا النظام ولذا لابدّ من دراستها عبر مختلف المراحل الزمنية.

وقد وجدت بعض الآراء في مدرسة براغ حول قضية الفصل بين الدراستين التزامنية والزمنية« ولعل أول من عالج من البراغيين بحسم التفرقة بين المنهجين، وحدد أسسهما العلاَّمة (Mathesuis) الذي حاول تجنب مساوئ كلا الخطين السابقين وتبنى لنفسه منهجا حاول فيه أن يجمع بين محاسن كل منهما. وقد ظهرت بذور هذه التفرقة في المحاضرة التي ألقاها (Mathesuis) في السادس من فبراير 1911م باللغة التشيكية أمام Royal Learnd Society

---

[1] ينظر فرديناند دي سوسير، دروس، ص:49.

[2] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص:114.

.» [3]هذا يعني أنّ ماتيسيوس قد تبنى منهجا مناسبا لدراسة الوظيفية فكان من رواد الدراسة الوصفية التزامنية. وقد تبع البراغيون منهج مؤسسها ورأوا أن الدراسة العلمية للغة تقتضي معالجة الظواهر اللغوية بمنهج تزامني بغرض رصد الخصائص اللغوية لكل لغة، أي وصفها في حالة معينة ومستقرة(Static) لتنتقل بعدها إلى دراسة تاريخية زمنية متحركة(Dynamic) ذلك أن كل دراسة زمنية تتطلب دراسة تزامنية لكل مرحلة من مراحلها، أما دراسة اللغات الحية فلابد لها أن تنطلق من المرحلة المعاصرة لتوفر المادة موضوع الدراسة مباشرة.

لقد عارض الوظيفيون النظرة التمييزية التي أقامها دي سوسير بين اللغة والكلام ورأوا أنها لا تعدّ « أساسا واقعيا للبحث اللغوي فما كان يعتبره العالم السويسري كلاما لا يعدو أن يكون تعبيرات – أو جزءا من تعبيرات – ينبغي أن نتلمس فيها مجموعة من القواعد البنائية اللازمة لها.» [1]أعتقد أن مدرسة براغ – وعلى عكس دي سوسير- أقرت ضرورة دراسة الكلام دراسة لسانية والبحث عن قواعده.

التحليل الفونولوجي ونظرية الفونام:

مثلت الدراسات الفونولوجية محور اهتمام العلماء في مدرسة براغ وخاصة تروبتسكوي ورومان جاكبسون حتى اشتهرت بنظرية الفونام وسميت المدرسة الفونيمية.انطلقت الدراسة الصوتية عند البراغيين من تفريق دي سوسير بين الفونتيك والفونولوجيا إذ اعتبر الأولى دراسة تاريخية للأصوات تبحث في تطورها والتغيرات التي تطرأ عليها؛ وبهذا هو فرع من علم اللغة. أما الثانية فتدرس عملية النطق والجهاز الخاص بها فهي عنصر مساعد.

أما مدرسة براغ فنظرت إلى الفونولوجيا على أنها « ذلك الفرع من علم اللغة الذي يعالج الظواهر الصوتية من حيث وظيفتها.» [2] هذا يعني أن علم الأصوات الوظيفي يعنى بدراسة الوظائف الصوتية وعلاقة الأصوات ببعضها البعض وعناصرها التركيبية وخواصها. « وقد حاز عالم اللغة الروسي نيكولاي سيرجيفتش تروبتسكوي(1890م-1938م) - عضو مدرسة براغ-

---

[3] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:175.

[1] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص: 112

[2]فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون- دراسة ونصوص- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،
بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ- 1993م، ص:31.

شرف أن يكون المؤسس للفونولوجيا، وقاده إلمامه الواسع بلغات متنوعة إلى استنباط ملاحظاته المهمة الأولى على النظم الصوتية. وقد وصف تروبتسكوي منهجه في تحليل أصوات اللغة بأنه علم جديد. وأطلق اسم الفونولوجيا Phonology.»[3] فقد أسس تروبتسكوي الفونولوجيا وفصل بينها وبين الفونتيك إذ حدّد موضوعها بأنه« وصف الوحدات الصوتية التي تؤلف المستوى الدال في اللغة.» [4]ويهدف هذا العلم إلى وصف الوحدات الصوتية للوصل إلى تحديد وظيفة كل منها على مستوى الدال.

يعتبر الفونام واحدا من أهم أسس التحليل الفونولوجي عند البراغيين حتى عرفت هذه المدرسة به فظهرت نظرية الفونام التي تطورت على يد علماء هذه المدرسة والتي مثلت أساس التحليل الفونيمي.

نظرية الفونام:

اختلفت وجهات نظر العلماء حول مفهوم الفونام، فتعددت تعاريفه بتعدد توجهاتهم فعرّفه ماتيسيوس بأنه« الصوت المرتبط بمعان وظيفية.» [1]يبدو هذا التعريف معبّراعن وجهة نظر المدرسة الوظيفية القائمة على دراسة وظائف العناصر اللغوية. فالصوت يقوم بوظيفة تحديد المعنى كالأفعال كال- جال- نال نجد أنّ الصوت الأول غيَّر معنى الفعل. أما تروبتسكوي فيرى أنه« الوحدة الصوتية المتميزة»[2] هذا يعني أن الفونام وحدة فونولوجية ينجم عن استبدالها بأخرى تغيير في المعنى. ونجد نفس المعنى في تعريف ترنكا الذي يرى أنه« كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي.» [3]إذ يربط الفونام بالمعنى الذي يؤديه. تتفق هذه التعاريف على اعتبار الفونام وحدة فونولوجية أو صوتا يؤدي وظيفة في تحديد المعنى على مستوى الدال.

---

[3] وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:233.

[4] المرجع نفسه، ص:234.

[1] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:184.

[2] المرجع نفسه،ص: 184.

[3] المرجع نفسه، ص:184.

أما فاشيك ورومان جاكبسون فقد اختلفت تعاريفهم للفونام عن المجموعة الأولى فيرى فاشيك أنه« المقابل الوظيفي القابل للانتفاع به في اللغات، والذي يتحقق واقعيا في مجموعة من الأصوات تشكل جميعا وحدة وظيفية.» [4] يبدو أنه ركز على الجانب التركيبي للفونام الذي يتمثل في مجموعة أصوات تؤدي وظيفة. في حين يعرفه رومان جاكبسون صاحب نظرية الثنائية (Binarisme) بأنه« مجموعة من السمات المميزة التي تنبع من الخصائص النطقية والسمعية المحددة لكل صوت من أصوات اللغة مثل موضع النطق وصفته.» [5] يربط جاكبسون مفهوم الفونام بالجانبين النطقي والسمعي-وفي هذا يلتقي مع تعريف دي سوسير للفونام- إذ إنهما يحددان سمات الفونام التي تميزه عن غيره، وبهذا فهو يتضمن ملامح تمييزية (Distinctive features) تتصل بهذين الجانبين تعمل على اختلاف الفونيمات وتنوعها بقدر ما تحمله من هذه الملامح أو المكونات.

لم يتفق البراغيون على تعريف محدد للفونام فمنهم من اعتبره وحدة فونولوجية ومنهم من اعتبره مجموعة سمات أو أصوات تؤدي وظيفة في الوحدة اللغوية، وأدى هذا الاختلاف حول المفهوم إلى اختلاف آخر حول مكونات الفونام.

مكونات الفونام:

اختلف العلماء حول تحديد مكونات الفونام، فيرى فريق منهم أنه يتكون من مجموعة سمات مميزة - وهذا رأي جاكبسون- وعلى هذا فإن تحليله ينتج مجموعة من الصفات أو الملامح المميزة له عن غيره يستمدها الفونام من الجانبين النطقي والسمعي. وقد طبق جاكبسون هذا التركيب البنائي للفونام في نظريته الثنائية القائمة على تحديد ثنائي تتقابل فيه السمات المميزة للفونيمات على شكل أزواج منها صامت/صائت – مجهور/مهموس –أنفي/غير أنفي... فنقول مثلا: الذال يحتوي على سمة (+جهر) التي تميزه عن الثاء الذي يحتوي على سمة (-جهر). فالجهر إذن ملمح تمييزي فارق بين الوحدات الفونولوجية. وتعرف هذه الثنائية عند جاكبسون بثنائية موسوم/غير موسوم « فالوسم إذن يستعمل للتمييز بين الوحدات من حيث وجود السمة التمايزية

---

[4] المرجع نفسه، ص:184.

[5] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:32.

وغيابها، ولا وجود للموسوم إلا بوجود غير الموسوم.» [1] هذا يعني أن الفونام الذي يحمل ملمحا تمييزيا أو صفة يكون موسوما، والذي لا يحملها يكون غير موسوم. ويقوم كل ملمح على وجود مقابله في نفس اللغة.

ويرى فريق آخر أنّ « هذا الفونيم أو الأسرة تحتوي على أكثر من عضو (member) ويظهر فيها عضو هام أو أساسي(Principle member) بجانب الأعضاء المساعدين(Subsidry member) الذين يمثلون الأصوات المتقاربة والمشتركة مع هذا الصوت الأساسي.» [2] فيمثل الفونام أسرة تحتوي على مجموعة أفراد فيها عضو أساسي والباقي أصوات مقاربة له وتستمد تنوعها من استعمال كل منها وموقعه في الكلمة ومجاورته لغيره من الفونيمات تسمى هذه الأصوات: تنوعات(Variants). كصوت النون في تأثره بالأصوات المجاورة له « فهو صوت أسناني إذا جاءت بعده أصوات الثاء والذال والظاء وصوت لثوي إذا جاءت بعده أصوات التاء والدال والطاء والغين والسين. وهو صوت حنكي إذا جاءت بعده أصوات الجيم والشين والباء.» [3]

و قد اقترح تروبتسكوي طريقة للتحقق من علاقة الفونيم بمكوناته تتمثل في النقاط التالية:[4]

1- إذ استحال على صوتين أن يظهرا في نفس الموقع دون أن يؤدي ذلك إلى تغيُّر في المعنى، فإنهما عبارة عن وحدتين مختلفتين. مثل:نام – صام.

2- إذا وقع فونيمان في نفس السياق الصوتي دون أن يتغير معنى الكلمة، فإنهما عبارة عن تنوعين عرضيين لفونيم واحد مثل مسيطر بالسين و الصاد.

3-« إذا كان صوتان في لغة ما بينهما علاقة أكوستيكية أو نطقية، ولا يمكن أن يقعا في نفس البيئة الصوتية، فإنهما يعتبران تنوعات تكاملية(Combinatery VAriants) لنفس الفونيم.» [1] مثل: اللام في كلمتي؛ الله – بسم الله أي التفخيم و الترقيق .

---

[1] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:45.

[2] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:175،176.

[3] المرجع نفسه، ص:176. (الهامش).

[4] ينظر وفاء محمد كامل، البنيوية في اللسانيات، ص:258. (الهامش).

[1] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:194.

ومهما تكن مكونات الفونام فهو أصغر وحدة صوتية في الدال تقوم بوظيفة التمييز بين العلامات اللغوية. وقد حدد تروبتسكوي ثلاث وظائف للوحدات الفونولوجية هي:

❖ **الوظيفة التزايدية**(Fonction culminative):« التي تشير إلى كمية الوحدات الفونولوجية التي تحتوي عليها جملة معينة.» [2] ولعل المقصود بها تحديد عدد الفونيمات في جملة ما سواء كانت مقطعية أو فوق مقطعية كالنير و التنغيم.

❖ **الوظيفة التحديدية**(Fonction démarcative):« والتي تهدف إلى وضع الحدود بين الوحدات الفونولوجية.» [3] أي أنها توضح الحدود بين الفونيمات.

❖ **الوظيفة التمايزية**(**Fonction Distinctive**):وتهدف إلى التمييز بين الوحدات الفونولوجية وتعد هذه الوظيفة أساس التحليل الفونيمي عند البراغيين.

ومجمل القول فإن منهم الدراسة الصوتية في المدرسة الوظيفية يقوم على عدة نقاط يمكنني تلخيصها كالتالي:

– إن الهدف من التحليل الفونولوجي هو معرفة ما في الوحدات اللغوية من عناصر صوتية تؤدي وظيفة معينة في النظام اللغوي و لذا فإن السمات و الملامح المميزة للفونام لا تهم إلا بقدر ما تقوم به من وظيفة في التبليغ، وعلى أساس هذه الوظائف يتم تصنيف الأصوات.

– اعتبار تروبتسكوي الصوت أمرا مجردا من جهة وواقعيا اجتماعيا من جهة أخرى. فهو مجرد لاختلاف التلفظ به في الكلام من فرد للآخر واجتماعي لأنه رغم اختلاف النطق به إلا أنه لا يمنع عملية التفاهم والتواصل بين أفراد المجتمع. وعلى هذا فإن المحلل الصوتي لابد له من مراعاة الجانب النطقي في دراسته للأصوات بالإضافة إلى وظيفتهما في الإفادة [4] .

– الصوت إذ لم يكن له دور في التمييز بين العلامات اللغوية فليس فونيما، ولا يمكن تصنيفه في جدول أصوات اللغة لأن« أساس التحليل الصوتمي هو ما يسمى بالوظيفة التمييزية (Fonction Distinctive) أي التمييز بين الوحدات المفيدة. ومما ييسر عمل الصوتمي أنه يمكن وصف النظام

---

[2] ميشال زكريا، الألسنية(علم اللغة الحديث)، ص:237.

[3] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:115.

[4] ينظر عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:44.

الصوتمي في اللغة على أساس هذه الوظيفة وحدها.»[1] هذا يعني أن اعتماد الباحث الصوتي على الوظيفة التمييزية يسهل عليه تصنيف الأصوات بحسب وظيفتها.

– اعتماد التحليل الصوتي على صفة الخطية في الكلام، ذلك أن مرتبة الفونام في الكلمة تفيد عملية التحليل بقدر ما تفيدها الفروق الصوتية التي تميز الفونام عن غيره من الفونيمات الأخرى[2] ؛مثلا: تاب وبات فالفونيمات الموجودة في الكلمتين تؤدي وظيفتها باختلافها عن بعضها وباختلاف مرتبة التاء والألف والباء بين الحالة الأولى والثانية.

– اعتماد منهج الدراسة الصوتية على مبدأ التعويض (Commutation)[3] ؛ذلك أنه على الباحث الصوتي أن يقارن بين الوحدات اللغوية وتعويض الأصوات ببعضها ليتأكد من حقيقتها وبالتالي يتوصلا إلى تصنيفها ضمن أصوات اللغة. مثلا: باع تعويض الباء لأصوات أخرى يغير معنى الكلمة كضاع وشاع. فتصبح الضاد والشين فونيمين من فونيمات اللغة العربية وتصنف في جدول أصواتها.

وبهذا تكون المدرسة الوظيفية قد أولت الدراسة الصوتية أو التحليل الفونولوجي خاصة عناية كبيرة وأهمية بالغة وإن لم تهمل الدراسة التركيبية التي تبلورت مع علماء من خارج براغ.

بين رومان جاكبسون ودي سوسير:

لقد امتاز العالم الروسي رومان جاكبسون عن غيره من اللسانيين« بالنشاط الألسني المتنوع والمساهمة في تأسيس الحلقات الألسنية العلمية وانطبعت (حياته) بالانتقال إلى بلدان متعددة وبالتدريس في أرقى الجامعات العالمية. وقد ساعده ذلك كثيرا، إذ أتاح له القيام بالأبحاث الألسنية المتنوعة والمتطورة والالتقاء بكبار الألسنيين والتعاون معهم.» [4] فقد شارك جاكبسون في تأسيس

---

[1] ينظر عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، ص:45.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص:45

[3] ينظر المرجع نفسه، ص:45.

[4] ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د.ت.ن، ص:163.

[1] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:29.

عدة حلقات لسانية نتيجة لتنقلاته بين مختلف البلدان، فأسس نادي موسكو الألسني وهو ما أصبح يعرف بالمدرسة الشكلية

الروسية فدرس في إطارها الأشكال الأدبية ثم حلَّ ببراغ حيث شارك في تأسيس حلقتها اللسانية واهتم فيها بالدراسات الفونولوجية، فبنى نظريته الثنائية ثم انتقل إلى عدة دول أوربية فدرّس في جامعاتها ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية أين أسَّس حلقة نيويورك الألسنية. كما التقى بشخصيات لسانية وتعاون معها. كتروبتسكوي ونوام تشومسكي.ولهذا جاء فكره اللساني نتيجة للتجارب التي عاشها والمراحل التي مرَّ بها في حياته. فكان فكره غزيرا ومتنوعا شمل الدراسات الأدبية واللغوية وعلم النفس.

وقد عالج جاكبسون تلك المفاهيم التي جاء بها دي سوسير، فهو في دراسته« يستند إلى مبادئ دي سوسير لا ليتبناها كما هي،بل ليبني انطلاقا منها مبادئ تتمتع بشخصيتها المنفردة ودقتها وثباتها.»[1] فقد انطلق من مفاهيم دي سوسير ليؤسِّس مفاهيمه الخاصة في دراسته للغة والأدب.

- ✓ **التزامن والتعاقب:**

فبالنسبة لثنائية التزامن والتعاقب فقد اهتم بها جاكبسون في إطار دراسته اللسانية ليطبقها بعد ذلك على الدراسات الأدبية والشعرية فأخذ هذه الثنائية كما وضعها دي سوسير لكنه انتقد« الفصل بين التزامن والتعاقب، واعتبر أن لا مبرر له. لأن كل بنية لغوية كانت أم أدبية تعمل في حركة وتطور ثابتين ومستمرين مما يجعلهما بنية تعاقبية في حين أن انتماءها إلى نظام ثابت ومنهجي أيضا يجعلها كذلك بنية تزامنية. ولو أخذنا نصا ما لوجدنا فيه عناصر تتفاوت في قدمها، وذلك لأن الحقائق اللغوية لا تتطور جميعها بالسرعة نفسها. ويعتبر جاكبسون أن التزامن الخالص لا وجود له. فكل نظام تزامني يتضمن ماضيه ومستقبله اللذين يكوّنان عناصره البنيوية اللازمة له.» [2] هذا يعني أنه يعتبر الفصل بين الدراستين من باب التقسيم النظري لأن الجانب التطبيقي يقتضي التعامل مع الظاهرة اللغوية بالمنهجين فما هو تزامني الآن يصبح زمنيا بعد حين

---

[2] المرجع نفسه، ص:35.

[3] أحمد مومن ،اللسانيات، النشاة والتطور ،ص: 148 .

فهو يربط دراسة البنية اللغوية بتطورها من جهة وباعتبارها جزء من نظام لغوي يقوم على الثبات من جهة أخرى. مما يجعله يزاوج بين الدراستين.

و يرى أن لا وجود للتزامن التام ذلك أن كل نظام يحمل بين عناصره ماضيه ومستقبله بالإضافة إلى أن« الطابع الوظيفي للغة يجب أن يشمل ليس الحالة الآنية للغة فحسب، بل الحالة التاريخية وذلك من خلال دراسة التطور اللغوي عبر العصور.»[3] وهذا مبدأ هام من مبادئ رومان جاكبسون باعتباره

رائدا من رواد المدرسة الوظيفية على عكس دي سوسير الذي ركز على الدراسة الآنية للغة

ولعل هذا الاختلاف بين دي سوسير وجا كبسون راجع إلى اعتماد الاول على نظريه الزمن المطلق في الفيزياء التقليدية وارتكاز الثاني على النظرية النسبية والفن التكعيبي ولذا يقول بنسبية الزمن[1] .

- ✓ **المحور الاستبدالي والمحور النظمي:**

يرى دي سوسير أن العلاقات بين العلامات اللسانية في النظام اللغوي تتحدد بنوعين: علاقات أفقية تركيبية وعلاقات عمودية استبدالية.وقد تبنى جاكبسون هذه الثنائية السوسيرية وطبقها في دراسته، لكنه حدّد لكل محور منها أهميته ودوره ذلك أنّ معنى الوحدة اللغوية يقوم على عمليتين أساسيتين:[2]

تتمثل الأولى في مقارنة العلامة اللغوية المختارة مع العلامات المماثلة والتي يمكن أن تأخذ مكانها في التركيب وهذه العملية تتم على المحور الاستبدالي.

أمّا الثانية فتتمثل في العلاقات القائمة بين العلامة اللغوية والعلامات التي تجاورها في السياق. وهذا يعني أنه لابد من تصور العلامة اللغوية على المستويين لفهم معناها.

وقد جعل جاكبسون هذه الثنائية أساسا في دراسته البلاغية للغة الأدبية إذ« استعمل المحور النظمي كمرادف للمجاز المرسل، والمحور الاستبدالي كمرادف للاستعارة.»[3] يبدو لي أن مقابلته

---

[1] ينظر فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:36.

[2] المرجع نفسه، ص:37.

[3] المرجع نفسه، ص:38.

هذه قائمة على أساس أن المجاز المرسل يقوم على التنسيق والتجاور بين الكلمات في العبارة في حين أن الاستعارة مبنية على انتقاء واختيار الكلمات والتشابه بينها لتناسب المعنى.

✓ **الفونتيك والفونولوجيا:**

فرق دي سوسير بين الفونتيك والفونولوجيا، فاعتبر الأولى علما تاريخيا يدرس التغيرات الصوتية، وهو بهذا فرع من علم اللغة، أما الثانية فقصرها على دراسة عملية النطق والجهاز القائم عليها، ولذا عدّها نظاما مساعدا[4]. بينما يرى جاكبسون أن « لفظة فونولوجيا تطلق على مجموعة الوظائف اللغوية التي يؤديها الصوت في حين تهدف الفونتيك إلى جمع المعلومات حول المادة الصوتية الخام من حيث خصائصها الفيزيائية والفيزيولوجية.» [5] ظهر من تعريف جاكبسون لهذين العلمين أنه حدّد موضوع كل علم منهما وحصره في وظيفة معينة.فجعل موضوع الفونتيك دراسة الأصوات كمادة من جانبها الفيزيائي كانتقال الموجات الصوتية بين المتكل والمستمع، ومن جانبها الفيزيولوجي كعمل جهاز النطق. أما الفونولوجيا فتعنى بدراسة وظائف الأصوات وعلاقاتها ببعضها في العلامة اللغوية. وفي إطار هذا العلم وضع نظريته الثنائية حول السمات المميّزة للفونام.

وبالإضافة إلى ثنائيات دي سوسير فقد وضع جاكبسون مجموعة من الثنائيات ميزت تفكيره اللساني منها:

– الانتقاء والتنسيق:

استخلص جاكبسون هذه الثنائية من دراسته للكلام الذي يقوم على عمليتين أساسيتين هما: الإنتقاء والتنسيق حيث تسبق الأولى منهما الثانية. أما الانتقاء(Sélection)
فيتمثل في اختيار المتكلم لبعض العناصرمن رصيده اللغوي سواء على مستوى الفونيمات لتأليف وحدات لسانية أو على مستوى الكلمات لتأليف الجمل التي بدورها تؤلف عبارات[1].فالمتكلم هو المتحكم في عملية الانتقاء فيختار ما يناسبه من فونيمات ليكوّن علامة لسانية ثم ما يناسبه من كلمات ليكوّن جملا وعبارات تؤدي المعنى المطلوب.

---

(4) Voir Ferdinand De Saussure, C.L.G, P :56

(5) فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:31

(1) فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:38

أما عملية التنسيق (Combinaison) فتتمثل في كيفية التأليف والتركيب بين الفونيمات المكوّنة للوحدات الصوتية وبين الكلمات المكوّنة للجمل ثم الجمل المكوّنة للعبارات[2]. ويعتمد المتكلم في هذه العملية على النحو لتركيب الجمل والعبارات ذلك أنّه أساس النظم ولاسيما في اللغة العربية. فيكون التنسيق تتمة لعملية الانتقاء.

- **موسوم وغير موسوم:**

لعل المقصود بهذه الثنائية تميّز عنصر بصفة أو سمة معينة في مقابل انعدامها في عنصر آخر. والوسم يرتبط بجميع المستويات إذ« تكون الوحدة اللغوية "موسومة" (Marquée) إذا امتلكت خاصة فونولوجية أو صرفية أو سياقية أو دلالية تعارضها مع وحدات من الطبيعة نفسها في اللغة ذاتها. وهذه الوحدة الموسومة تكون عندئذ الحالة الموسومة للتعارض الثنائي حيث تسمى اللفظة المقابلة والخالية من هذه الخاصة "غير موسومة" (Non marquée).»[3] ، هذا يعني أن جاكبسون طبّق نظريته الثنائية على كل مستويات اللغة وليس على المستوى الصوتي فقط وعلى هذا الأساس فإنّ تميّز وحدة لغوية بصفة معينة يجعلها موسومة وتقابلها وحدة لغوية لا تملك هذه الصفة فتسمى غير موسومة. لكن أبرز تطبيق لهذه الثنائية تمثل في السمات التمايزية في التحليل الفونولوجي.

- **اللغة الهدف وما وراء اللغة:**

اللغة كأداة تواصل تتجلى في جانبين أحدهما فردي يتمثل في ذلك الرصيد اللغوي الذي يملكه كل فرد من أفراد المجتمع والآخر اجتماعي وهو ما يستعمله الأفراد في عملية التفاهم والتواصل في المجتمع. وانطلاقا من هذا المفهوم تصوّر جاكبسون أنّ اللغة تنقسم إلى قسمين:« اللغة الهدف (الحسية)(Langue objet) وما وراء اللغة (المجردة) (Métalangage) »[1] وجعل منهما طرفي ثنائية في إطار دراسته للغة. وتظهر هذه الثنائية بوضوح في عملية شرح الكلمات إذ تكون الكلمة المراد شرحها هيّ اللغة–الهدف في حين يمثل شرحها في ما وراء اللغة. وتلعب هذه الثنائية أو العملية دورا هاما في اكتساب الطفل للغته الأم بالإضافة إلى أننا نقوم بهذه الآلية باستمرار في تواصلنا اليومي، ولذا فهي تكتسي أهمية بالغة في عملية التواصل.

---

[2] المرجع نفسه، ص:38.

[3] المرجع نفسه، ص:44.

[1] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:39.

الخطاب الداخلي والخطاب الخارجي:

يتطلب التواصل وجود قطبين أساسيين يقوم عليهما وهما: المتكلم الذي يرسل الرسالة والمتلقي أو المرسل إليه الذي يستقبلها ويقوم بفك رموزها بالإضافة إلى المرسلة التي تنتمي إلى النظام اللغوي المشترك بينهما. وعلى هذا الأساس قسّم جاكبسون التواصل أو الخطاب بحسب هذين الطرفين إلى خطاب داخلي وخطاب خارجي. ويكون النوع الأول بين المرء ونفسه« ويتخذ التواصل الداخلي أشكالا كثيرة، فالتواصل داخل الفرد هو أبعد من أن يحدّ بإشارات كلامية فقط، بل يستتبع أشكالا كثيرة وعديدة. فالإنسان الذي يربط في منديله عقدة لتذكره بأمر هام عليه القيام به، والفرد الذي ينقل خاتمه من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى أو الذي يحمل بيده شيئا معينا إنّما هي إشارات بسيطة يرسلها مرسل الرسالة إلى متلقيها (ذاته).» [2] هذا يعني أنّ المرسل والمرسل إليه شخصا واحدا، ويأخذ هذا النوع من التواصل أشكالا عديدة كالإشارات والسلوكات وغيرها.

بينما يكون الخطاب الخارجي بين المتكلم والمتلقي بوجود مرسلة بينهما بشكل عادي بغرض التواصل وعلى هذا يكون التواصل الداخلي ذاتي وفردي أما الخارجي فهو اجتماعي أداته اللغة أو الإشارات والرموز أو حركات الجسم وغيرها.

- **التواصل بالكلام والتواصل بالكتابة:**

في دراسته لوظائف اللغة اهتم جاكبسون بالوظيفة التواصلية التي تتيح للإنسان عملية التفاهم مع أفراد مجتمعه فوجد أن« لهذه الوظيفة طابعا ثنائيا أيضا يكمن في وجود شكلين من التواصل: التواصل

في دراسته لوظائف اللغة اهتم جاكبسون بالوظيفة التواصلية التي تتيح للإنسان عملية التفاهم مع أفراد مجتمعه فوجد أن« لهذه الوظيفة طابعا ثنائيا أيضا يكمن في وجود شكلين من التواصل: التواصل بالكلام (Communication orale)والتواصل بالكتابة

[2] المرجع نفسه ص: 41

(Communication écrite)» [1]فالمتكلم أو المرسل يتواصل مع محيطه الاجتماعي إما شفهيا بالكلام باستعمال وسائل لفظية مباشرة أو بواسطة الوسائل التقنية الحديثة كالتلفاز والراديو... وإمّا كتابيا باستعمال الكتابة التي تمكّن من حفظ الكلام ونقله من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر. ويعدّ النوع الأوّل أكثر شيوعا بين الناس لأنّه يشمل كل فئات المجتمع، في حين أنّ الثاني أقل شيوعا لأنه يختص بمن يعرف الكتابة والقراءة.

ويرى جورج مونان أن الثنائية عند جاكبسون« تتمثل في ميله الفلسفي إلى إرجاع كل المشكلات إلى تقابل الكلمتين مهملا بذلك تشابك الوقائع. وهذا اتجاه واضح جدا في فونولوجيا جاكبسون الأمريكية.» [2] وتمثل الأصول الفلسفية في التفكير الثنائي لجاكبسون نقطة التقاء أخرى بينه وبين دي سوسير.

وظائف اللغة:

لقد وجدت قبل رومان جاكبسون عدة تصورات حول عملية التواصل منها ذلك التصور الذي قدّمه دي سوسير حول حلقة الكلام؛ والمتمثل في كيفية انتقال المرسلة بين الباث والمتلقي إذ ركز دي سوسير في تصوّره هذا على العناصر الأساسية في عملية التواصل وهي: الباث والمتلقي والمرسلة فيكون الباث هو الفاعل والمتلقي هو المنفعل تنتقل بينهما مرسلة عن طريق ذبذبات صوتية. وقد قسم هذه العملية إلى أجزاء خارجية وأخرى داخلية، تتمثل الخارجية في انتقال الذبذبات الصوتية من فم الباث إلى أذن المتلقي وما عدا ذلك فقد عدّه قسما داخليا، كما حدّد الجانب النفسي في هذه العملية بكل ما يختص بالدماغ، أما غير النفسي فيشمل الظواهر الفيزيائية والفيزيولوجية[3].

أما جاكبسون فقد طور هذه النظرية فأضاف لها عناصر جديدة كما حدد لكل عنصر وظيفة

يختص بها ويمكن تمثيلها في المخطط التالي:[1]

مرجعية

---

[1] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:49.

[2] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:154.

[3] المرجع نفسه ، ص:33.

[1] ينظر ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص:55.

انفعالية شعرية ندائية

إقامة اتصال

تعدي اللغة

فالمرسل يرتبط بوظيفة انفعالية، أما المرسل إليه فتقابله وظيفة ندائية والمرسلة تقابلها الوظيفة الشعرية، والسياق يختص بالوظيفة المرجعية، أما إذا حرص المرسل والمرسل إليه على الاتصال فتدعى هذه بوظيفة إقامة الاتصال، وبالنسبة لنظام الرموز الذي تنتمي إليه الرسالة فيرتبط بوظيفة تعدي اللغة.

الوظيفة الانفعالية:(fonction émotive)

وتعكس هذه الوظيفة الموقف الشخصي للمرسل إزاء الموضوع الذي تتحدث عنه الرسالة فتبرز الحالة الانفعالية أو النفسية للمرسل أثناء عملية الاتصال من خلال التعابير الدالة على هذه الحالة، كأن يقول الولد لأبيه: أسعدني مدحك لي.

الوظيفة الندائية:(fonction conative)

تركز هذه الوظيفة على المتلقي وتظهر في أساليب الطلب والنداء والأمر... وتهدف إلى إثارة انتباه وتركيز المخاطب ولذا فقد يتكرر فيها ضمير للمخاطب، كقول الأب لابنه: أوصيك بحسن الخلق.

الوظيفة المرجعية : (fonction référentielle)

« تظهر هذه الوظيفة في المرسلات ذات المحتوى الذي يتناول موضوعات وأحداث معينة. تشكل هذه الوظيفة التبرير الأساسي لعملية التواصل ذلك أننا نتكلم بهدف الإشارة إلى محتوى معين نرغب في إيصاله إلى الآخرين وتبادل الآراء معهم حوله.»[2] ؛هذا يعني أنها تقوم على تحديد العلاقة بين الرسالة والمرجع الذي تحيل إليه والذي قد يكون شيئا واقعيا ماديا وقد يكون ذهنيا يتصوره الباث والمتلقي، ولذا تعد أهم وظيفة في عملية التواصل.

وظيفة إقامة الاتصال: (fonction phatique)

[2] المرجع نفسه، ص:54.

وتتجلى هذه الوظيفة في حرص الباث والمتلقي على إقامة التواصل وتأمينه والتأكد من وصول
الرسالة، وتظهر هذه الوظيفة في بعض الألفاظ: ألو، هل تسمعني؟ فهمت. وهي أول ما يكتسبه الطفل في تعلمه للغته الأم.« ومصطلح إقامة التواصل هذا أوجده مالينوفسكي للدلالة على أهمية اللسان الذي يقوي ويشد وشائج الصلة بين الناس عبر تبادل الكلمات البسيطة دون أن تكون النية منه تبادل الأفكار.»[1] ،ولعله يقصد بهذا المصطلح الإشارة إلى دور عملية التواصل في بناء علاقات وطيدة بين أفراد المجتمع.

وظيفة ما وراء اللغة:(fonction métalinguistique)

وتتركز هذه الوظيفة حول لغة الرسالة نفسها« وهي متعلقة باللغة ذاتها في المرسلات وكل ما يساعد على توضيحها فتشمل عناصر البنية اللغوية، وتعريف المفردات ليتأكد طرفا الخطاب من أن التخاطب قائم على التفاهم المتبادل.»[2] فتبدو هذه الوظيفة في شرح المفردات ووصف اللغة أثناء الحوار بين المرسل والمرسل إليه. وتظهر في بعض الألفاظ مثل: هذا يعني، معنى ذلك... فتهدف إلى الحفاظ على التوافق الدلالي بين طرفي التواصل.

الوظيفة الشعرية:(fonction poétique)

وتظهر هذه الوظيفة في أدبية الرسالة أي حين يركز الباث على الأسلوب والخصائص الفنية اللغوية التي تجعل الخطاب أدبيا وتتجلى خاصة في النصوص الأدبية كالرواية أو الشعر، «إلا أن الوظيفة الشعرية لا تميز الشعر فقط بل وكل الفنون التي تهيمن فيها الوظيفة الجمالية.» [3] هذا يعني أن هذه الوظيفة موجودة في كل أنواع الكلام باعتبارها تركز على قيمة الكلمة في ذاتها.

وإذا ما طغت وظيفة معيّنة على ما سواها من الوظائف في خطاب ما فإنّها تدعى الوظيفة المهيمنة(Fonction dominante) ولكن هذا لا يعني نفي أو غياب الوظائف الأخرى.كما يمكن أن نجد الجملة الواحدة تؤدي عدة وظائف ولذا فإنه يمكن الاعتماد عليها لتحليل النصوص وفهمها.

---

[1] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:66.

[2] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:123.

[3] فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص:74.

وقد توسعت مدرسة براغ لتضم علماء من عدة دول كان لكل منهم إسهامه الخاص في تطوير الدراسة الوظيفية للغة.ومن أبرزهم العالم الفرنسي أندري مارتينيه(1908م-1999م) واشتهر بالنظرية الوظيفية التركيبية فتناول مجموعة من القضايا اللسانية وخاصة في كتابه: "مبادئ اللسانيات العامة" منها تلك الثنائيات التي عالجها دي سوسير، فبيّن مارتينيه موقفه منها، كما عالج مفاهيم أخرى انطلاقا من نظرته الوظيفية للغة منها.

1. تعريف اللغة:

عرف أندري مارتينيه اللغة بأنّها« وسيلة إبلاغ يستطيع الإنسان بها أن يحلل خبرته إلى وحدات. لكن هذا التحليل يختلف من مجتمع إلى مجتمع. أمّا الوحدات فهي ذات مضمون دلالي وتعبير صوتي. وهي ما نسميها بالوحدات الدالة. وينقسم التعبير الصوتي بدوره إلى وحدات تمييزية وهي ما نسميه بالوحدات الصوتية. وعدد هذه الوحدات الصوتية محدود في كل لغة وهي تختلف من حيث النوع والعلاقات المتبادلة فيما بينها من لغة إلى أخرى.»[1] يتضمن هذا التعريف عدّة عناصر:

- التركيز على الوظيفة الإبلاغية للغة والتي تترجم في شكل وحدات معنوية وصوتية تعبر عن خبرات الإنسان وأفكاره وحاجاته.

- تنقسم هذه الوحدات إلى وحدات دلالية تحمل معنى ولها صيغة صوتية تدعى: مونيمات (Monèmes).ووحدات صوتية مميزة تدعى: فونيمات (Phonèmes). وتختلف باختلاف العلاقات الرابطة بينها تركيبية كانت أو استبدالية.

- اختلاف طرق التعبير من مجتمع إلى آخر مما يؤكد خضوع اللغة للجماعة الناطقة بها وهذا ما يجعلها ظاهرة اجتماعية.

ويشير في سياق آخر إلى أن اللغة لا تنقل الواقع كما هو.ذلك أنها كبنية منتظمة يرى المتكلم من خلالها عالم الأشياء والأحاسيس فيكتسب الخبرة الإنسانية بحسب النظام اللغوي الذي يعبر عنها فتعلّم لغة جديدة لا يؤدي إلى وضع أسماء وصفات جديدة للمسميات بل يمكّن المتعلّمين

---

[1] أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، تر: الدكتور أحمد حمو، المطبعة الجديدة، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1404هـ-1405هـ، 1984م-1985م، ص:24-25.

من طريقة تحليلية مختلفة لعملية التواصل يكتسبها من معرفته لبنى اللغة الجديدة تختلف عن طريقة اللغة الأم [2] ،وهذا يثبت اختلاف طرق التعبير من لغة إلى أخرى.

ويعتبر مارتينيه اللغة مؤسسة بشرية خاضعة لتأثير الجماعة وصادرة عنها كباقي المؤسسات البشرية، تؤدي وظيفة مهمة وأساسية في المجتمع تتمثل في التواصل والتفاهم المتبادل ونتيجة لهذا فهي تنطبع بطابع خاص بالجماعة الناطقة بها ولذا فهي تختلف من مكان إلى آخر بالرغم من ثبات وظيفتها التواصلية. وبتدخل عوامل مختلفة تتعرض اللغة للتغيير والتبديل وخاصة تحت ضغط حاجات المجتمع المختلفة وهذه نقطة أخرى تلتقي فيها اللغة بالمؤسسات البشرية[3].ولهذا فإن وظائف اللغة تتعدّد وتتنوع، فهي تمثل أداة التفكير ووسيلته الأساسية، كما تعبّر عن مشاعر وأفكار الأفراد وتحمل قيمة جمالية في حدّ ذاتها.

2. اللغة والكلام:

فرّق مارتينيه بين اللغة والكلام فميّز بين« المعطيات اللغوية بوصفها جزءا من الذخيرة التي توجد في تصرف المرء من أجل الإبلاغ.» [1] والتي تمثل اللغة ككتر موجود في أدمغة الأفراد يستعملونها بطريقة شخصية إبداعية وهو في نظرته هذه يتفق مع نظرة دي سوسير للغة. وبين «المعطيات اللغوية من مختلف الأنواع كما تظهرفي الأقوال.»[2] ويقصد بها الكلام كتجسيد فعلي وإنجاز فردي لنظام اللغة في الواقع. فهو وسيلة أساسية للتعرف على اللغة وهذا ما جعله يعتبر الكلام نظاما خاصا منفصلاعن النظام اللغوي وهي النقطة التي تحفّظ فيها دي سوسير.

واقترح مارتينيه مصطلحات أخرى للتعبير عن هذه الثنائية فقال:« يمكن التعبير عن المقابلة التقليدية بين اللغة والكلام بالمصطلحين السَنن(Code) والرسالة(Message). والسَنن تنظيم يسمح بتأليف الرسالة وبه يمكن مقابلة كل عنصر من عناصرها لاستخلاص المعنى.» [3]هذا يعني أنه يعتبر الكلام رسائل ينشئها المتكلم بالاعتماد على سَنن أو نظام متمثل في تلك القواعد الموجودة في دماغه وأدمغة المخاطبين والتي تسمح لهم بإقامة عملية التواصل والفهم المتبادل.

---

[2] ينظر ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص: 253.

[3] ينظر أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ص:12.

[1] أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة ، ص:29.

[2] المرجع نفسه، ص:29.

[3] André Martinet, Eléments de linguistique Générale, Armand Colin, Masson, Paris, 4ème 1996 ;p ;25

3) الوحدات المتباينة والوحدات المتقابلة:

يتألف النظام اللغوي من وحدات لغوية تضيف كل واحدة منها معنى إلى المعنى الكلي ولابدّ لها من علاقات تربط بينها. فيرى مارتينيه أنّ هذه الوحدات ترتبط« فيما بينها بنوعين من العلاقات: علاقات تركيبية (Syntagmatique) نلحظها داخل القول الواحد بين الوحدات الدالة والوحدات الصوتية وسمى ذلك بالتباين. وعلاقات استبدالية (Paradigmatique) حيث يتصوّر قيامها بين الوحدات التي قد نستعملها في السياق ذاته كما في النسج الصوتي ذاته. لكنّها تتنافر فيما بينها في هذا السياق أوفي هذا النسج على الأقل بحيث تلغي بعضها بعضا (علاقات التبادل في سياق واحد).» [4]ألاحظ أن مارتينيه في دراسته للعلاقات بين الوحدات اللغوية اتفق مع دي سوسير في تحديده لنوعين من العلاقات: علاقات تركيبية، يسمي الوحدات الناتجة عنها بالوحدات المتباينة (Les unités contrastes) لأنّها تظهر متجاورة في نفس السياق تؤدي كل واحدة منها وظيفة نحوية معينة مثل: جملة العلم نور.

وعلاقات استبدالية تنتج عنها وحدات متقابلة سمّاها مارتينيه المتقابلات (oppositions Les) فقد تأخذ هذه الوحدات نفس الموقع بحيث يلغي وجود الواحدة الأخرى. مثل: جملة الله رحيم. يمكن استبدال كلمة رحيم بعدّة كلمات أخرى:كريم، حليم لكن وجود رحيم ألغى وجود الكلمات الأخرى.

4) الوصف الآني والوصف الزماني:

اختلفت آراء علماء اللغة حول كيفية وصف النظام اللغوي، أتتطلب الدراسة العلمية للغة وصفا آنيا لنظامها وكيفية عمله أم تتطلب دراسة التغيرات الطارئة عليه عبر حقب زمنية. أمّا مارتينيه فأسس نظرته إلى هذه المسألة على الدراستين وإن تفاوتت درجة الاعتماد عليهما. فيقول:« ينبغي أن يكون وصف اللغة الدقيق آنيا وهذا يعني أن يكون مؤسسا فقط على الملاحظات المسجلة خلال مدة زمنية قصيرة تكون من ناحية تطبيقية بمثابة نقطة على محور الزمن.»[1] هذا يدل على أنه يفضل الدراسة الآنية للغة في مرحلة معينة بتسجيل ملاحظات دقيقة حول نظام اللغة وعناصره وكيفية عملها لتكون هذه الدراسة سابقة للدراسة الزمنية إذ لابدّ أن

---

[4] صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القادر الجرجاني: ص:61.

[1] A. Martinet, Eléments de linguistique Générale, P :29

تسبق دراسة آنية وصفية لكل مرحلة من مراحل الدراسة الأولى ليتمكن الباحث من رصد التغيرات الطارئة على اللغة وتفسيرها. ويشير مارتينيه إلى الدراسة الزمنية من خلال مقارنة« الأنماط المختلفة للغة التخاطب داخل اللغة الواحدة بغرض التعرف على اتجاه التطور في هذه اللغة.» [2] فالمجتمع يضم أشخاصا ينتمون إلى أجيال متعاقبة يحتفظ كل جيل بسمات لغته وبإجراء المقارنة بين لغاتهم يمكن التعرف على التطور الحاصل في النظام اللغوي.

ويصل في النتيجة إلى عدم تعارض الدراستين بل إلى إمكانية التكامل بينهما للوصول إلى دراسة علمية للغة في كافة مستوياتها.

4) التقطيع المزدوج (La double articulation):

اشتهر أندري مارتينيه بأنّه صاحب النظرية الوظيفية التركيبية والتي درس من خلالها وظيفة كل عنصر من العناصر اللغوية سواء كان وحدة دلالية أو صوتية ويتم تحديد هذه الوحدات عن طريق عملية التقطيع المزدوج. ويعتبر هذا المفهوم الأخير« أساس نظرية أندري مارتينيه فهو يرى بأنّ اللسان البشري يتميز عن بقية الوسائل التبليغية الأخرى بكونه مزدوج التقطيع أي أن الأقوال اللسانية مكوّنة من مقاطع دنيا على مستويين مختلفين.» [1] أتصور أن الدراسة الوظيفية للغة تتأسس على هذا المفهوم الذي تنتج عنه وحدات لسانية مختلفة تؤدي وظيفة محدّدة داخل النظام اللغوي وتتحدد قيمتها من خلال هذه الوظيفة عند مدرسة براغ.

ويسمى التقطيع المزدوج لأنّه يتم على مستويين: أما الأول « فهو ذلك التقطيع الذي يمكن معه تجزئة كلّ موضوع من موضوعات التجربة الإنسانية عندما يراد نقله للآخرين، وكذلك كلّ حاجة يراد تعريف الآخرين بها إلى سلسلة من الوحدات يكون لكل منها معنى وصيغة صوتية.» [2]

وفقا لهذا التعريف فإنّ كل تعبير أو قول يمكن تحليله إلى وحدات لغوية تركيبية ذات وجهين:

الأول:المعنى (المدلول) **والثاني**: صيغة صوتية (الدال) وتسمى هذه الوحدات مونيمات (Monèmes) تقابل العلامة اللسانية عند دي سوسير. ففي جملة نجح الولد وحدتين دالتين نجح + ولد. لكل واحدة منهما معنى وصيغة صوتية. تكتب الصيغة الصوتية لكلمة ولد على شكل/

---

[2] أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ص:35.

[1] سليم بابا عمر، اللسانيات العامة الميسرة 1- علم التراكيب، أنوار، الجزائر، 1990م، ص:71.

[2] أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ص:17.

ول-َ د /. وكل وحدة منهما تدخل في عدّة جمل لتعبر عن معاني أخرى ولا يمكن تحليلها إلى وحدات أصغر.

أما المستوى الثاني من التقطيع ويدعى: التقطيع الثانوي فيعني أنه« يمكن للوحدات الدالة أي اللفظات أن تتقطع بدورها في مستوى ثانٍ إلى سلسلة من الوحدات الدنيا المتتابعة والمجرّدة من كلّ دلالة إلا أنّها مميزة.» [3] فالوحدات الناتجة عن التقطيع الأوّل تخضع لتقطيع آخر على مستوى الصيغة الصوتية فتنتج عنه وحدات صوتية مميزة تدعى فونيمات (Phonèmes) أي يختص التقطيع الثانوي بالدال، وتكون الوحدات الناتجة عنه محدودة في كلّ لغة تكوّن وحدات دالة وفقا لقواعد هذه اللغة.

ويمثل التقطيع الثانوي توفيرا كبيرا في اللغة إذ« لو توجب أن نضع لكل وحدة من وحدات المعنى صوتا خاصا بها وغير قابل للتجزئة لكان علينا أن نميّز بين الآلاف من هذه الأصوات مما لا يتفق مع قدرات الإنسان النطقية كما لا يتفق مع قدرة السمع لديه.» [4] يمكنني أن أستنتج أن النظام اللغوي يتألف من وحدات دالة ووحدات صوتية مميّزة تدخل الثانية في تركيب الأولى فتقوم من خلالها بوظيفة تمييزية بين الوحدات الدالة. في حين تؤدي هذه الأخيرة عدّة وظائف بانسجامها داخل النظام اللغوي وتنتج هذه الوحدات سواء كانت مونيمات أو فونيمات عن آلية لغوية هيّ التقطيع المزدوج الذي يفسّر كيف يعبّر الإنسان عن حاجاته ويقيم التواصل بينه وبين أفراد مجتمعه بواسطة مجموعة محدودة من الوحدات الصوتية، إذ يختار منها المتكلّم ما يناسب طريقته في التعبير ويؤدي المعنى المقصود وتدعى هذه العملية بالاقتصاد اللغوي والتي تقوم فيها العوامل الخارجية بدور مهم.

وخلاصة القول: إنّه مهما اختلفت طرق علماء مدرسة براغ في معالجة الظواهر اللغوية تظل الدراسة الوظيفية للمستويات اللغوية القاسم المشترك بينهم إذ اعتبروا اللغة نظاما من الوظائف، فالوظيفة التي يؤديها العنصر اللغوي تحدّد قيمته داخل هذا النظام. ولهذا تعدّ هذه المدرسة أوّل تعميق منهجي وعلمي لنظرية دي سوسير.

3) مدرسة كوبنهاجن:

---

[3] سليم بابا عمر، اللسانيات العامة الميسرة، ص:73.

[4] أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، ص:19.

ظهرت في شمال أوربا عدة حلقات لسانية نتيجة لانتشار أفكار دي سوسير وسرعان ما تطورت وتبلورت كمدارس لسانية ومن أهمها: مدرسة كوبنهاجن.

بدأت هذه المدرسة على يد العالمين أوتو يسبرسن (Otto Jespersen) (1860م-1943م) الذي ألّف كتابا بعنوان: "اللغة" وصدر سنة 1922م وكان له أثره الخاص في البحث اللغوي.[1] والعالم هولدر بدرسن (Holder Pedersen) الذي قدم مؤلفا مهما لعلم اللغة بعنوان "علم اللسان في القرن التاسع عشر". [2]

«تأسست هذه المدرسة سنة 1931م على يد هلمسليف مع هانز هلدال وفيجو بروندال. وكان هدفها الوصول إلى جبر خاص باللغة كنظام شكلي.» [3] ولذا يعد هلمسليف الرائد الأول لهذه المدرسة بعد وفاة فيجو بروندال، والتي دعت إلى دراسة منطقية للغة بعيدا عن الفلسفة، لتصبح اللغة نظاما صوريا يقوم على المنطق والرياضيات بغية الوصول إلى درجة علمية عالية.

ومن أهم أعمال فيجو بروندال التي ترتكز عليها مدرسة كوبنهاجن في دراستها للظواهر اللسانية: [4]

- الاعتماد على معيار التقابل (opposition) لدراسة الظواهر اللسانية المختلفة.
- الجمع بين أفكار دي سوسير وبين المنطق الرياضي، فقد تأثر بروندال بأرسطو وكانط وبرجسون.
- كما أحيا بروندال العلاقة بين اللغة والفكر، وحاول أن يعرف منطق اللغة.

حيث ركز على ملاحظة الطرق التي يمكن أن تكشف عن المقولات المنطقية في الحقائق اللغوية، وقد اعتبر أن المفاهيم المنطقية يمكن أن تطبق على كل النظم اللغوية.

أما لويس هلمسليف فقد ركز اهتماماته اللسانية على بعض المفاهيم المنطقية الرياضية والتي نتج عنها توجه لساني سماه بالنظرية الجلوسيمية glossématique وهو مصطلح اخترعه

---

[1] ينظر أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:133.

[2] أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ص53.

[3] Patrick Guelpa,Intruduction à l'analyse linguistique,Armand Colin,Masson,Paris,1997 ,P :43

[4] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص: 116.

هلمسليف «مشتق من الكلمة اليونانية glossa بمعنى كلمة أو لغة ومنها glossary بمعنى قائمة مفردات» [1] ومعنى الكلمة: لغة الرياضيات.

ويدل مصطلح«الجلوسيمية على توجه خاص في الدراسة اللسانية أعلن عنه خلال مؤتمر للحلقة الدولية لعلم اللغة بكوبنهاجن سنة 1936م.» [2] وينطلق هلمسليف في نظريته من مفاهيم دي سوسير حول قضايا اللغة والتي وردت في محاضراته غير أنه دقق في عرضها بدرجة كبيرة من التجريد النظري وصياغة المفردات والمصطلحات الجديدة كما حاولت هذه النظرية أن تتميز عن مدرسة براغ بتوظيفها لمفاهيم لغوية مختلفة مرتبطة بالمفاهيم المنطقية الرياضية.

منهج الجلوسيمية في الدراسة:

حاول هلمسليف تأسيس نظرية لسانية وصفية علمية تقوم على مقدمات منطقية بديهية وعلى مبادئ معرفية منها:

أ- **مبدأ التجريبية:**

اعتمد هلمسليف في مبدأ التجريبية على الجمع بين ثلاثة معايير« اللاتناقض والشمولية والتبسيط» [3] فيرى أن الدراسة العلمية الموضوعية لا بد أن تقوم على احترام هذا المبدأ ذلك أن التراكيب المنطقية تقوم على قاعدة الجمع بين هذه المعايير. وعلى المناهج الإجرائية أن توفر الوصف الشامل لأي نوع من النصوص دون أن يوجد تناقض بين الظواهر اللسانية، كما عليها أن تراعي أبسط وصف للوصول إلى النتائج.

ب- **مبدأ الإحكام والملاءمة:**

من خصائص النظرية الجلوسيمية خاصيتين أساسيتين الإحكام الذي يعني الاعتباطية عند دي سوسير والملاءمة.

والإحكام عند هلمسليف يعني الاتساق التام« أي أن تكون النتائج الطبيعية لأي قضية تابعة لمقدماتها المنطقية. » [1] فلا بد أن تكون النظرية اللسانية مبنية على أسس منطقية ليمكن

---

[1] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:60.

[2] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:117.

[3] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ص:163.

[1] أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور ، ص:164.

تطبيقها على النصوص اللغوية. أمَّا الملاءمة فتتمثل في أن تلبي مقدمات النظرية شروط التطبيق أي أن تكون ملائمة وقابلة للتطبيق على المعطيات التجريبية.

واعتمد هلمسليف في منهجه لدراسة الظواهر اللسانية على الجمع بين التجريبية من جهة وبين المنهج الاستنتاجي أو الاستنباطي الذي يراعي مبادئ التحليل العقلي في دراسة اللغة ويعتمد على مفاهيم المنطق والرياضيات في استنباط الجزء من الكل؛ ممثلا ذلك بالمنطق الرمزي (logistique) كاستعماله للرموز الجبرية والقوانين الرياضية محاولا بذلك دراسة الظواهر اللغوية دراسة علمية على غرار العلوم الدقيقة فحول اللغة العلمية إلى علم الجبر.

أما في مجال التعريف والوصف فاستعملت هذه النظرية العديد من الصيغ الرياضية منها:« إذا كانت س موجودة في شيء، لابد أن تكون ع موجودة أيضا، ومثال ذلك: إذا وجد صامت في مقطع معين وجب أن يوجد معه صائت.» [2] وبهذه المواصفات يرى هلمسليف أن النظرية اللغوية تتسم بالكلية (universalité) ؛ وبالتالي يمكن تطبيقها على تحليل أية لغة ذلك أنها قائمة على مفاهيم عامة.

نظام اللغة:

تبدو نظرية هلمسليف امتداد لنظرية دي سوسير، إذ أخذت الجلوسيمية دراستها الشكلية للنظام اللغوي من المفاهيم السوسرية وفي مقدمتها ثنائية الشكل والمادة (Forme et substance)، واللغة والكلام، وتمييز دي سوسير الدراسات اللغويةعن العلوم اللسانية الأخرى ودراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها وهو ما سماه هلمسليف باللسانيات المحايثة.

وسعى صاحب هذه النظرية لتوسيع مبدأ: اللغة شكل وليست مادة، فنظر إلى اللغة على أنها كيان صوري« وهذا الكيان يخضع لنسق من العلاقات الداخلية يمكن دراستها بنوع من المعادلات الجبرية اللغوية... وهذا الشكل الصوري بعيد عن المظهر الدلالي» [3] يرى هلمسليف أن اللسانيات عليها أن تولي جل اهتمامها لبنية اللغة، لذا يهدف إلى دراسة التعبير دون العودة إلى المادة الصوتية، كما يسعى إلى إمكان« استخراج هذا التنظيم اللساني من المادة التي ينظمها، وبالتالي فإن البنية – في نظره – قابلة للانفصال عما تبنيه.» [1]. ويظهر هذا الانفصال في اللسان

---

[2] المرجع نفسه، ص:166.

[3] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص: 60.

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:117.

العربي حيث استخرج النحاة العرب بنية النظام اللساني، فجعلوا لكل وحدة لغوية وزن وصاغوه من حروف هي: ف،ع، ل مثل: صيغة (فاعل) وهي وزن لكل اسم فاعل من فعل ثلاثي: كتب- كاتب. وبالتالي فإن المادة الصوتية ليس لها معنى في ذاتها.

« إن مبدأ المحايثة في النص الذي أسسه دي سوسير ضمنيا عندما ميز بين اللغة والكلام قد تبينت ملامحه ونتائجه في النظرية الجلوسيمية.» [2] فقد سمى هلمسليف تميُّز العلوم اللسانية عن الدراسات اللغوية ودراسة اللغة كموضوع للسانيات بمبدأ المحايثة (l'immanence)، كما أشار إلى ذلك جورج مونان. فركز على دراسة اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها في جانبها الصوري للوصول إلى الدقة العلمية وطبق مفاهيم منطقية رياضية على اللغة.

مستوى الدوال ومستوى المدلولات:

بتمييز هلمسليف بين الشكل والمادة عمد إلى التمييز بين المضمون والتعبير فاستبدل ثنائية الدال والمدلول بثنائية مستوى التعبير ومستوى المحتوى و« ينطلق هلمسليف من الاعتقاد بأن الإشارة اللسانية معينة بضربين من ضروب المادة:

- بالنسبة للمدلول تعنى بمادة الواقع الخارجي التي تفصح عنها اللغة.
- وبالنسبة للدال فإن الإشارة اللسانية تعنى بمادة الكتلة الصوتية المناسبة للأداء اللغوي.» [3]

ذلك أن العلامة اللغوية علاقة تجمع بين الدال (مستوى التعبير) والمدلول (مستوى المحتوى). «ويتكون مستوى التعبير من الغطاء الصوتي أو الخطي للفكرة ويتكون مستوى المحتوى من عالم الفكرة التي يعبر عنها في اللغة.» [4] فيكون مستوى التعبير عبارة عن أصوات خام قد تكون مشتركة بين كل اللغات، أما مستوى المحتوى فتمثله مجمل مواضيع الفكر الإنساني، وكل مستوى يخضع بدوره لثنائية الشكل والمادة فينتج عن ذلك المستويات التالية:

---

(2) Jean Dubois, Grammaire structure du Français, la phrase et les transformations, Libraire Larousse, Paris 1969, P :7.

(3) عبد الجليل مرتاض،الظاهر والمتخفي(طروحات جدلية في الإبداع والتلقي)، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر 2005م،ص:42.

(4) ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص:248.

أ- **شكل المحتوى أو المضمون:** « وهو تقريبا ما أشار إليه سوسير بلفظ المدلول الذي اكتسى قالبا محددا» [1] ويقصد به البنية المعجمية والتركيبية.

ب- **مادة المحتوى أو المضمون:** وتمثلها الأفكار « ويقصد بها المستوى الخارجي الذي لم ينتظم بعد في بنية محددة أي الكلمات التي لم يقدَّر لها أن تولد بعد أو بالأحرى أن تسمى أو تحدد.» [2] أي أن هذا المستوى يتمثل في الكائنات والأشياء والعلاقات التي لم تتناولها اللغة.

ج- **شكل التعبير:** ويقصد به الدال، وتهتم بدراسته الفونولوجيا.

د- **مادة التعبير:** ويقصد بها« كتلة الأصوات المنطوقة قبل أن تصوغها اللغة» [3] وتهتم بدراسته الفونتيك.

ويمكن ملاحظة أن كل ما هو موجود في مادة التعبير ومادة المحتوى من مادة صوتية في الأول وأفكار في الثاني يمكن أن تكون مشتركة بين سلسلة من اللغات،غير أن شكل التعبير وشكل المحتوى يختلفان من لغة إلى أخرى، على أن يمثل الأول الطرق التي تتوافق فيها الأصوات ويمثل الثاني طرق ترتيب الأفكار الخاصة بكل لغة.

ولتوضيح هذه المستويات يمكن الاستعانة بمثال الألوان التي تؤلف الطيف الشمسي.[4]

1- **مادة المضمون:** قوس قزح الذي يشاهد في الأفق.

2- **شكل المضمون:** التمييز الذي يحدثه اللسان بين مختلف الألوان، وهي سبعة في الفرنسية والعربية.

3- **شكل التعبير:** العناصر الدالة السبعة.

4- **مادة التعبير:** الكتلة الصوتية المنطوقة.

ويشير هلمسليف إلى وجود صلة بين شكل التعبير وشكل المحتوى تتمثل في مبدأ الاستبدال، فعملية الاستبدال بين النون والقاف في: قال- نال، ينجم عنها تمييز في مستوى التعبير.

---

[1] رونالد إيلوار، مدخل إلى اللسانيات، تر: بدر الدين القاسم، الجمهورية العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، ب.ت.ن،ص:68.

[2] عبد الجليل مرتاض، الظاهر والمتخفي، ص:42.

[3] رونالد إيلوار، مدخل إلى اللسانيات، ص:67.

[4] المرجع نفسه، ص:68.

ويهدف هلمسليف من وراء هذا التقسيم إلى التركيز على دراسة الجانب الصوري الشكلي للظواهر اللسانية.

وبهذا تصبح مادة التعبير هي موضوع دراسة الصوتيات، ومادة المحتوى هي موضوع دراسة علم الدلالة، وقد اعتبر هلمسليف أن الصوتيات وعلم الدلالة علمين مساعدين وليسا من اللسانيات.

أما بالنسبة للبنية فيرى« أنها نسيج من المتعلقات dépendance أو الوظائف.» [1] ومعنى الوظيفة هو العلاقة بين كلمتين متتابعتين في النص وهي علاقة غير مادية ومجردة وشكلية ويدخل هذا المعنى في العلاقات التركيبية. كما يقوم تحليل الوحدات اللسانية على دراستها دراسة علائقية ضمن النظام انطلاقا من الصور والأشكال دون اللجوء إلى مظهرها المادي. ويرى هلمسليف أن الوحدة اللسانية لا تستمد قيمتها من ذاتها بل من علاقاتها بالوحدات الأخرى ضمن المحور التركيبي والمحور الاستبدالي وهذه العلاقات هي المشكلة لنظام اللغة« فاللغة مثل أي تسلسل أو ترابط يحتوي على تنظيم لابد من دراستها من خلال هذا التنظيم بالذات.» [2] وضمن العلاقات الاستبدالية أو ما يعرف بالإحلال(commutation) ميز بين مبدأين:

- **مبدأ التعويض:**

ويكون بين الكلمات التي لا يؤدي تبديل بعضها ببعض إلى تغيير في الوحدة. مثل: أعطى المعلم الولد كتابا – منح المعلم الولد كتابا، فلم يتغير المعنى رغم تغيير الفعل، وهذا ما يعرف بظاهرة الترادف في اللغة العربية.

- **مبدأ التبديل:**

يكون بين الكلمات التي يؤدي تبديل بعضها ببعض إلى تغيير في المعنى. مثل: أخذ الطالب الكتاب – وضع الطالب الكتاب.

أما عن بنية المعنى فقد اعتمد هلمسليف في تحليلها على عملية التقطيع المزدوج وتسمى المعاني عنده: (plérèmes) والتي تعني دراسة محتوى الوحدات اللسانية، وتتحدد (plérèmes) الكلمات المؤلفة من (أساس+علامة). مثلا:(chatte) تحلل إلى:(chat+te) وكلمة (فرس) في

---

[1] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:119.

[2] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:247.

العربية يمكن تحليلها إلى:ف - ر- س(حصان+جنس"أنثى")، وترجمت (plérèmes) في اللغة العربية إلى معانم:ج معنم.[3] وفي إطار نظرة هلمسليف للبنية على أنها نسيج من العلاقات، فلا بد من دراسة العلاقات القائمة بين العناصر اللغوية« ذلك أن الوحدة اللغوية مكونة من مجموع علاقاتها بباقي الوحدات.» [4] وهذا هو الشيء القابل للوصف، ومن هنا سميت هذه النظرية بنظرية التعليق(glossématique).

اللغة والكلام:

قد كانت لهلمسليف نظرته الخاصة لثنائية اللغة والكلام عند دي سوسير فحدد مفهوم اللغة بثلاثة مفاهيم فرعية هي:[1]

أ- **المخطط أو الهيكل:** ويقصد به اللغة كشكل صوري ونموذجي مستقلة عن تحقيقها الاجتماعي ومظهرها المادي.

ب- **المعيار أو القاعدة:** ويمثل اللغة كصورة مادية يستعملها المتكلم.

ج - **الاستعمال:** ويقصد به اللغة كعادات خاصة بالمتكلم ومحددة بالملاحظة.

أما الكلام فقد سماه« بالفعل acte وهو الاستعمال الفردي للغة.» [2] وتكون العلاقات بين هذه المفاهيم أو العناصر كالآتي:اللغة كاستعمال،والكلام كفعل يسبقان اللغة كمعيار والمعيار يضبطهما.

تكمن قيمة هذا التوجه اللساني في معالجته للظواهر اللسانية معالجة دقيقة على منوال العلوم الدقيقة باستعمال المنطق الرياضي، محاولا بذلك توسيع المفاهيم السوسيرية،فتعتبر هذه الدراسة تعميقا منهجيا وعلميا لمفاهيم دي سوسير،كما تعتبر عصرنة للدراسات اللغوية باستخدام المناهج العلمية الرياضية، ولعل نتيجة ذلك كانت اللسانيات الرياضية.

---

[3] ينظر الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية، ص:123.

[4] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص: 60.

[1] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص: 61.

[2] الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنوية، ص:124.

وتعد هذه النظرية من أبرز الأعمال اللسانية التي قدمت خلال القرن العشرين ورغم هذه الأهمية العلمية لهذه النظرية إلاّ أنه يؤخذ عليها أنها أوغلت في التجريد والتصنيف، دون أن تقدم عمليا ما يعطيها أهمية في ميدان التطبيق، كما أنها أقصت المادة الصوتية التي لا يتم التحليل إلاّ بها.

المدرسة التوليدية التحويلية:

ارتبط النصف الثاني من القرن العشرين باسم رائد من رواد اللسانيات الحديثة أحدث ثورة في هذا المجال وهو العالم الأمريكي نعوم تشومسكي1928م« درس علم اللغة والرياضيات والفلسفة والمنطق مما ترك أثرا واضحا على تفكيره وعلى بناء نظريته.» [3] وضع تشومسكي نظرية النحو التوليدي مع مجموعة من علماء اللسانيات في المعهد التكنولوجي بماساشوسيت بالولايات المتحدة الأمريكية بين سنتي 1960م و1965م.[4] وجاءت هذه النظرية ردا على النزعة الوصفية والنزعة السلوكية في دراسة اللغة، إذ حاول بناء نظرية لغوية عامة لتفسير اللغة كظاهرة إبداعية وقدرة المتكلم- وخاصة الطفل في اكتسابه للغته – على إنشاء جمل جديدة لم يسبق له أن سمعها. وقد مثلت هذه الفكرة المحور الأساسي في نقده للمذهب السلوكي الذي يرى تشومسكي أنّه « إما أن يتجاهل كلية عملية تكوّن الجمل الجديدة وإما يطبق فكرة القياس (Analogy) وهيّ فكرة غائمة غير واضحة أو محدّدة.» [1] فالسلوكيون— في نظره- أهملوا تفسير ظاهرة إنتاج المتكلم لجمل جديدة، إن حاولوا تفسيرها فهم يربطونها بعملية القياس المتمثلة في أنّ المتكلم يقيس الجمل التي يريد تأليفها على النماذج التي اكتسبها من قبل وهيّ فكرة غامضة لا تفسر هذه الظاهرة الإنسانية.كما اعترض على مصطلحات المدرسة السلوكية كالمثير والاستجابة وتطبيقها في المجال اللغوي.

أما بالنسبة للوصفيين فيرى أنّهم اكتفوا بوصف الظاهرة اللغوية دون تفسيرها و« اعتبر تشومسكي اللغة قدرة فطرية مناسبة للإنسان وحده لذلك ينبغي على التحليل اللساني أن يصف ويشرح تلك المقدرة بوسائل فكرية ونفسية وبيولوجية لمعرفة طبيعة اللغة وفعالياتها.»[2] ولذا فإنّ

---

[3] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:161.

[4] ينظر محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص:76.

[1] جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، تر وتع: دكتور حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 1995م ص:209.

[2] مازن الوعر،قضايا أساسية في علم اللغة الحديث،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، د.م.ن، ط1، 1988م ص:108.

نظريته اللسانية كان هدفها تفسير اللغة كقدرة عقلية فطرية قائمة عند الطفل تمكنه من اكتساب اللغة بسرعة. وهنا يظهر تأثر تشومسكي بفلسفة اللغة عند ديكارت وخاصة في اعتبار ديكارت اللغة خاصية مميّزة للإنسان عما عداه من حيوانات وآلات إذ لا تستطيع هذه الأخيرة استخدام الكلمات أو أي علامات يستخدمها الإنسان للتعبير عن أفكاره أو ترتيب هذه الكلمات بصورة معينة. وهذا يعني وجود قدرة عقلية عند الإنسان تمكنه من الكلام[3] وعلى هذا الأساس بنى تشومسكي نظريته التي عرفت بالنظرية الذهنية لتفسير تلك القدرة اللغوية الكامنة في ذهن المتكلم.

النحو التوليدي والتحويلي:

عرفت نظرية تشومسكي اللغوية بالنظرية التوليدية التحويلية نسبة إلى تلك القواعد التي اعتمدها في تحليل الجمل اللغوية باعتبار اللغة في نظره « مجموعة غير محدّدة من الجمل اللغوية، هذه الجمل اللغوية لها عناصر لغوية وأبعاد طولية محدّدة.» [4] يبدو لي أن هذا التعريف ناتج عن الدراسة التحليلية للغة في جانبها التطبيقي، فاللغة – بهذا المنظار- جمل تتكون من عناصر دلالية وصوتية على شكل تراكيب محددة الطول وهي لهذا عملية ذهنية توليدية تتميّز بالإبداع والسبب في ذلك امتلاك المتكلم قواعد كلية تتوفر في جميع اللغات الإنسانية وعن طريق عملية الاكتساب اللغوي يتوصّل الطفل إلى اكتشاف قواعد لغته - وبمساعدة محيطه – من بين الكليات اللغوية الكامنة في ذهنه.

أمّا النحو فهو« عملية توليدية وتحويلية منتظمة ومركبة قادرة على إنتاج جمل نحوية صحيحة من خلال مستويات عدّة.» [1] هذا يعني أنّ النحو هو جملة القواعدالتي يطبقها المتكلّم ليكوّن جملا صحيحة في لغته ولذا يسمى النحو التوليدي إذ يولد به المتكلم جمل لغته.

وللنحو التوليدي مهمة أساسية يسعى لتحقيقها تتمثل في وضع نموذج للمقدرة اللغوية يمثل آلية عملها ثم إنشاء نظام من القواعد يسمح بتوليد كل الجمل الممكنة في اللغة، ويشتمل هذا النظام على ثلاثة مستويات:[2]

---

[3] ينظر محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ت.ن، ص:145،144.

[4] مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللغة الحديث، ص:118.

[1] مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللغة الحديث، ص:98.

[2] ينظر زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص:66،67.

[3] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:202.

- المستوى التركيبي أو النحوي الذي يولّد البنيات المجرّدة للجمل النحوية في اللغة.
- المستوى الصوتي ويمثل الشكل الصوتي النطقي للجمل.
- المستوى الدلالي ويحدد معنى الجمل ويفسّر علاقة المعنى بالجانب الشكلي أو البنية السطحية.

إنّ القواعد التي بنى عليها تشومسكي نظريته اللغوية تمثّل المنوال الإجرائي الذي بتطبيقه ينتج المتكلم كل الجمل الممكنة في لغته بالاعتماد على تلك القدرة الفطرية الموجودة في دماغه والتي تتضمن قواعد لغته.« إنّ القواعد النحوية التوليدية والتحويلية تهتم مباشرة بآلية اللغة التي تتيح للإنسان أن ينتج جمل اللغة كلّها انطلاقا من تنظيم القواعد الكائن ضمن كفايته اللغوية. وعملية الإنتاج هذا منوطة في الأساس بنوع من القواعد التوليدية التي تؤدي في حال العمل بها إلى إنتاج كل الجمل التي يمكن استعمالها في اللغة.»[3] يقوم هذا النوع من القواعد على استعمال الرموز للإشارة إلى عناصر الجملة. مثلا: جملة العلم نور جملة توليدية تكتب على شكل: ج رإ+رإ.

أما القواعد التحويلية فإنها ترتبط بالبنية العميقة للجملة« ويقصد بالتحويل في النحو التوليدي التغيرات التي يدخلها المتكلم على النص فينقل البنيات العميقة المولدة من أصل المعنى إلى بنيات ظاهرة على سطح الكلام وتخضع بدورها إلى الصياغة الحرفية الناشئة عن التقطيع الصوتي.»[4] فتمس عملية التحويل التراكيب الموجودة في النّص على مستوى الشكل دون المعنى الأصلي؛ وتظهر عمليات التحويل في الترتيب أو الزيادة أو الحذف أو غيرها من هذه العمليات؛ مثلا: جملة عاد المسافر إلى أهله. يمكن إجراء عدة تحويلات عليها، كالتقديم والتأخير في: المسافر عاد إلى أهله، إلى أهله عاد المسافر، أو الحذف عاد المسافر أو الزيادة: هل عاد المسافر إلى أهله؟

فقد نتجت هذه الجمل عن عمليات التحويلات التي طرأت على الجملة الأصلية دون تغيّر معناها الأصلي. ومن خصائص النحو التحويلي« أنّ المفاهيم النحوية المختلفة ذات المضامين الدلالية تحدّد الآن وبوضوح في ضوء العلاقات القائمة في البنية العميقة.»[1] فبالاعتماد على القواعد التحويلية يمكن استنتاج بنيتين عميقتين لجملة واحدة فيها لبس نحوي. ففي جملة: لقيت الأستاذ مبتسما يمكن تحديد معنيين مختلفين إمّا أن يكون المتكلم هو المبتسم، فنقول: لقيت الأستاذ

---

[4] محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية، ص:81.

[1] مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، د.م.ن، ط1، 1989م، ص:248.

وأنا مبتسم. أو يكون الأستاذ هو المبتسم، فنقول: لقيت الأستاذ وهو مبتسم. وهذا يعني أن العلاقات في البنية العميقة هيّ التي تفسر المفاهيم النحوية والمضامين الدلالية بواسطة القواعد التحويلية.

ثنائيات تشومسكي:

لقد أسّس تشومسكي نظريته التوليدية التحويلية على بعض مفاهيم دي سوسير وخاصّة ثنائية اللغة والكلام التي تقابل الكفاية اللغوية (Compétence) والأداء اللغوي (Performance). كما وضع ثنائية البنية السطحية والبنية العميقة.

1) الكفاية اللغوية والأداء اللغوي:

وتتمثل الكفاية اللغوية في « نظام كامل من القواعد الواضحة والمنظمة والثابتة التي تسمح بتوليد عدد يمكن أن يكون غير محدود من الجمل الصحيحة في لغة ما.وهذه الجمل فقط.» [2] هذا يعني أنّ الكفاية اللغوية هيّ تلك القواعد المنظمة الكامنة في دماغ الإنسان والتي يستطيع باستعمالها إنشاء عدد غير محدّد من الجمل في لغته. فهيّ جانب فطري في الإنسان يظهر في قدرته على فهم تراكيب اللغة وجملها والحكم عليها بالصّحة أو غيرها.

والكفاية« معرفة ضمنية لمتكلم اللغة المثالي بقواعد لغته التي تتيح له التواصل بواسطتها.» [3] أي تلك القدرة المعرفية للمتكلم بقواعد لغته بالإضافة إلى الوسائل المتوفرة ليعبّر عن نفسه ويتواصل بها مع أفراد مجتمعه.

« وتسمى الكفاية بالتمكّن أو المعرفة اللغوية أو القدرة الفطرية التي تتمثل مقوماتها في معرفة القواعد النحوية والصرفية التي تربط المفردات بعضها ببعض في السلسلة الكلامية، بالإضافة إلى مجموعة أخرى يطلق عليها مصطلح القواعد التحويلية.» [1] هذا يعني أن الكفاية اللغوية تتعلق بالجانب الفطري في الإنسان فهي قدرة عقلية فطرية كامنة في ذهن الإنسان تمكنه من اكتساب لغته بسرعة بالاعتماد على المادة اللغوية المتوفرة في بيئته، وتدخل هذه القدرة الفطرية ضمن الكليات اللغوية الموجودة في ذهن الإنسان ذلك أنّ« الطفل يملك بالفطرة تنظيما ثقافيا يمكن تسميته بالحالة الأساسية للعقل فمن خلال التفاعل مع البيئة وعبر مسار النمو الذاتي يمر العقل

---

[2] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:204.

[3] ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص:261.

[1] أحمد عزوز، المدراس اللسانية، ص:179.

بتتابع حالات تتمثل في البنى المعرفية» [2] فيقوم الطفل في عملية اكتسابه للغته باكتشاف قواعد لغته من بين ذلك التنظيم الثقافي والمتمثل في الحالة الأساسية للعقل بالاعتماد على بيئته اللغوية وباستمرار النمو الفيزيولوجي يمرّ العقل بعدّة مراحل ليصل إلى حالة ثابتة تتمثل في معرفة اللغة بطريقة معينة.

ولهذا نجد تشومسكي يرجع إبداعية اللغة وقدرة المتكلم على إنتاج جمل جديدة إلى الكفاية اللغوية. ويلتقي تشومسكي مع دي سوسير في اعتبار اللغة نظاما موجودا في دماغ كلّ فرد ولا يكتمل إلا عند الجمهور لكن تشومسكي يضيف إلى ذلك الحدس اللغوي عند المتكلم فيعتبر« حدس أبناء اللغة إنّما هو جزء من المادة اللغوية التي ينبغي على قواعد اللغة أن تفسّرها وتعلّلها » [3] هذا يعني أنّه يعتمد على إبداع الذات المتكلمة في مجال اللغة. في حين أن دي سوسير يرى أنّه لا يمكن للفرد أن يعدّل في اللغة أو يغيّرها بنفسه [4] .

ويقابل الكفاية اللغوية كطرف ثان الأداء اللغوي ويعني« التمثيل المادي في الجمل لهذه القدرة أي الكفاءة أي التجسيد المادي لنظام اللغة في أفعال الكلام.»[5] أي ذلك الإنجاز الفعلي والتحقيق العيني للقواعد اللغوية بالكلام سواء كان منطوقا أو مكتوبا فتظهر من خلاله البنية السطحية للجملة. كما يقصد به« طريقة استعمال الكفاية بهدف التواصل في ظروف التكلّم الآني للغة ضمن سياق معيّن.» [6] فالأداء يمثل كيفية استعمال المتكلّم لقواعد لغته للحصول على جمل وعبارات يتواصل بها الأفراد في ظرف معيّن.

ويرى تشومسكي أنّه على اللسانيات أن تهتم بدراسة القدرة اللغوية ولا تقتصرعلى الأداء الذي يزوّدنا بعينات غير كافية من الجمل التي تحوي أخطاء وتشويهات مردُّها إلى خلل فسيولوجي في أعضاء النطق أو إلى أسباب نفسية، ولذا فعلى عالم اللغة أن يعيد تصنيف المادة اللغوية – الجمل التي نتجت عن الأداء اللغوي- فيستبعد الجمل التي حكم عليها ابن اللغة بأنّها غير صحيحة نحويا

---

[2] ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، د.م.ن، ط1 1993م، ص:94.

[3] جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص:79.

[4] ينظر فردينان دي سوسير، دروس، ص:35

[5] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:204.

[6] كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، ص:69.

ويبقي الجمل الصحيحة[1] ؛وهذا ما يعرف بظاهرة القواعدية أو النحوية في اللغة (La grammaticalité).

2) البنية السطحية والبنية العميقة:

قامت الدراسة التحليلية للتراكيب عند تشومسكي على تحديد مستويين هما: البنية السطحية والبنية العميقة.

❖ **البنية السطحية:**

تظهر هذه البنية في التتابع الخطي للكلمات المؤلفة للجمل فتخضع هذه البنية لنظام اللغة من نحو وصرف، وتعنى بتركيب الجملة في جانبها الشكلي الظاهر سواء كانت منطوقة أو مكتوبة. وتعكس هذه البنية بنية عميقة،كما ترتبط بالإنجاز الفعلي أي بالكلام مباشرة. والبنية السطحية« تهدف في نهاية المطاف إلى التعبير على شكل تركيب صوتي عن العلاقات القواعدية المجرّدة الناتجة عن التركيب النحوي.» [2] هذا يعني أنّ هذه البنية تعبّر عن معان نحوية ودلالية بواسطة تركيب صوتي ظاهر قد لا يرفع اللبس النحوي عن جمل متشابهة على مستوى هذه البنية ذلك أنّ البنية السطحية تمثل الصورة المحسوسة والمنطوقة باستعمال الأصوات والتراكيب.

❖ **البنية العميقة:**

هي« تلك القواعد التي أوجدت هذا التتابع أو البنى الأساسية التي يمكن تحويلها لتكوّن جمل اللغة وهي مرتبطة بالكفاية اللغوية.» [3] هذا يعني أن البنية العميقة تمثل الأساس الذهني المجرد للبنية السطحية، هذا الأساس يحدّد مضمون الجملة بواسطة الألفاظ أي تمثل الشكل الباطني للجملة والموجودة في ذهن المتكلم يعبّر عن المعنى. فهي تخص « بنية التركيب المجردة وغير الظاهرة التي يمكن تمثيلها برسم بياني يظهر العلاقة بين الكلمات. وهي البنية التي تسمح بالتفرقة بين الجمل ذات اللبس النحوي... كما تسمح بتوحيد المعنى لجملتين مختلفتين في تركيبهما السطحي.» [1] فتظهر هذه البنية من تحديد العلاقات بين الألفاظ المركبة للجملة للوصول إلى المعنى المقصود وبالتالي رفع اللبس النحوي الذي قد يظهر على مستوى البنية السطحية. ففي قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ

---

[1] جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ص:78.

[2] جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، ص:203.

[3] أحمد عزوز، المدارس اللسانية، ص:183.

[1] أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، ص:163.

الصَادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[2] تمثل هذه الجملة بنية سطحية، أما البنية العميقة فيها فتظهر في العلاقات بين الفاعل والمفعول به (ينفع الصادقين صدقهم)، والتي بدورها حددّت التفسير الدلالي للجملة. أمّا التحويل فتمثل في المضاف إليه المحوّل عن الجملة الفعلية وتقديم المفعول به على الفاعل، وهذا ما حوّل البنية العميقة إلى بنية سطحية. ولابدّ من توافق دلالي بين البنية السطحية والبنية العميقة حتى تكون الجملة نحوية.

ويبدو تأثر تشومسكي بقواعد مدرسة بوروايال في علاقة البنية السطحية بالبنية العميقة إذ ترى هذه القواعد أنّ البنية السطحية لا ترتبط فقط بالجانب الصوتي للغة بل تعكس بنية عميقة تمثل معنى ذهنيا يعبّر عنه المتكلم بالبنية السطحية. ويستدلون على ذلك بجملة: الله غير المنظور خلق العالم المنظور. بنية سطحية تحوي البنيات العميقة التالية: - خلق الله العالم. — الله غير منظور. — العالم منظور[3] .

ولعل هذا ما جعل تشومسكي يحاول وضع نحو يعتمد على المنطق في قواعده وردّ اللغة إلى القدرة العقلية المميزة للإنسان ولذا فهو يرى أن المهم بالنسبة للتفسير هو« أن تحدّد القدرة الباطنية في ذهن الطفل التي تجعله يقفز هذه القفزة الهائلة من المعطيات الحاصلة له بالسماع إلى العلم الذي يبلغه من اللغة.» [4] وللوصول إلى هذه الغاية فقد ربط تشومسكي بين الكفاية اللغوية للمتكلم التي تمكّنه من توليد الجمل وفق قواعد لغته والأداء اللغوي المتمثل في كيفية استعمال قدرته اللغوية من جهة وبين البنية العميقة والبنية السطحية من جهة أخرى.

ويمثل تفسير هذه القدرة الباطنية الذهنية للإنسان الموضوع الأساسي لنظرية تشومسكي والذي يهدف من وراء دراسته للوصول إلى القواعد النحوية الكامنة وراء بناء الجمل النحوية أو القدرة الإبداعية للغة بالبحث في مستوى البنية العميقة بالاعتماد على الحدس اللغوي لمتكلّم اللغة. وبهذا اختلفت اللسانيات التشومسكية عن اللسانيات البنيوية موضوعا ومنهجا وهدفا، فقد ركّزت البنيوية على دراسة النصوص اللغوية بوصف بنيتها للوصول إلى تصنيف اللغات المدروسة حسب بنية كلّ لغة [5] .

---

[2] المائدة:119.

[3] ينظر عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص:33.

[4] مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، ص:299.

[5] ينظر رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص:187.

وخلاصة القول: إنّه مهما اختلفت المدارس اللسانية باختلاف مفاهيمها ومناهجها وطرائقها في التحليل إلاّ أنّها جميعا تندرج تحت مفهوم البنيوية كمنهج للبحث العلمي يقوم على مبدأ النسق الذي يجعل اللغة نظاما من الوحدات المترابطة، والتي تتحدّد قيمة الواحدة منها بعلاقتها مع الوحدات الأخرى داخل هذا النظام مما يعطي الأولوية لهذا النظام على عناصره.

الخاتمة

خـــــاتمـــــة

وفي ختام هذا العمل الذي سهرت فيه على البحث الجاد والمتواصل للوصول إلى حقيقة تلك المفاهيم الثنائية التي سادت الدرس اللساني منذ نشأته الأولى وحتى بلوغه هذه الدرجة العلمية الرفيعة والمنزلة الهامة بين مختلف العلوم والمعارف الإنسانية. وبعد المرور بمختلف مراحل هذا البحث، حاولت رصد بعض النتائج ألخصها في النقاط التالية:

- تعود جذور فكرة الثنائية في اللسانيات إلى مفاهيم فلسفية مستمدة من الحضارة اليونانية وخاصة من فكر أفلاطون وأرسطو، كما تعود إلى جذور تاريخية متصلة بالبحث في أصل اللغة بين التوفيق والاصطلاح، ويعد هذا بمثابة تأصيل للفكر الثنائي. وهنا يظهر أثر التراكم الفكري والمعرفي وإسهامه في تطوير المعارف والعلوم.
- تمكن علماء اللسانيات الحديثة من استنتاج تلك المفاهيم النظرية المجردة – التي قام عليها علم اللغة – من دراستهم للوقائع اللغوية ووصف اللغات وصفا علميا دقيقا، فكانت هذه المفاهيم تابعة من صميم المادة المدروسة بعد تأمل طويل وتفكير عميق.
- عمل دي سوسير على ترسيخ فكرة الثنائية في اللسانيات كمنوال إجرائي لدارسة اللغة دراسة علمية في ذاتها ولذاتها والكشف عن نظامها القائم على علاقات تحكم عناصره بحيث تتحدد قيمة كل عنصر من علاقاته بالعناصر الأخرى.
- التلازم القائم بين طرفي الثنائيات اللسانية الذي يصل إلى حد التوأمة بين الدال والمدلول، والشكل والمضمون. وضرورة التكامل بينها الذي تفرضه الدراسة الواقعية للغة في إطار منهج علمي.
- ركز علماء مدرسة جونيف على دراسة الكلام الذي اعتبر دي سوسير دراسته وسيلة مكملة ومساعدة لدراسة الجانب الطبيعي في اللغة، فنشأت عن دراسة الكلام الأسلوبيات كشكل من أشكال الكلام.
- استثمر الوظيفيون المفاهيم اللسانية الثنائية في إطار دراستهم الوظيفية للغة، فسار جاكبسون على نهج دي سوسير إذ استخلص ثنائياته اللسانية من دراسته للغة والأدب.

- أكد أندري مارتينيه على التصور الثنائي في دراسة اللغة بوضعه مفهوم التقطيع المزدوج في إطار دراسته التحليلية للتراكيب الغوية، وإن غير المصطلحات الدالة على تلك المفاهيم.
- اهتم هلمسليف بالدراسة المنطقية الصورية للغة، فكانت نظريته عصرنة لعلم اللغة ودافعا لظهور اللسانيات الرياضية والحاسوبية وإن لم تبلغ هدفها المنشود وخاصة في الجانب التطبيقي.
- حدد تشومسكي الوظيفة الأساسية للسانيات بوصف وتفسير القدرة الذهنية الكامنة في الإنسان والتي تمكنه من اكتساب اللغة وإبداع جمل جديدة، وهذا ما نتج عنه تطوير طرائق تعليم اللغات بمراعاة الجانب النفسي للمتعلم.
- أسهمت المدارس اللسانية على اختلاف مناهجها وطرائقها في ترسيخ مفهوم الثنائية ومبدأ نظامية اللغة مما جعلها تندرج تحت تيار فكري ساد مختلف الميادين العلمية عرف بالبنوية.

وأخيرا فإنني لا أدعي تمام البحث في هذا الموضوع وسد الثغرات فيه فقد تظهر نقائص في هذا العمل لم أتنبه إليها. ويبقي باب الاجتهاد مفتوحا لاستكمال البحث وتحصيل فائدة أكبر.

أرجو أن أكون وفقت في تقديم عمل علمي يعود بالفائدة على القارئ.

والحمد لله الذي أعانني بفضله على إنجاز هذا العمل.

وما توفيقي إلا بالله.

فهرس المصادر والمراجع

فهـــــرس المصـــــادر والمراجـــــع

القرآن الكريم برواية حفص

- أحمد حساني،مباحث في اللسانيات،ديـوان المطبوعات الجامعية،بـن عكنـون،الجزائر ط 1999 م.
- أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ط1 1995م.
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط2، 1419هـ 1999م.
- أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، 2002م.
- أحمد عزوز، المدارس اللسانية، أعلامها، مبادئها ومناهج تحليلها لأداء التواصلي دار الأديب للنشر والتوزيع، وهران، 2005
- إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، دار المعارف، مصر، 1969م.
- أندري مارتينيه، مبادئ اللسانيات العامة، تر: الدكتور أحمد حمو، المطبعة الجديدة دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1404هـ-1405هـ، 1984م-1985م.
- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1418هـ 1998م.
- جان بيرو، اللسانيات، تر: الحواس مسعودي ومفتاح بن عروس، دار الأفاق الأبيار، الجزائر، 2001م.
- ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان المجلد الأول، ط1، 1421هـ-2001م، مج1
- جيفري سامبسون، المدارس اللغوية-التطور والصراع-، تر: د.أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1416هـ 1993م.
- جورج مونان، تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، تر: بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، سوريا 1392هـ 1972م.

- جورج مونان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: نجيب غزاوي، مطابع مؤسسة الوحدة وزارة التعليم العالي الجمهورية العربية السورية، 1392هـ-1972م.
- جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، تر وتع: دكتور حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 1995م.
- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 1424هـ-2004م.
- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع 2005.
- رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر:جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1417هـ 1997م.
- رياض القاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي، 2- لبنان مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط1، 1982.
- رومان جاكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2002.
- رونالد إيلوار، مدخل إلى اللسانيات، تر: بدر الدين القاسم، الجمهورية العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، ب.ت.ن.
- الزجاجي أبو القاسم، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس بيروت، ط5، 1406هـ-1986م.
- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، مكتبة مصر، القاهرة د.ت.ن.
- زواوي بغوره، المنهج البنيوي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، ط1، 2001م.
- الطيب دبه، مبادئ اللسانيات البنيوية، دراسة تحليلية ابستمولوجية، دار القصبة للنشر، ط2001م.

- كاترين فوك، بيارلي قوفيك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، تعريب المنصف عاشور، إشراف ومراجعة: رابح إسطنبولي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1984م.
- كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلومصرية، د.م.ن ط2، 1985م.
- ماريو باي، أسس علم اللغة، تر و تع:د.أحمد مختار عمر، علم الكتب، القاهرة ط8، 1419هـ -1998م.
- مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر د.م.ن، ط1، 1989م.
- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللغة الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، د.م.ن، ط1، 1988م.
- مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار المأمون للطباعة، ط3، 1979م.
- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة دار الحكمة، الجزائر، 2001م.
- محمد بن إبراهيم الحمد، فقه اللغة، مفهومه، موضوعا ته، قضاياه، دارا بن خزيمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط1، 1426هـ – 2005م.
- محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.ن.
- محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية د.ت.ن.
- محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2002م.
- محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، القاهرة ط2، 1417هـ-1997م.

- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج13، ب.ط، ب.ت.ن.
- مصطفى حركات، اللسانيات العامة، دار الأفاق، د.ت.ن.
- ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط2، 1403هـ-1983.
- ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، د.ت.ن.
- مشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسة لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، د.م.ن، ط1، 1993م.
- نور الدين النيفر، فلسفة اللغة واللسانيات، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1993م.
- نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية الأزريطة، الإسكندرية، 2002.
- صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2005.
- صالح بلعيد، التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، 1994م.
- صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت، د.ت.ن.
- عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني بيروت، ط1، 1992ن
- عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، دار هومة، ط2002
- عبد الجليل مرتاض، دراسة سيميائية ودلالية في الرواية والتراث، منشورات ثالثة الجزائر، 2005.
- عبد الجليل مرتاض، في مناهج البحث اللغوي، دار القصبة للنشر، الجزائر 2003م.

- عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل (إقترابات لسانية للتواصلين: الشفهي والكتابي)، دار هومة، الجزائر.
- عبد الجليل مرتاض، مفاهيم لسانية دي سوسورية، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران. د.ت.ن.
- عبد الجليل مرتاض، الظاهر والمتخفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005م.
- عبد القادر مهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990.
- عبد السلام مسدي، اللسانيات من خلال النصوص، عن محمود أحمد السيد، الدار التونسية للنشر، ط2، د.ت.ن.
- فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون- دراسة ونصوص- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ 1993م.
- فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تع: صالح قرمادي وآخرون الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا 1985م.
- ج.فندريس، اللغة، تع: عبد الرحمان الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلومصرية، 1950.
- سليم بابا عمر، اللسانيات العامة المسيرة 1- علم التراكيب، أنوار، الجزائر 1990م.
- وائل بركات، مفهومات في بنية النص، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق سوريا، ط1، 1996.
- ول ديورانت، قصة الفلسفة، تر: فتح الله محمد مشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط4، 1979م، ص:112.

الدوريات:

- مقال عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث (3)، مجلة اللسانيات جامعة الجزائر، مج2، 1972م.

- مقال وفاء محمد كامل، النبوية في اللسانيات، عالم الفكر، المجلد(26)، العدد (02)، أكتوبر- ديسمبر، 1997م.

المراجع الأجنبية:

- André Martinet, Eléments de linguistique Générale, Armand Colin, Masson, Pari, 4ème éditions, 1996.
- J.P Bronckart, Théories du langage –une introduction critique- pierre Mardaga, Liège, 4ème édition, 1977.
- Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique générale, publié par : Charles Bally, Albert Sechehaye, avec la collaboration de Albert Riedlinger, Payot, Paris, 1972.
- Jean Dubois, Grammaire structure du Français, la phrase et les transformations, Libraire Larousse, Paris 1969.
- Patrick Guelpa, Intruduction à l'analyse linguistique, Armand Colin, Masson, Paris, 1997.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر و تقدير

الإهداء

جدول الرموز (المختصرات)

المقدمة ..... أ – د

المدخل :جدلية الثنائية في الدراسات اللغوية القديمة

لمحة تاريخية عن الدراسات اللغوية القديمة 02

1) التفكير اللغوي عند الهنود..... 02

2) التفكير اللغوي عند اليونان 04

3) التفكير اللغوي عند الرومان 07

4) التفكير اللغوي عند العرب 10

المفهوم الفلسفي لجدلية الثنائي عند اليونان..... 14

مفهوم الثنائية في التراث العربي..... 15

الفصل الأول:رؤى جدلية في اللسانيات التاريخية

الدراسات اللغوية في عصر النهضة ومطلع العصر الحديث 18

اللسانيات التاريخية 22

رواد اللسانيات التاريخية 25

مناهج اللسانيات التاريخية 27

اللسانيات المقارنة..... 29

رواد اللسانيات المقارنة 31

تطور الدرس اللساني..... 41

- ❖ علم الأصوات..... 41
- ❖ ظهور علم اللهجات 42
- ❖ بوادر اللسانيات الوصفية..... 44

الفصل الثاني: اللسانيات مع فرديناند دي سوسير

فرديناند دي سوسير..... 48

أهم المذاهب العلمية المؤثرة في فكر دي سوسير..... 50

1. المذهب الاجتماعي..... 50
2. المذهب الفلسفي اليوناني..... 51
3. المذهب الفلسفي الوضعي 52
4. المذهب النفسي..... 53

دي سوسير والدرس اللساني 59

جدلية الثنائية عند دي سوسير..... 62
مفاهيم دي سوسير اللسانية (الثنائية) 63
1) اللغة والكلام..... 63
2) الدال والمدلول (العلامة اللسانية) 69
3) التزامنية: (Synchronique) والزمنية(Diachronique) أو التعاقبية..... 77
4) العلاقات التركيبية والاستبدالية (علاقات الحضور والغياب) 86
5) الفونولوجيا والفونتيك..... 88
6) لسانيات اللغة و لسانيات الكلام..... 89
7) المكتوب والمنطوق..... 90
8) اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية..... 91

الفصل الثالث: الثنائيات السوسيرية والمدارس اللسانية

الأسس المنهجية للمدار س اللسانية..... 95
1) مدرسة جونيف أو المدرسة السوسيرية..... 96
2) مدرسة براغ (المدرسة الوظيفية) 100
مبادئ المدرسة الوظيفية..... 102
التحليل الفونولوجي ونظرية الفونام..... 105
بين رومان جاكبسون ودي سوسير..... 109
وظائف اللغة..... 114
أندري مارتينيه: مفاهيم..... 117
3) مدرسة كوبنهاجن..... 121
منهج الجلوسيمية في الدراسة..... 122
نظام اللغة..... 123
مستوى الدوال ومستوى المدلولات..... 124
اللغة والكلام..... 127
4) المدرسة التوليدية التحويلية..... 127
النحو التوليدي والتحويلي..... 128
ثنائيات تشومسكي..... 130
1) الكفاية اللغوية والأداء اللغوي..... 130
2) البنية السطحية والبنية العميقة..... 132

الخاتمة..... 136- 137

فهرس المصادر والمراجع..... 139-144

فهرس عناصر الموضوع..... 145-146